



كلية الآداب بقنا
قسم التاريخ

تاريخ الدولة العربية الإسلامية

الأستاذ الدكتور

صلاح سليم طايح

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

وعميد كلية الآداب

جامعة جنوب الوادي

الأستاذ الدكتور

إبراهيم على القلا

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

وعميد كلية الآثار

بصان الحجر - جامعة الرقازيق

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ذو العرش العظيم، والصلاة والسلام على إمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله خاتم المرسلين، ورحمة العالمين وبعد

يتناول هذا الكتاب تاريخ الدولة العربية الإسلامية (منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي) حيث يؤرخ لأهم فترة في تاريخ العرب منذ فجر البشرية وحتى الآن ويحتوى على موضوعات هامة عالجتها في ثنايا الكتاب.

يتناول الفصل الأول الحياة السياسية والدينية في جزيرة العرب قبل الإسلام، مدن الحجاز، الحياة الدينية عند العرب، أيام العرب.

وعرضت في الفصل الثانى البعثة النبوية وحياة الرسول ﷺ في مكة، محمد ﷺ قبل البعثة، البعثة النبوية، قيام الدولة العربية الإسلامية في المدينة.

أما الفصل الثالث فقد خصصته للصراع بين مكة والمدينة، كما أشرت أيضًا إلى أهم غزوات الرسول ﷺ: غزوة بدر سنة ٢هـ، غزوة أحد سنة ٣هـ، غزوة الأحزاب (الخدق) ٥هـ، صلح الحديبية سنة ٦هـ، غزوة مؤتة ٨هـ، فتح مكة ٨هـ، غزوة حنين والطائف ٨هـ، غزوة تبوك سنة ٩هـ، حجة الوداع سنة ١٠هـ.

وعالجت في الفصل الرابع عصر الخلفاء الراشدين (١١-٤٠هـ / ٦٣٢-٦٦١م)، الخليفة أبو بكر الصديق، الخليفة عمر بن الخطاب، الخليفة عثمان بن عفان، الخليفة علي بن أبي طالب،

أما الفصل الخامس فقد خصصته للخلفاء الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٦٨٠م).

وأنهت هذا الكتاب بقائمة المصادر والمراجع، فهرس الأعلام والمدن.
والله ولى التوفيق

دكتور

صلاح سليم طابع

إبراهيم القلا

الفصل الأول

الحياة السياسية والدينية في جزيرة العرب قبل الإسلام

١- مدن الحجاز.

٢- الحياة الدينية عند العرب.

٣- أيام العرب.



الفصل الأول

تمهيد:

كانت جزيرة العرب مسكناً لأكثر العناصر العربية، ويتألف غربها من إقليمين كبيرين: الحجاز شمالاً، واليمن جنوباً، ويمتد الحجاز من أيلة (علي رأس خليج العقبة) إلى اليمن، وفي جنوبه بلاد اليمن، وهي تشمل الزاوية الغربية الجنوبية من الجزيرة. أما الزاوية الجنوبية الشرقية منها، فيقع فيها إقليم عمان، وهو قطر جبلي علي شاطئ البحر. وهناك بجزيرة العرب جزء مرتفع يمتد من جبال الحجاز، ويسير شرقاً إلى صحراء البحرين يسمي نجداً، وبين نجد واليمن إقليم اليمامة وهو يتصل بالبحرين شرقاً وبالحجاز غرباً. (١)

لم يكن هناك في بلاد العرب قبل الإسلام دولة عربية، بل كان بها وحدات سياسية مستقلة تعرف بالقبائل؛ وهذه الحالة نلاحظها في الجهات الصحراوية التي في أواسط جزيرة العرب مثل نجد وأطراف الحجاز. أما في الحجاز فنجد مدناً ذات حياة سياسية خاصة، كذلك كان بأطراف جزيرة العرب في جنوب ممالك اليمن، وفي الشمال الشرقي مملكة الحيرة، وفي الشمال الغربي دولة الغساسنة، ومن ذلك يتضح عدم وجود حكومة مركزية في بلاد العرب. (٢)

العرب موطنهم وأنسابهم:

معنى كلمة عرب: قبل أن نبدأ دراسة تاريخ الدولة العربية الإسلامية من المهم أن نتعرف أولاً على هؤلاء العرب وموطنهم، ولماذا سمو عرباً وأنسابهم، والعرب أمة سامية الأصل نسبة إلى سامى بن نوح كما ورد في التوراة، وقد اختلفت الآراء في معنى كلمة العرب فيذكر المعنى الحقيقي للفظ عرب هو صحراء، وكان ورودها

(١) لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

٢٠٠٠م، ص ٣٩.

(٢) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، الطبعة الثالثة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣م،

لأول مرة بنفس هذا المدلول في النقوش الآشورية التي ترجع إلى القرن التاسع ق.م وفي التوراة وردت كلمة عرب بما يستفاد منه أن المقصود هم سكان البادية. (١)

ويفهم مما كتبه هيرودوت أنه كان يقصد بالعرب سكان المنطقة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب. ولفظ عرب في التاريخ القديم يرادف لفظ بدو أو "بادية" في هذه الأيام. وفي كتب العرب القدامى أن العرب إنما سموا بالعرب لأنهم اتصفوا وتميزوا بين الأمم بالأعراب وهو البيان.

ويرى بعض المؤرخين ومعهم فريق من المستشرقين أن كلمة عرب مشتقة من يعرب بن قحطان وهو جد العرب العاربة.

وهناك لفظ آخر هو Saracens كان يطلقه الرومان على البدو والمجاورين لبلادهم في الصحراء الممتدة غرب الفرات ثم شاع إستعماله بعد ذلك فصار يطلقه الأوروبيون على العرب كافة ثم على المسلمين ثم على أهل الشرق جميعاً، وقيل أنه مشتق من لفظ شرق العربية وقيل أنه مشتق من لفظ "صحراء أيضاً".

كذلك أطلق السريان من أهل الرها Edessa وأهل بابل على جميع العرب لفظ Taits وقيل أنه يبدو أن المراد بهذا اللفظ قبيلة طيء التي كانت تقيم في الشمال الغربي من مجد ثم انتشروا في جهات مختلفة خارج بلادهم.

وقد أطلقت المصادر العبرية كلمة العرب على سكان الجزيرة العربية كلها شمالها وجنوبها، كذلك أطلق سكان الإغريق ثم الرومان من بعدهم اسم العرب على الجزيرة العربية كلها، كما ورد لفظ عرب في القرآن الكريم علماً على العرب جميعاً من حضر وأعراب ووصف فيه لسانهم باللسان العربي. (٢)

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،

د.ت، ص ٦٤.

(٢) محمد مبروك نافع: عصر ما قبل التاريخ، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٢م،

ص ١٣.

وقد اختلف العلماء والمؤرخون في تحديد المهد الأصلي للسامانيين أهم من بلاد العرب أم رحلو إليها من إفريقية؟ أم رحلوا إليها من بلاد الجزيرة حيث يرى بعض المستشرقين أن مهد الساميين في إفريقية مستندين إلى اقتراب بلاد الحبشة من بلاد العرب إقليمياً ولغةً ويرى البعض الآخر أن مهدهم جزيرة العرب ومنها تفرقوا في الأرض.

الشعوب العربية:

١- مدن الحجاز:

لم يكن هناك ببلاد الحجاز قبل الإسلام ما يسمى بالدولة العربية، وإنما قام بها مدن لكل منها نظام سياسي، ومن أشهرها مكة، ويثرب، والطائف. (١)

• **مكة:**

تعد مكة من أهم حواضر الحجاز، وهي عبارة عن قرية في واد ضيق غير ذي زرع تحيط به الجبال من جميع الجهات، ويروي أنها سميت بذلك لقلّة مائها أخذاً من قولهم أمتك الفصيل ضرع أمه (أى امتصه)، وقيل لأنها تمك الذنوب، بمعنى أنها تذهب بها، ويقال لها أيضاً "بكة" بإبدال الميم باء موحدة، وقد ورد ذكرها بهذه الصورة في القرآن الكريم في قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ) (آل عمران: ٩٦) وقيل: مكة بالميم معناه الحرم كله، وبكة المسجد خاص كان العمالقة أول من سكن مكة، ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمينية، وفي عهدها قدم إلي مكة سيدنا إبراهيم مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل، وأصبح لها فيما بعد السيادة علي البيت الحرام، غير أن ولاتها لم يراعوا حرمة هذا البيت فكثر في أيامهم البغي والفساد، واغتصب كثير منهم مال الكعبة الذي كان يهدي إليها. ويقال: إن ماء زمزم نضب في عهدهم، كما أن البئر نفسها زالت معالمها. (٢)

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ١، ط ٨، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م،

ص ١٠.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٩٧-٣٠١.

وبينما كانت جرهم مقيمة بمكة تفرق عرب اليمن بسبب سيل العرم. فهاجر ثعلبة بن عمرو بن عامر إلي مكة وهو وقومه، فرفضت جرهم أن تسمح له بالإقامة في هذه المدينة واشتبكت معه في قتال دام ثلاثة أيام انتهى الأمر فيه بهزيمتها.

ظل ثعلبة بن عمرو مقيماً بمكة حتي أصابته الحمي، فرحل إلي الشام وولي أمر مكة وحجاجة الكعبة ابن أخيه ربيعة بن حارثه بن عمرو وهو حي ، وعرف قومه بخزاعة، وقد انحاز إليهم بنو إسماعيل بن إبراهيم - وكانوا قد اعتزلوا الحرب التي دارت بين جرهم وثلعبه.

آلت ولاية مكة وحجابه الكعبة إلي عمرو بن حي بعد وفاة أبيه وعلت مكانته بين العرب إلي حد أن قوله أصبح ديناً لا يخالف. وكان عمرو بن الحي أول من أطعم الحجاج بمكة لحوم الإبل علي الثريد، كما قام بنصب الأصنام حول الكعبة وأحل عبادة الأوثان محل الحنيفية - دين إبراهيم عليه السلام.

ظلت خزاعة تلي البيت الحرام بمكة نحواً من ثلاثمائة سنة، وكانت قريش إذ ذاك متفرقة في بني كنانة حتي تزعمها قصي بن كلاب ووجد بين بطونها.

ويذكر بعض المؤرخين عن طموح قصي إلي نصره قريش وحرصه علي تقلدها الرئاسة بمكة أن أباه كلابا توفي وتركه صغيراً مع أمه فاطمة بنت عمرو التي تزوجت ربيعة بن حرام - وهو من قضاة، ثم رحلت مع زوجها إلي أرض قضاة ببلاد الشام وأخذت بصحبتها ابنها قصي، فلما بلغ قصي أشده تحدث إليه رجل من قضاة بقوله: " ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا" فاستاء قصي من هذا الرجل وأخبر أمه بذلك الحديث، فقالت له: " والله انت يا بني خير منه وأكرم، أنت ابن كلاب بن مرة وقومك عند البيت الحرام وما حوله" فصمم قصي علي الخروج إلي قومه واللاحق بهم وكره الغربية في أرض قضاة، وما لبث أن سار إلي مكة، وأقام بها وتزوج ابنة زعيم خزاعة حليل بن حبشة بن سلول الذي

كان يلي إذ ذاك أمر الكعبة ومكة، وظل قصي مقيماً معه حتي أنجب أولاده عبد الدار وعبد مناف وعبد العزي.

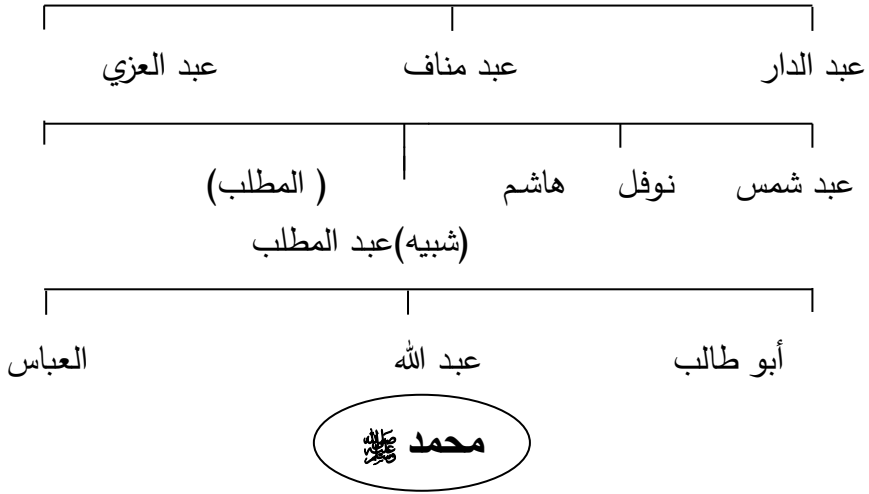
كان حليل يثق بابته زوجة قصي، فإذا ما أصابه المرض، سلمها مفتاح الكعبة لتقوم بشئونها بدلاً منه، وكانت بدورها تعطي المفتاح لزوجها حين يتعذر عليها الخروج من بيتها بسبب المرض.

ولما شعر زعيم خزاعة بدنو أجله، دعا قصيا وعهد إليه بولاية البيت الحرام كما سلم إليه مفتاح الكعبة، غير أن قبيلة خزاعة ما لبثت بعد وفاة زعيمها أن حالت بين قصي وبين الإشراف علي شئون البيت الحرام، وأخذت مفتاح الكعبة مكن زوجته، فبعث قصي إلي قريش يطلب منها مؤازرته ضد خزاعة، فلبى القرشيون دعوته، كما سارع القضاعيون إلي نجدته حين أرسل إليهم يدعوهم لنصرته ويخبرهم بما قامت به خزاعة من الحيلولة بينه وبين ولاية البيت الحرام وخرج قصي بمن انضم إليه من قريش وقضاعة لمحاربة خزاعة بمني؛ فدار بين الفريقين قتال شديد، ثم تداعوا إلي الصلح بعد أن تداخلت قبائل العرب بينهم، واتفقوا، علي أن يحكموا بينهم رجلاً من العرب فيما اختلفوا فقضي بينهم ذلك الرجل بأن قصيا أولي بحجابه الكعبة وأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع، وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة وقضاعة ففيه الدية، كما حكم لخزاعة بأن تظل في مساكنها بمكة وبذلك أصبح قصي ملكاً علي قومه وأهل بيته، فكان أول من ظفر بالملك من ولد كعب بن لؤي وساعد علي رفع مكانة قريش بن العرب وازدياد نفوذها بمكة.

قام قصي بتقسيم مكة إلي رباع، وزعها بين قومه، وأبقي لكل فريق منهم منازلهم التي استقروا بها. كما أنشأ دار الندوة وسميت بذلك لأنهم كانوا ينتدون بها، فيتحدثون ويتشاورون في حروبهم وأمورهم ويعقدون الالوية ويزوجون من أراد الزواج، فكانت هذه الدار دار مشهورة في أمور السلم والحرب ودار الحكومة، وفيها كان يجتمع كبار القرشيين تحت رئاسته للتداول في شئونهم، ولم يكن يدخلها من

قريش إلا من بلغ الأربعين من عمره، ثم تصدي لإطعام الحجاج وسقايتهم علي اعتبار أنهم ضيوف الله وزوار بيته، وفرض علي قريش خراجاً سنوياً يؤديه إليه لينفق منه علي إطعام فقراء الحجاج. (١)

قصي



كان من أشهر أبناء قصي: عبد الدار وعبد مناف وعبد العزي وبنو زهرة وغيرهم. وقد ارتفع شأن عبد مناف في حياة أبيه؛ وبلغ من الشرف درجة عظيمة، فرأى قصي قبيل وفاته أن يخلفه ابنه الأكبر عبد الدار في رئاسة الندوة والحجاية واللواء والسقاية والرفادة حتي يصبح موضع تقدير قومه. فلما توفي قصي قام ابنه عبد الدار بهذه الأمور، وتولاها من بعده أبناؤه، فنازعهم فيها أبناء عبد مناف بن قصي: عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل الذين راو في أنفسهم من النباهة والفضل ما جعلهم يشعرون بأنهم أحق من بني عبد الدار بولاية الأمور في مكة وأجمعوا علي أخذ بأيديهم من الوظائف. (٢)

(١) ناجي معروف: مدارس مكة، بغداد، ١٩٦٦م، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) ناجي معروف: مدارس مكة، بغداد، ١٩٦٦م، ص ١١١-١١٢.

وقد أدى ذلك إلي تفرق القرشيين؛ فمال فريق منهم إلي بني عبد مناف بن قصي، كما رأى فريق آخر ألا ينزع من بني عبد الدار بني قصي ما أسند قصي إليهم. وعقد كل فريق منهم خلفاً مؤكداً علي ألا يتخاذلوا؛ فأحضر بنو عبد مناف ومن تابعهم من قريش وهم: بنو الحارث بن فهر، وأسد بن عبد العزي، وزهرة .

بن كلاب وتيم بن مرة جفنة مملوءة طيباً، ثم غمسوا أيديهم فيها وتعهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً علي أنفسهم فسموا المطيبين.

أما بنو عبد الدار، فقد أخرجوا ومن انضم إليهم من قريش وهم مخزوم بن يقظة وجمح وسهم وعدي بن كعب، جفنة مملوءة دماً وفعلوا ما فعله بنو عبد مناف عند الكعبة، وتعهدوا علي ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً؛ سمو الأحلاف.

علي أن المطيبين والأحلاف ما لبثوا أن تداعوا إلي الصلح واتفقوا علي أن يعطوا بني عبد مناف بن قصي السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء ورئاسة الندوة لبني عبد الدار بن قصي.

وزعت الوظائف التي أخذها بنو عبد مناف بن قصي بن هاشم وأخيه عبد شمس، فولي هاشم السقاية والرفادة، أما القيادة فوليها عبد شمس وأبناؤها من بعده. وكان هاشم بن عبد مناف يطعم الحجاج في كل موسم بما يجمعه من قريش من الأموال. لما أصاب الناس في مكة جذب شديد، خرج هاشم إلي الشام واشترى بما اجتمع من ماله دقيقاً وأتي به إلي مكة وذبح الذبائح وصار يهشم الخبز لقومه؛ فسمي هاشماً . كان اسمه قبل ذلك عمراً.

حدثت منافسة بين هاشم بن عبد مناف، وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف، سببها أن هاشماً كانت إليه الرفادة مع السقاية، وعلت مكانته بين قريش لعنايته إطعام الحجاج وحمل الماء إليهم. وقد ساعده علي ذلك ثروته فحسده أمية بن عبد شمس - وكان ذا مال - ورأى أن يطعم القرشيين كما يفعل هاشم، لكنه عجز عن أداء هذا العمل، فشمت به بعض القرشيين وعابوه فغضب أمية وازداد حقه علي هاشم ودعاه إلي الاحتكام إلي رجل من العرب ليحكم أيهما

أعز نفرأً وأكثر فضيلاً، كما أعلن أن من تكون عليه الغلبة يخرج خمسين ناقة سود الحدق لتتحربطن مكة، وأن يجلو عن مكة عشر سنين، فحكم بينهما الكاهن الخزاعي بأن هاشما سبق أمية إلي المآثر، وبذلك الحكم احتفظ هاشم بما ظفر به من شرف وفضل وأخذ الإبل من أمية، فنحرها وأطعم لحمها من حضر إليه من القرشيين، وخرج أمية إلي الشام وظل بها عشر سنين. وقد أدى ذلك الأمر إلي قيام أول عداوة بين بني هاشم وبني أمية.

لما توفي هاشم خلفه أخوه المطلب في إقامة الرفادة والسقاية، وكان ذا شرف وفضل في قومه، وكانت قریش تسميه الفيض لسماحته وفيضه. وكان المطلب متآلفاً مع أخيه هاشم. وقد حافظ أبناؤهما علي ذلك التآلف حتي قال النبي ﷺ "لم يفترق هاشم والمطلب في جاهلية ولا إسلام".

خلف المطلب في السقاية والرفادة ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم، فعني عناية فائقة في إقامتها مما كان سبباً في ازدياد محبة العرب له وعلو شأنه بينهم فظل يسقي الحجاج ويطعمهم حتي توفي، فقام بأمر السقاية والرفادة من بعده العباس بن عبد المطلب. ولم يزل يتولاها حتي دخل رسول الله صلي الله عليه وسلم مكة (سنة ٨هـ) فأبقاهما في يده.

كذلك وزعت بين بني عبد الدار ما خصهم من المناصب؛ فقام عثمان بن عبد الدار بالحجابة، وتولي أخوه عبد مناف رئاسة دار الندوة. أما اللواء، فكان في بني عبد الدار كلهم، يليه منهم ذوو السن والشرف.

لم يزل بنو عثمان بن عبد الدار يلون الحجابة حتي كان فتح مكة، فتولاها رسول الله من أيديهم وفتح الكعبة ودخلها، وبعد أن خرج منها قال له العباس بن عبد المطلب: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أعطنا الحجابة مع السقاية، فأنزل الله علي نبيه: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) (النساء: ٥٨)، فاستدعي الرسول ﷺ عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار ورد مفتاح الكعبة

إليه، وقال: "خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله سبحانه، واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة لا ينزعها من أيديكم إلا ظالم"، فظلت حجابة الكعبة في بيته إلي اليوم. كان لقريش مركز كبير بين القبائل العربية من جزاء سيادتهم علي الكعبة كما علت مكانتها بين العرب لعقدها حلف الفضول؛ ذلك أن بعض قبائل قريش اجتمعت في دار عبد الله بن جدعان التيمي وتعاهدوا علي أن ينصروا كل مظلوم بمكة سواء أكان من أهلها أم من سائر الناس، وأن يكونوا علي من ظلمه حتي ترد عليه مظلّمته، وسمي هذا الحلف حلف الفضول؛ لأنهم تحالفوا علي رد الفضول إلي كل مقيم بمكة. وقد دخل في الحلف بنو هاشم والمطلب وبنو أسد بن عبد العزي وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة، ولم يشترك فيه بنو عبد شمس وبنو نوفل بن عبد مناف وشهدة رسول الله ﷺ. (١)

كذلك تمتعت قريش بمركز ممتاز بين العرب لإتساع متاجرها، فكان تجاورها يخرجون من مكة بتجارتهم في قوافل عظيمة. فيذكر الطبري أن قافلة من هذه القوافل بلغت ألفاً وخمسمائة بعير. وكانوا يذهبون بتجارتهم في الشتاء إلي اليمين وفي الصيف إلي الشام، وقد أمتازت رحلاتهم بتمتعها بالأمن لأنهم أهل حرم الله وولاه بيته، فلا يتعرض لهم الناس بسوء، علي حين كان غيرهم من العرب مهذاً بالإغارة عليهم. (٢)

وقد جني القرشيون من تجارتهم ثروات كبيرة وأصبحوا في سعة من العيش حتي امتن الله عليهم بذلك في قوله (للإيلاف قريش ﴿١﴾ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴿٢﴾ فليعبدوا رب هذا البيت ﴿٣﴾ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿٤﴾).

ويقول الله تعالي ﴿..... أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: ٥٧)

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ١، ص ٥٥.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٢٢١-٢٢٢.

كذلك أدى اشتغال القرشيين بالتجارة إلي ارتقاء معالمهم ، فاختلطوا بشعوب مختلفة وقفوا علي كثير من مدنيها وأحوالها الاجتماعية، كما تعاملوا مع أمم أجنبية تتكلم بلغات تختلف عن لغتهم مما اضطرهم إلي تعلمها. وقد أتاح كل ذلك الفرصة أما كثير من رجالهم لإظهار مواهبهم في الحروب والسياسة بعد ظهور الإسلام.

• يثرب:

كانت يثرب من بين مدن الحجاز المتحضرة، وقد ورد ذكرها بهذه التسمية في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب: ١٣) وهي تقع على بعد نحو ٥٠٠ كيلو متر إلي الشمال من مكة في مستوى من الأرض، ويحدها من الشمال جبل أحد، وتمتاز معظم أراضيها بخصوبة التربة وكان لذلك أثره في انتشار الزراعة بها، وقد ذكر الاخباريون أم ليثرب ٢٩ اسم منها طيبة والجابرة والناجية والشافية والمحبوبة والمرحومة والمختارة والقاسمة والمحفوظة وغير ذلك من الأسماء.

وكان العمالقة أول من زرعوا المدينة وسكن بها وهم بنوا عملاق بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ثم تغلب عليهم بعض القبائل اليهودية واستوطنوا بها يحدثنا صاحب الأغاني عن هجرة اليهود إلي يثرب بقوله: "كان ساكنو المدينة في أول الدهر قبل بني إسرائيل قوماً من الأمم الماضية يقال لهم العماليق، وكانوا قد تفرقوا في البلاد، وكانوا أهل غزو وبغي شديد ... كان ملك الحجاز يقال له الأرقم ينزل ما بين تيماء وفدك. فبعث موسى بن عمران إلي العماليق جيشاً من بني إسرائيل وأمرهم أن يقتلوهم جميعاً إذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم أحداً ، فقدم هذا الجيش الحجاز وأظهروهم الله علي العماليق". فكان هذا بداية استيطان اليهود بيثرب علي أن هجرة اليهود إلي يثرب لم تظهر بشكل واضح إلا في القرنين الأول والثاني الميلاديين علي أثر الحروب التي شنها الرومان ضد اليهود بسوريا

والتي انتهت بطردهم منها وتشتتهم في أنحاء متفرقة، فهاجر منهم بنو النضير وبنو قريظة إلي شمال جزيرة العرب وأقاموا بيثرب.

اختلط اليهود بالعرب المقيمين بيثرب وتأثروا بنظمهم الاجتماعية، فعاشوا معيشة قبلية. وبلغ من تأثرهم بالعرب أن استحالت أسماءهم إلي أسماء عربية ونبغ من بينهم بعض الشعراء كالسموعل بن عادية.

كان لليهود أثر بعيد المدى في الحياة الاقتصادية بيثرب، فقبضوا بأيديهم علي الناحية المالية فيها وازدادت ثرواتهم من وراء اشتغالهم بالتجارة وعنايتهم بمراقبتها، كما ركزوا اهتمامهم في فلاق الأرض الخاصة وبرعوا إلي جانب ذلك في الفنون الميكانيكية وصناعة الذهب وصناعة الأسلحة والآلات الزراعية وقد اشتهرت قبيلة بني قيناع اليهودية بصفة خاصة بالصياغة، حتي أن أحد أسواق يثرب عُرف باسمهم. (١)

ظل بنو النضير وبنو قريظة مقيمين بيثرب حتي نزح إليهم من بلاد اليمن قبائل الأوس والخزرج الوثنية بسبب سيل العرم الذي خرب بلادهم ولم يزل هؤلاء العرب بها حتي هاجر إليها النبي ﷺ فأمنوا به ونصروه وسموتوا الأنصار.

كانت العلاقة بين اليهود، والأوس والخزرج حسنة أول الأمر فاشتركوا معهم قي قوافلهم التجارية، كما اشتغلوا بالزراعة في أرضهم. يقول السمهودي عن العلاقات بين اليهود والأوس والخزرج: "أقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والأطام^(٢). والنخيل في أيدي اليهود، ووجدوا العدد والقوة معهم فمكثوا، ما شاء الله سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً، يأمن به بعضهم من بعض، ويمتنعون به ممن سواهم، فتعاقدوا وتحالفوا وتعاملوا، فلم يزالوا علي ذلك طويلاً، وصار للأوس مال وعدد، فلما رأَت قريظة والنضير حالهم خافوا أن يغلبوهم علي دورهم

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،

ص ٤٢٨.

(٢) الأطام: جمع أطم وهي بيوت من حجارة.

وأموالهم، فتمتروا لهم حتي قطعوا الحلف الذي كان بينهم "ولما استبدت القبائل اليهودية بيثرب بالأوس والخزرج، واستنجدوا بالغساسنة، فقدموا لنجدتهم أنفة من تسلط اليهود علي بني عمهم في يثرب. (١)

كان الأوس والخزرج علي وفاق في بداية عهدهم، ثم وقعت بينهم حروب طويلة اشتركت فيها القبائل العربية، وكان النصر في أغلب الأحيان محالفاً للخزرج حتى اضطرت الأوس أن تسعي إلي محالفة قريش لتكون عوناً لها علي الخزرج. لكن قريشاً كانت أحرص من هاتين القبيلتين فلم ترد الدخول في حرب لا تعود عليها بفائدة، لذلك نجد الأوس تعقد حلفاً مع بعض القبائل اليهودية بيثرب، فحالفت بني قريظة وبني النضير.

ولما بلغ الخزرج نبأ تحالف الأوس مع هاتين القبيلتين اليهوديتين أرادت أن تتأكد من أنهما لن يساعدا الأوس عليها، فأرسلت إليهم تستوضح موقفهم، فأخبرهم اليهود أنهم لا يرغبون في الحرب، لكن الخزرج رغم ذلك قالت لليهود: "أعطونا رهائن وإلا فلا نأمنكم" فأعطوهم أربعين غلاماً من بينهم، ثم ما لبثت أن خيرتهم بين الجلاء عن يثرب أو قتل الغلمان، فأثروا الخروج من ديارهم؛ غير أن كعب بن أسد القرظي حملهم علي العدول عن عزمهم مضحياً بالرهائن في سبيل بقائهم بيثرب، فقتل الخزرج الغلمان. وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر في نفوس اليهود، فجاهروا بحلفهم مع الأوس واشتركوا معهم في محاربة الخزرج والتقي الفريقان ببعاث^(٢). حيث وقعت بينهما حرب عرفت بحرب فجار يثرب أو فجار الأوس والخزرج لقتل الغلمان، انتهى الأمر فيها بانتصار الأوس، ثم تصالح الفريقان واتفقا علي إقامة حكومة تعمل علي استقرار الأمور في يثرب، وأن يكون عبد الله بن أبي^(٣). بن سلول الخزرجي والياً عليهم، وبينما كانوا يتأهبون لذلك هاجر الرسول ﷺ إلي يثرب، فخضع الجميع له وعدلوا عن تولية عبد الله بن أبي الذي اضطر

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ١، ص ٦٣.

(٢) من أعمال قريظة بيثرب.

(٣) أبي مالك بن الحرث بن عبيد، واسم أم عبيد سلول.

إلي الدخول في الإسلام بعد أن اعتنقه قومه، وصار علي رأس المنافقين في المدينة وإليه يجتمعون.

• الطائف:

كانت الطائف تسمى وجا نسبة إلي وج بن عبد الحي أحد العمالقة الذين سكنوها، وتقع علي بعد اثني عشر فرسخاً شرقي مكة علي مرتفع من الأرض، لذلك أصبحت مصيفاً لأهل مكة، وتمتاز بخصوبة تربتها حتي قيل إنها بقعة من الشام انتقلت إلي الحجاز، كما اشتهرت ببساتينها وحدائقها الرائعة التي كان يزرع بها كثير من الفواكه مما يشابه فواكه الشام، وهي إلي جانب ذلك طيبة الهواء وبها مياه جارية. (١)

وقد زاد موقع الطائف الطبيعي من أهميتها كمركزي تجاري، فيمر بها طريق القوافل الممتد من جنوب بلاد العرب إلي شمالها، ومن العراق إلي اليمن. وكان هناك صلات قوية بين أهالي الطائف ومكة، فالأثرياء من قريش كان لهم عقار في الطائف، كما أنهم كانوا يقرضون أهاليها ملكا يحتاجون إليه من مال، فيحدثنا الأزرقى أن العباس بن عبد المطلب كان له كرم بالطائف، وأنه كان يداين أهل البلد ويأخذ منهم الزبيب ويسقيه الحجاج في موسم الحج، وفضلاً عن ذلك فإنه كان بين هاتين المدينتين علاقات تجارية. (٢)

استفاد أهالي الطائف من الزراعة والتجارة، فزادت ثروتهم وصارت بلدهم تقرن بمكة، فيقال المكتين والقريتين، وهذه التسمية وردت في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف: ٣١) كانت قبيلة ثقيف بالطائف، ويروي المؤرخون في سبب إطلاق اسم ثقيف علي هذه القبيلة. أن قسيا بن منبه بن بكر بن هوازن لما رحل من وادي القري إلي وج التي عرفت باسم الطائف قابل زعيمها عامر العدوانى، وطلب منه أن يزوجه إحدى بناته، فزوجه إياها وأنجب منها أولاداً ثم توفيت، فتزوج أختها، واستقر مقامه بهذا البلد وغرس

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج ٤، ص ٩.

(٢) محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية، دار الفكر العربى، القاهرة، ص ٤٦.

بأرضه بعض العيدان التي أخذها من عجوز يهودية كان قد أقام عندها بوادي القري، فلما أثمرت العيدان ، قال أهالي وج: قاتله الله كيف ثقف عامراً حتي بلغ منه ما بلغ، وكيف ثقف هذه العيدان حتي جاء منها ما جاء، فسمي ثقيفاً من يومئذ (١) .

وتكاثر نسله وأصبحت قبيلته في سعة من العيش مما جعل أنظار من حولهم من العرب تتجه إليهم، لذلك رأت ثقيف أن تبني سوراً يكون حصناً لهم وأطلقوا عليه الطائف لإطاقته بهم؛ ومن ثم عرفت هذه المدينة بالطائف.

كانت ثقيف تنقسم إلي طبقتين، تمثل الأولى في بني مالك وتعرف الأخرى بالأحلاف، فلما أثري الأحلاف وكثرت خيلهم حموا^(٢) لبني مالك حمي من أرض بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، فأستاء بنو نصر من ذلك وحاربوا الأحلاف، وكان يتزعم بني نصر عفيف بن عوف بن عباد النصري ثم خلفه اليربوعي، أما رئيس الأحلاف فهو مسعود بن متعب. فلما قامت الحرب بين بني نصر الأحلاف، انتهز هذه الفرصة بنو مالك - وريسهم جندب بن عوف - لضغائن كانت بينهم وبين الأحلاف، فحالفوا بني يربوع ضد الأحلاف. ولما علم الأحلاف، وانتهي الأمر في هذه المعركة بانتصار الأحلاف وإخراج بني مالك إلي واد وراء الطائف، وقتل من بني مالك وبني يربوع عدد كبير، ثم رأي بنو مالك إزاء القتال المستمر وبين الأحلاف أن يسعوا إلي محافة بعض القبائل، فحالفوا دوس وختعم وغيرهما علي الأحلاف، كما خرج زعيم الأحلاف مسعود ابن متعب إلي المدنية بيتغي الحلف من الأنصار علي بني مالك. فلما قدم علي أحيحة بن الجلاح

(١) محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية، ص ٤٦-٤٧.

(٢) يقال حمي فلان الأرض يحميها، أي جعل الناس لا تقترب إليها ، والحمي، موضع فيه كلاً يحمي من الناس، وقد نهى رسول الله ﷺ أن يحمي كما كانوا في الجاهلية يفعلون (حاشية رقم ١، الإسلام السياسي، ج ١، ص ٢٧٣).

الأوسي، نصحه بمصالحة بني مالك وزوده بسلاح ومؤن كما أعطاه غلاماً يجيد بناء الآطام بالمدينة، فبني لمسعود بن معتب أطماً، فكان أول أطم بني بالطائف، ثم تلاه بناء آطام أخري فيما بعد واستقرت الأمور منذ ذلك الوقت بين بني مالك والأحلاف ولم تقم بينهم حرب تستحق الذكر.

٢- الحياة الدينية عند العرب:

عرف العرب قبل الإسلام أنواع متعددة من الديانات والعبادات فعبدوا بعض مظاهر الطبيعة التي كانت تحيط بهم مثل الأشجار وعيون الماء والكهوف والحجارة ويدل على ذلك أسماء بعض القبائل كبنى أسد وبنى كلب وبعض القبائل التي كانت تتسمى بأسماء طيور مثل عقاب ونسر أو أسماء نباتات مثل حنظلة أو أسماء أجزاء من الأرض مثل صخر وخميعها أسماء تشير إلى تقديس العرب لبعض الحيوانات والنباتات. (١)

الوثنية:

الوثنية العربية في الجاهلية المتأخرة كانت امتداداً لمرحلة من العبادات المتنوعة حيث كان بعض العرب قد ارتقوا إلى التوحيد في زمن نبي الله إبراهيم عليه السلام فإنهم سرعان ما عادوا إلى الوثنية بعده وأصبحت الوثنية الديانة الغالبة على عرب الجاهلية في القرن السادس الميلادي، فكانوا يعبدون الأصنام والأوثان والأنصاب:-

الصنم: هو ما يصنع من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان.
الوثن: هو ما كان يصنع على صورة إنسان من الحجارة وهي تماثيل منحوتة في الحجر ترمز إلى الإله ولها تذيح الذبائح وتقدم القرابين.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص ٦٠-٦٢.

الأنصاب: كانت أحجار تتصب في الجاهلية ويذبح العرب عليها ذبائحهم فهي المذبح، وقد يتحول النصب بمرور الأيام إلى صنم يعبدونه ويقدمون له ويحرقون به. (١)

ومن الأصنام ما هو على صورة حيوان أو صورة إنسان مثل سواع: على صورة امرأة، وود: على صورة رجل، ويغوث: على صورة أسد ويعوق: على صورة فرس ونسرا: على صورة طير النسر ومن الأصنام أيضاً: اللات: كانت بالطائف وهي عبارة عن صخرة مربعة أقيم عليها بناء وكان أهل مكة يحجون إليها ويقدمون لها القرابين وبلغ من تعظيم العرب لها أنهم سمو أبنائهم عبد اللات وزيد اللات.

ومنات: التي كانت من أقدم هذه الأصنام وهي من المنية وهي القضاء المحتوم فكانت إلهة القضاء وكان العرب يسمون أبنائهم عبد منات وزيد منات وقد نصب هذا الصنم على ساحل البحر بين المدينة ومكة وكانت تعزمها الأزدي والأوس والخزرج حتى أمر الرسول (ص) على ابن أبي طالب بكسره عندما خرج لفتح مكة سنة ٨ هـ والعزى: وهي أحدث من منات واللات وكانت قريش تقدسها وتعظمها وكانوا يسمون أبنائهم عبد العزى.

وقد ورد ذكرهن في القرآن الكريم في صورة النجم في الآيات ١٩ وما بعدها، ومن الأصنام التي عظمها العرب أساف ونائلة اللذان كانا بالكعبة وكانت قريش تتحر عندهما.

الصابئة: عبدة طائفة من العرب الكواكب والنجوم كالشمس والقمر والزهرة فضلاً عن كواكب أخرى مثل الشعري وعطارد وقد عرف عبدة الكواكب بالصابئة، حيث عبد العرب الشمس وخاصة في المناطق الزراعية ومثل لذلك مدينة تدمر ومدينة البتراء وأيضاً عبدها العرب الجنوبيين ويدلنا على ذلك ما جاء في القرآن الكريم في

(١) محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية، ص ١٤٣؛ على إبراهيم حسن: التاريخ

صورة النمل على لسان الهدد قال تعالى " وجئتكم من سبأ نبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم، وجدتها هى وقومها يسجدون للشمس من دون الله" وأصل دينهم فيما زعموا أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملاً بذلك سمو بالصابئة أى الخارجين لأنهم خرجوا عن تقيضهم بحملة كل دين. (١)

شاعت الوثنية في بلاد العرب قبل الإسلام، وقد قامت هذه الوثنية علي فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالأرض والسماء والنجوم والكواكب. ولما كان العرب يعتقدون بوقوعهم في حياتهم تحت تأثيرها؛ لذلك حرصوا علي إرضائها اجتلاباً لخيرها. فاتخذوا لها أشكالاً مختلفة من بيوت وأشجار وأحجار مصورة تمثل إنساناً أو حيواناً وأخري غير مصورة. وصاروا ينظرون حولها ويتاجرون عندها ويعتبرون المكان الذي فيه المعبود حراماً ، يحرم الإتيان فيه بأشياء معينة.

وكان البدو يؤدون الطقوس الدينية لمعبوداتهم تحت تأثير التقاليد الموروثة في قبائلهم، دون أن يعرفوا حقيقتها، كما أنهم كانوا قليلي الاهتمام بأمور دينهم وليس هناك ما يدل علي وجود شعور ديني عميق لديهم.

وكانت الكعبة مقر أوثان أكثر العرب وكان هذا من أهم الأسباب التي جعلت لمكة وقريش الصدارة على كل مدن الحجاز وقبائله، وأعظم الأصنام عند قريش فهو هبل الذي كان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، فصنعت له قريش يداً من ذهب وكان تمثاله أعظم صنم معلق على الكعبة، وكان يستقتى فى مشكلات الناس الشخصية كالزواج والولادة والرحلة، وكانو يجتمعون عنده بالقداح، وكان منصوباً فى جوف الكعبة، وقد قيل إن عمرو بن لحي الخزاعي لما ساد قومه بمكة وأصبحت له السيادة علي الكعبة، سار إلي مدينة البلقاء بالشام علي أثر مرض أصابه، فرأى أهلها يعبدون الأصنام: فقال لهم: ما هذه الأوثان

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص ٦٣.

التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها، نستنصرها فننصر، ونستسقي بها فنسقي، فقال: ألا تعطوني منها صنماً، فهو الذى أحضر هذا الصنم إلى مكة. وتذكر الروايات التاريخية أن أثر العرب كانوا يعبدون هذه الحجارة والأصنام لا على أنها صاحبة القوة والنفوذ بل على أنها وسيلة تقربهم إلى الاله الأكبر الذى كانوا يؤمنون به فكانوا كما قال سبحانه وتعالى: "ما نعبدهم إلا ليقربون إلى الله زلفاً" وهذا يدل على أن الله تعالى كان معروفاً لديهم، وكما ورد فى صورة لقمان آية ٢٥ فى قوله تعالى " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون".

المجوسية:

عرف العرب المجوسية أو عبادة النار عن طريق الفرس فى الحيرة واليمن والبحرين وكانت المجوسية فى العرب فى تميم كما عرف العرب الزندقة وهى نوعان زندقة ثنوية تقول بالنور والظلام كالمزدكية والزرادشتية، وزندقة دهرية تقول من يعتقد فيها بالدهر، وهم قوم أنكروا الخالق والخلق وقالوا بالطبع المحيي والدهر المبنى " وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت فيها ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر".

اليهودية:

دخلت اليهودية شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وانتشرت في أكثر من موضع فمن المعروف ان جماعات يهودية كثيرة هاجرت إلى بلاد العرب بعد أن دمر الرومان بيت المقدس " اورشالين " سنة ٧٠م وهذه الجماعات استقرت في يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء، ولكن اليهودية ظلت محدودة الحيز رغم اختلاط اليهود بالعرب واحتكارهم لبعض الحرف والصناعات كالصباغة والحدادة وصناعة الأسلحة والصيرفة مما جعلهم قوة اقتصادية مؤثرة، ولكن اليهود لم يكونوا مهتمون بالتبشير ونشر دينهم بين الناس تعصباً منهم واعتقاداً بأنهم شعب الله المختار وأن غيرهم من الشعوب غير جدير بهذه الصفة وبالتالي غير جدير بالدخول في اليهودية، فضلاً عن أن العرب كانوا يحتقرون اليهود باعتبارهم عملاء للفرس في اليمن ولتهافتهم على جمع الأموال ونكث العهود والمواثيق، ومع ذلك قيل أن اليهودية راجت في اليمن في عهد ذي نواث أخر ملوك حمير. (١)

المسيحية:

ومن الديانات التي انتشرت في جزيرة العرب قبل الإسلام المسيحية التي انتشرت في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال وبلاد اليمن في الجنوب ودخلت بلاد العرب بفضل جهود أباطرة الدولة الرومانية الشرقية ويرجع سبب انتشار المسيحية في جزيرة العرب إلى مجاورتها لمراكز مسيحية وهي سورية في الشمال الغربي والعراق في الشمال الشرقي والحبشة في الغرب والجنوب، كانت أهم مواطن النصرانية في العرب نجران باليمن كما انتشرت أيضاً بين المناذرة ودخلت بلاد العرب عن طريق التبشير، وعلى الرغم من ذلك لم تنتشر إنتشاراً كبيراً ولم ترسخ أقدامها في الجزيرة العربية ويرجع ذلك إلى أن الأباطرة لم يسعوا سعياً جدياً

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، ص ٤٢٨.

فى نشرها بجانب ما أصاب المسيحية من خلاف مذهبى وأيضاً مقاومة اليهود لها. (١)

الحنيفية:

عقيدة ظهرت فى بلاد العرب قبل الإسلام وكان سبب ظهورها أن بعض عقلاء العرب الذين سمت نفوسهم عن الانغماس فى مساوئ الوثنية وعبادة الأصنام ولم يقبلوا الدخول فى اليهودية ولا النصرانية فاعتنقوا التوحيد على دين إبراهيم خليل الله وكان إبراهيم حنيفاً فتسموا بالحنفاء، ولم تكن الحنيفية دين جديد بل كانت حركة دينية تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن فى البعث بوجود إله واحد يحاسب ويجازى الناس على أعمالهم من خير وشر وكانوا يدعون إلى نبذ عبادة الأوثان وعادات الجاهلية كأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ومن هؤلاء الحنفاء أمية بن أبى الصلت الشاعر المعروف، وورقة ابن نوفل ابن عم السيدة خديجة وقص بن سعادة الأيادى وزهير بن أبى سلمة الشاعر وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم. (٢)

٣- الحياة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام:

مثلت القبيلة العربية النظام السياسى للعرب قبيل الإسلام حيث تعتبر القبيلة الوحدة السياسية عند العرب فى الجاهلية، والقبيلة هى جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة، والعصبية تدعو إلى نصره الفرد لأبناء قبيلته ظالمين كانوا أم مظلومين وتقوم العصبية على النسب، وبقاء القبيلة مرهون ببقاء روح العصبية بين أفرادها، والعصبية تحتم على الفرد أن يلبى نداء قبيلته إذا دعتة إلى نسرتها وقت الخطر فينصرها وينصر إخوانه، والعصبية تحتم على الفرد أن يقبل بعض

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ٦٣.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٤٣٤.

مسؤوليات أعمال غيره فيساهم في دفع الديات للقتلى أو الفداء على الأسرى ولهذا فإن روح الديمقراطية والمساواة هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع القبلي. (١)

وكان المجتمع القبلي ينقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية أولها أبناء القبيلة الأحرار الصرحاء النسب تليها طبقة الموالى الذين اندمجوا في القبيلة عن طريق الحلف أو الجوار وأخيراً طبقة العبيد أو الرقيق، وكانت القبيلة تنقسم إلى بطون والبطون تنقسم إلى أفخاذ والأفخاذ تنقسم إلى عشائر والعشائر تنقسم إلى عائلات أو أسر، والأسرة العربية في الجاهلية لم تكن مفككة ولكن الولاء كان للقبيلة كلها وليس للأسرة وحدها وكانت الأسرة تتكون عن الزواج فكان الرجل يخطب المرأة من زويها وكثيراً ما كانت المرأة تستشار في أمر زوجها وكان الطلاق بيد الرجل إلا أن بعض النساء كن يشترطن أن يكون لهن حق الطلاق، وكان العربي لا يقبل تزويج بناته لغير العرب حتى لو كان راغب الزواج من الأكاسرة.

وكان العربي لا يكتفى بزوجة واحدة بل تعددت زيجاته في أغلب الأحيان بلا حدود، وكان الزواج عندهم أنواعاً متعددة منها: *زواج الصداق* أو *البعولة*: وهو يتم أن يخطب الرجل ابنة الرجل فيصدقها بصدق يحدد مقداره ثم يعقد عليها وكانت قريش وكثير من قبائل العرب يفضلون هذا الزواج وأبقى عليه الإسلام.

زواج المتعة: وهو تزوج المرأة إلى أجل فإذا انقضى افتترقت عنه ولأولاده حق الانتساب إليه، ونهى الرسول (ص) عن هذا الزواج.

زواج الإماء: ولا يحق للرجل الاعتراف بأبنائه من هذا الزواج وليس له صداق.

زواج المقط: وهو أن يتزوج الابن زواج ابيه إذا مات معداً أمه.

زواج الاستبضاع: وهو أن يسمح الرجل بمجامعة زوجته لأحد الرجال المرموقين ثم يعتزلها زوجها حتى يتبين حملها ثم ينسب الولد للزوج الأصلي.

زواج الرهط: وهو أن تتزوج المرأة من عدد من الرجال دون العشرة، وعندما تلد كانت تخبرهم فإذا كان المولود ذكراً حدث مزاداً عليه وإن كان المولود أنثى تركوه.

(١) محمد محمد زيتون: السراج المنير في سيرة خير المرسلين، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٤.

وكانت للزوجة مكانتها فهي شريكة للرجل وموضع تقديرة، وكانت للمرأة كأم منزلة عالية وكثيراً ما كان العربي ينتسب إلى أمه ويفتخر بنسبه إليها، ومع أن الغالبية من العرب كانت تفضل البنين على البنات إلا أن البعض كانوا يعتزون ببناتهم حتى كانوا يكونون بنهن مثل ربيعة بن رباح وهو والد الشاعر المعروف ظهير بن أبي سلمة، وكان النابغة الذبياني الشاعر المشهور يكنى بأبي أمامة.

غير أن بعض العرب كانوا يكرهون البنات إلى القيام بوأدهن أحياء وذلك خشية الفقر وعدم القدرة على تربية الأولاد، ويرى البعض الآخر أن السبب في ذلك كان الحرص على صيانة العرض وخشية أن تجر البنت العار على قبيلتها في المستقبل نتيجة للسبى وأشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: "ولاتقتلو أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم" سورة الأنعام آية ١٥١، وشاعت هذه العادة في قبائل تميم وقيس وهزيل وقريش وكندة وبكر وبعض الناس منعت الوأد وكانوا يشترون الموءودة مثل صعصعة بن ناجية جد الشاعر الفرزدق فقد انقز مائتين وثمانين موءودة واشترى كل منها بناقتين عشاوين وجمل.

وقد تحلى العرب في الجاهلية بكثير من الأخلاق الحميدة كالكرم والشجاعة والعفة والوفاء بالعهود وكرهية الغدر وعرفوا بالنجدة واغاثة الملهوف وبجانب هذه الصفات اتصفوا بكثير من الصفات الذميمة الاعتداء والثأر ووأد البنات والانغماس في الم لذات والتشائم والاعتقاد في الفأل وزجر الطير والاعتقاد في الكهنة واستطلاع الغيب.

ومن خصائص المجتمع الجاهلي التفاخر بالأجداد والآباء والأنساب ومن مظاهر الحياة الاجتماعية عند العرب في الجاهلية الأحلاف التي كانت تضم عدداً من القبائل توحدت مصالحها فاتفقت على حلف فيما بينها فاننسبت القبائل الضعيفة منها إلى القوية وكان من أهم عوامل تكوين الأحلاف بين القبائل المحافظة على الأمن والدفاع عن مصالحها المشتركة ومن الأحلاف المشهورة عند العرب حلف الفضول وحلف لعقة الدم وقد عقد على أثر تخاصم

القبائل من قريش فى وضع الحجر الأسود فى موضعه فلما استعددت لقتال قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا لعقة الدم، وقد تركت الأحلاف أثراً مهماً فى الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل الإسلام.

الأحوال السياسية للعرب قبل الإسلام:

مثلت القبيلة العربية وحدة النظام السياسى فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وتعصب العربى بأبناء القبيلة لأنه يجرى فى عروقهم دم واحد هو دم أبيهم الذى سميت القبيلة باسمه والجميع كانوا يقدسون قبيلتهم لدرجة تفوق الميول والاختلاف الدينى، فالقبيلة أقوى من الإيمان الدينى عند العربى قبل الإسلام.

كان شيخ القبيلة أو سيدها على قمة القبيلة ولقب أيضاً بالملك أو الأخير ويجب أن يتصف بالشجاعة والكرم وأن يكون أغنى أفراد القبيلة مالاً ويمتلك من التجارب والحكم التى منحتها له خبرة الحياة وكبر السن ويجب أن يكون من أقوى فروع القبيلة نسباً ورجالاً حتى يزعم له الجميع، وكانت شخصيته تلعب دوراً هاماً فى إظهار القبيلة بالقوة والضعف والشخصية القوية كانت تجعل القبيلة على رأس القبائل المجاورة كلها أما إذا كانت شخصيته ضعيفة فغالباً ما كانت تنهار القبيلة ويضعف شأنها.

لم يكن منصب رئيس القبيلة وراثى إنما كانت تعطى لمن تتوفر فيه الشروط والمواصفات والسيادة، ومن مهام شيخ القبيلة الآتى:

١- قيادة القبيلة فى الحروب.

٢- تقسيم الغنائم.

٣- عقد المحافلات ومقابلة الوفود والضيافات.

٤- دفع ديات القتلى.

٥- الحكم فى الزواج والطلاق.

- ٦- فض المنازعات والخصومات بإقامة الصلح بين المتنازعين من أفراد قبيلته أو مع القبائل الأخرى.
- وكان لكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسها شيخ يختارونه من بينهم ويسمونه الرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد وهو شيخ القبيلة وهذا المجلس يضم الآتى:
- ١- رؤساء البطون والعشائر وكان يشاورهم فى مختلف الأمور الهامة التى تتعرض لها القبيلة.
- ٢- الخطيب الذى يدافع ويتحدث باسم سيده.
- ٣- الشاعر الذى يمدح أفراد قبيلته وتفتخر بانتصارتهم ويزم ويهجو القبائل المتصارعة مع قبيلته، وكان الشاعر المشهور يطلقون عليه الكامل.
- ٤- الكاهن وهو الذى يلجئ إليه أفراد القبيلة فى الأمور الهامة لأنهم يعتقدون أنه تابعاً للجن.
- ٥- العراف وهو من أهم الشخصيات التى تعرف الأمور بالقرائن والتجارب، ومعرفة مواطن الأمور والمستقبل.
- وكان هناك النادى وهو المكان الذى يجتمع فيه مجلس القبيلة عند الحرب أو الأمور الخطيرة التى تهم القبيلة، ويظل منعقداً دائماً عند إعلان الحرب على أى قبيلة أخرى ومن أجل الإستعداد للحرب، وتأتى رؤساء القبائل المتحالفة وينضمون إلى هذا المجلس ويعلنون تضامنهم وتكتلهم مع مجلس القبيلة وشيخها.
- وكانت الأحلاف لازمة لقبائل العرب فكان القليل منضم إلى الكثير والضعيف للقوى، ومثل الزواج والصاهرة إحدى الروابط الاجتماعية والسياسية عند العرب قبل الإسلام حيث كان الزواج بمثابة حلف بين القبيلتين ومن أهم أحلاف العرب حلف الرباب وحلف الأحلاف وحلف الفضول وغيرهم من الأحلاف.
- ٤- أيام العرب :
- ساد الحياة القبلية نظم اجتماعيه مشتركة خضع لها جميع العرب، سواء أكانوا من أهل المماليك أو الإمارات أو المشيخات. وتجلت قوة تلك النظم

ومؤسساتها فى ثلاثة مظاهر كبرى هى أولاً: الوقائع التى نشبت بين القبائل العربية على اختلاف وحداتها الصغرى والكبرى، والتى اشتهرت باسم " أيام العرب " وثانياً: الأشهر الحرم، وثالثاً: الأسواق.

وتعتبر أيام العرب المرآة التى انعكست عليها النظم القبلية بشتى ألوانها، السياسية والاجتماعية والاقتصادية كذلك. فكان أهم أسباب الصراع هو النزاع على الماشية وأراضى المراعى وعيون الماء، أو للأخذ بالثأر، أو للتخلص من سيطرة قبيلة كبرى، على قبيلة صغرى، أو رفض الإتاوات التى يفرضها حلف قبلى كبير على ما جاوزه من قبائل، أو محاولات فريده قام بها نفر من زعماء القبائل لإظهار البطولة وأعمال الفروسية.

وجرت تلك المنازعات القبلية (أيام العرب) وفق نظم مقررة. فكان النزاع يبدأ غالباً باصطدام يقع بين الأفراد إثر خلاف على انتهاك حرمة حمى بعض القبائل أو لإهانة تلحق أحد الفريقين، ولا تلبث هذه الخصومة الفردية أن تتحول إلى نزاع عام يشمل جميع أفراد القبيلة أو الحلف القبلى. ويلاحظ أيضاً بصدد النظم العامة لأيام العرب أن المنازعات على كثرتها لم ترق فيها دماء كثيرة، لأن البدوى لم يكن يرمى إلى سفك الدماء دون مبرر، كما لم يكن هدفه التخريب التام. فأيام العرب التى سجلها التاريخ لم تحدث فيها ضحايا هائلة على نحو ما يتوهم القارئ لأحداثها. وكانت تخمد نيران تلك الحروب القبلية بعد أن يطول أمدها نتيجة توسط قبيلة محايدة، أو أمير من أمراء الأحلاف القبلية الكبرى. ويدفع الجانب صاحب القتل القليلة دية عن العدد الزائد على قتلى الفريق الآخر وكانت أقصى دية بألف بغير وهى التى اشتهرت باسم "دية الملوك".

وكانت ذكرى النزاع القبلى لا تموت بانتهاء الحروب، وإنما تبقى قصائد الشعراء التى تثير دائماً مخيلة الأقسام. وكان لقصائد الشعراء دور هام أثناء الصراع نفسه، فلسان الشاعر لا يقل أهمية عن بسالة قومه فى ميدان القتال، إذ تدفع قصائده أفراد القبيلة للغزو والثأر وتثير العصبية والنفوس.

وجعلت تلك المهام للشاعر مكانة كبرى فى القبيلة، التى اعتبرته حكيماً ومرشداً، والنائب المتكلم باسمها. وصار شرف القبيلة وتفوقها يقوم على أربعة أمور منها عظمة شعرائها، إلى جانب الثلاثة الأخرى، وهى القوة الحربية التى يمثلها الفرسان، وكثرة عدد أفرادها، وطيب فعالها. واحتفلت القبيلة بنبوغ الشاعر الذى يظهر بين أفرادها احتفالاً يوازي ما تقوم به من الاحتفال بالفرسان. وكانت نسوة القبيلة يلعبن فى الاحتفال بنبوغ الشاعر بالمزاهر كما يفعلن فى الأعراس، لأنه حماية لهن وللقبيلة كلها.

وصار النبوغ فى الشعر عنصراً هاماً يتفق مع نظام القبيلة من حيث الرحلة والانتقال المستمر وحبها للإغارة من مواطن القبائل الأخرى. فكان من السهل أن ينتقل هذا اللسان مع انتقال القبيلة يدافع عنها، لأن الشاعر كان محارباً من حيث الأغراض التى تناولها فى قصائده وتبصرة بنى عصبية فى القبيلة بواجبهم للدفاع عن حماهم وشرفهم.

وأخيراً فإن مهمة الشاعر لم تقتصر فى المنازعات عند إثارة الحماسة فحسب، إنما قام بتوجيه أفراد قبيلته إلى ما فيه صلاحهم المادى والأدبى أيضاً فالشاعر باعتباره مؤرخ القبيلة يعرف ما لها من حقوق فى المراعى وخطوط تخومها بما لا يدع لأعدائها نهب تلك الحقوق. ثم إنه بصفته عالماً بمواطن الضعف النفسى فى القبائل الأخرى ونقائصها التاريخية يستطيع أن يشهر بالقبائل المناوئة لبنى قومه ويجعلها موضع الهزء والسخرية^(١)، لأن لسان الشاعر غدا فى كثير من أيام العرب "أوقع من ضرب الحسام"^(٢).

أوضحت قصائد الشعراء أن الحروب القبلية كانت تعنون الواحدة منها أو اليوم باسم الموضوع الذى حدثت فيه المعركة، أو الحدث الهام فيها، أو باسم القبائل والأحلاف التى اشتركت فى النزاع. وصنف الإخباريون "أيام العرب" حسب

(١) من أشهر السخرية قول الشاعر: قوم إذا استبج الأضياف كلبهم * قالوا لأهمم بولى على النار

(٢) من أمثلة ذلك قول الشاعر: جراحات الحسام لها التمام * * * ولا يلتأم ما جرح اللسان

أطراف النزاع. بأن جعلوا "أيام العرب" بين القبائل القحطانية وحدها وأيام العرب بين القحطانية وغيرها وحدها، وكذلك أيام العدنانية بين بعضهم البعض وبينهم وبين غيرهم وحدها أيضا.

وقد انغمس في تلك "الأيام" الممالك القبلية والمشixات القبلية وتوضح النماذج التالية النظم التي جرت عليها وقائع تلك الأيام، وكيف أنها صارت مرآة للحياة القبلية على اختلاف مظاهرها ونظمها.

يوم البيضاء:

جرت وقائع هذا اليوم بين القحطانية أي عرب اليمن وبين العدنانية عرب الحجاز وسببه هجرة قبيلة مذبح اليمنية من بلادها، وارتحالها إلى الشمال بحثا عن أرض أو موطن معد من عرب الشمال. وتولت قبيلة عدوان جمع قبائل معد تحت لوائها لصد هذه الهجرة اليمنية وأشرف شيخ عدوان وهو عامر بن الظرب العدواني على قيادة هذا الحلف، وضمه تحت رايته. واستطاع هذا الشيخ التمتع بهذا المركز القيادي وفق النظم القبلية وما تشترطه من مؤهلات معينة في الرئيس فكان من حكماء العرب القدامى ومن أهل الفصاحة والقول المأثور .

واستطاع حلف معد أن ينتصر على قبيلة مذبح اليمنية في مكان اسمه البيضاء حيث نسب إليه هذا اليوم. وترجع أهمية هذا اليوم إلى أنه أوضح حرص القبائل الشمالية على حماها وحريتها، وأنها بدأت تعلن عن ذلك العصيان على حكام اليمن، وأن تدفع بمكة إلى مكان الصدارة في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام مباشرة. إذ عجزت كل محاولات اليمن لغزو مكة والاستيلاء عليها، بفضل روح الإباء والعصبية عند قبائل الحجاز.

حرب البسوس:

دارت هذه الحرب بين قبيلتي (بكر وتغلب) من ربيعة إحدى قبائل العدنانية الكبرى واستغرقت فترة طويلة بلغت الأربعين عاما، حتى صارت أروع نموذج للحياة القبلية وقوة نظمها في بلاد العرب قبل الإسلام فكان السبب في تلك الحروب

هو وصول قبيلة تغلب تحت قيادة زعيمها كليب إلى مركز الرئاسة في تهامة ، نتيجة ما بذله من كفاح ضد عرب اليمن وجمع قبائل مضر من عرب الشمال تحت لوائها. وارتفع شأن كليب واستبد به الزهور حتى انفرد بالأمر، فكانت لا توقد نار من ناره ولا يستطيع أحد أن يرع مع إبله وكان يحمى كما ذهب عنه في الأمثال، مواقع السحاب. بمعنى أن يقول وحش أرض كذا في جوارى فلا يصاد .

وشق عصا الطاعة على هذا الزعيم قبيلة بكر الذي كان متزوجا من إحدى نساءها، معا يدل على أن ضراوة العصبية القبلية يفوق تأثيرها حتى على المصاهرة. وكان السبب المباشر للصراع بين هاتين القبيلتين اعتداء (كليب) على ناقة لضيف كان نازلا على إحدى نساء بكر اسمها البسوس. وغضب من هذا الاعتداء بطل من أبطال بكر اسمه (جساس) الذي كان يسمى "الحامى الجار" وكانت البسوس خالة هذا البطل، وذهبت إليه باكية تندب الذل الذي لحق بها وبقبيلتها لامتهان كليب سيد تغلب لحقوق الضيف النازل عندها. وبادر جساس وهو أخو زوجة كليب، بالانتقام دون أن يقيم لتلك المصاهرة وزنا وقتل زوج أخته.

واندلعت بذلك نيران الحرب بين بكر وتغلب التي نسبت إلى خالة جساس وصارت تعرف باسم "حرب البسوس" وسجل وقائع هذه الحرب الطويلة "مهلهل" الشاعر والفارس المشهور أخو كليب المقتول. وجرت أحداث هذا الصراع على امتداد أربعين عاما، في وقائع مشهورة ، كان يطلق على كل واحد منها اسم "اليوم" وكان من أهم تلك الوقائع "يوم تحلاق اللحم" الذي تجلت فيه نظم البدو الحربية. ذلك إن الحارث شيخ بكر استخدم في هذا اليوم نساء القبيلة في المعركة. فأمر كل واحدة منهم أن تحمل "إداوة" وهى إناء من جلد يتخذ للماء، وكذلك هراوة، وطلب من النساء أن يطفن بالجرحى فى ساحة القتال، فلا يسقين إلا من كان من قبيلتهم. وكان قد أمر بنى بكر أن يخلقوا رؤوسهم ليكون ذلك علامة بينهم وبين نساءهم كن يسقين من حلق رأسه ، على حين يهوين بالهراوة على من كان خلاف ذلك. وانتصرت بكر نتيجة هذه الخطة فى تلك المعركة التي عرفت نسبة لذلك باسم "يوم

تحلاق اللم"، وانتهى ذلك النزاع الطويل سنة ٥٥٥م عندما توسط المنذر الثالث ملك الحيرة بين بكر وتغلب وعقد صلحا بين الفريقين.

يوم ذى قار:

وهو من أيام العرب والفرس وهو من المعارك الفاضلة وكان بسبب وقية بين النعمان ابن المنذر ملك الحيرة وهو من قبيلة لخم العربية وبين كسرى ملك الفرس لأن النعمان رفض أن يرسل بعض نساء العرب إلى كسرى، فعمل كسرى على ضرورة التخلص من النعمان ابن المنذر، وأرسل إليه يستعديه إلى عاصمته المدائن، وخاف النعمان على نفسه ولذلك أودع أسلحته ونسائه عند هانى بن مسعود الشيباني، وذهب إلى كسرى فقتله، وولى مكانه على الحيرة إياس بن قبيصة وطالب بأموال النعمان، رفض هانى بن مسعود فأرسل إليه كسرى جيشاً جراراً واجتمعت حوله قبائل ربيعة وبكر بعد قبائل الحيرة العربية وجيش الفرس وجيش العرب عند ماء يسمى زى كار ودارت معركة بين الطرفين انتصر فيها العرب على الفرس، وجاء حديث النبي (ص) فى شأن هذا اليوم بقوله: "هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى انتصروا".

ذهب إياس بن قبيصة ملك الحيرة ودس الخبر أنه انتصر على بنى بكر ثم فر من أمامه هارباً وافتخر كثير من الشعراء بنصر ذى قار.

يوم البردان:

هو من أيام القحطانيين فيما بينهم وكان حجر بن عمرو بن معاوية الكندى ويسمى أكل المرار زعيم قبيلة كندة جمع كندة وربيعه وأغار على البحرين، فبلغ ذلك رجل من قضاة كان أمير على الشام ويمسى زياد بن الهبولة، فاستغل خروج رجال كندة وربيعه وأغار على بيوتهم واستولى على نسائهم وأموالهم، وكان من بين السبى هند بنت ظالم زوج حجر بن عمرو زعيم كندة، ولذلك جمع حلفائه من القبائل ولحق بزياد بن الهبولة واشبتك معه فى قتال انتهى بانتصاره عليه حيث لقي زياد حتفه فى هذا اليوم وهو يوم البردان.

وعندما استرجع حجر زوجته هند وقد علم من بعض جواسيسه عندما كانوا بمعسكر زياد بن الهبولة، أن هند أعلنت خيانتها لحجر زوجها ومالت مع زياد، ولذلك ربط زوجته في فرسين ثم رقدتهما حتى قطاهاها.

يوم داحس والغبراء :

نشبت هذه الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان وينتميان إلى قبائل قيس كان داحس والغبراء اسمين لفرسين يمتلكهما قيس بن زهير سيد قبيلة بنى عبس وكان لحذيفة بن بدر فرسين هما الخطار والحنفاء، ويذكر أن زهير كان نازلاً عند حذيفة بن بدر وقد تراهنا على سباق بين هذه الخيول وكان حذيفة يحسد زهير على فرسيه وقوتهما في السرعة والعدو، وعمد حذيفة إلى تدبير مؤامرة لكي يكسب الرهان من قيس بن زهير، فأقام حذيفة رجلاً من بنى أسد وهم حلفاء لقبيلة ذبيان بالطريق إن رأى داحس سابقه فيعطلها ويردها عن السباق حتى يؤخرها وحدث ذلك بالفعل ولكن جاءت الغبراء الأولى على السباق ثم الخطار والحنفاء ثم جاء الداحس آخر السباق واكتشفت المؤامرة وحدث قتال بين قبيلتي عبس وذبيان استمر حوالي اربعين سنة. وحدث صلح بين القبيلتين على اثر دعوة الحارث بن عوف وهرم بن سنان وتعهدا بدفع ديات القتلى من الفريقين.

يوم شعب جبلة:

هو من الأيام والحروب التي نشبت بين قيس وتميم، وكان لقيط بن زرارة سيد بنى تميم كان قد عزم على غزو بنى عامر للأخذ بثار أخيه معبد الذى قتله بنو عامر فى يوم رحرحران ولكن بنى عامر حالفوا بنى عبس وجاء الخبر إلى لقيط بن زرارة ولذلك تحالف مع النعمان بن المنذر ملك الحيرة، والجون الكلبى ملك هجر، وتحالفت معه ذبيان لعدواتها مع عبس منذ يوم داحس والغبراء، وتحالفت مع تميم بنو أسد لحلفها مع ذبيان، وكذلك تحالفت مه قبيلة كندة طمعاً فى الغنيمة.

وجمع بنو تميم أحلافهم وانضم إليهم شتات من الناس طمعاً فى الغنائم، ولما سمعت بنو عامر وعبس بذلك اتفقوا على رأى واحد هو أن يدخلوا فى وادى شعب جبلة، ويضع النساء والأموال والذرارى فى أعلى الشعب، وقد عطشوا الإبل

ومنعهوها عن الماء واستعدوا لقتال تميم وأسد وذبيان وحلفائهم، وعندما قدمت هذه الأحلاف ودخلوا شعب جبلة قيل أن بنى أسد رجعت بسبب تشائمها من هذه الحرب وما لبسوا أن دخلوا الشعب وأرادوا الصعود إليه فإذا ببني عامر وعبس تطلق الإبل العطشة فتهم عليهم وهم صاعدون، وتصرخ وترتطم بهم حتى فرقت جمعهم ونزلو مسرعين فإذا ببني عامر تستعمل فيهم القتل والسيف حتى سرعوا معظمهم ووفرت تميم وأحلافها مهزومة وقتل جمع غفير من زعمائها ومنهم لقيط بن زرارة سيد تميم.

يوم الكلاب الثاني:

عندما هزم كسر بنى تميم فى يوم الصفقة وهو أول أيام العرب مع الفرس وانتصر كسرى على تميم فيه ففرت تميم من أركانها وأقامت قبيلة تميم هاربة على أثر الهزيمة حتى نزلت بمنطقة قدة إحدى أماكن منطقة الكلاب وهو ما بين الكوفة والبصرة وأقامت سنة لم يعلم بها أحد، وأرادت أن شجمع شملها ويقوى أمرها حتى تجمع رجالها بعد أن قضى عليهم كسرى ونتيجة لقلّة الرجال كانت بناتهم ترعى أغنامهم وأبلهم، وعلم بهم رجل من أهل مدينة هجر وشاهد مكانهم فأبلغ ذلك لقبيلة مذحج وذكر لهم من النعم والخيرات التي تمتلكها تميم وهون لهم أمرها وقلّة رجالها وجمال نسائها، فعزمت مذحج على سلب ونهب قبيلة تميم، فاستدعوا حلفائهم من اليمن ورجبهم فى الهجوم على تميم حتى بلغ عدد جيش مذحج وأحلافهم ٨ آلاف رجل، وذهبوا لملاقاة تميم فى منطقة الكلاب وأحاطوا بها من جميع الجهات.

وعلى الرغم من شدة القتال الذى دار بين الفريقين صمدت تميم ومن معها من القبائل وانتهت المعركة بهزيمة مذحج وانتصار تميم وقتل زعيم مذحج وهو عبد يغوث الحارثى، وكان اليوم من أشد أيام العرب وأعظمها شهرة وكان لتميم على مذحج.

الأشهر الحرم:

جاءت الأشهر الحرم نظاما قريبا مشتركا، خضع لتقاليده وطقوسه كل السكان فى جميع أرجاء الجزيرة العربية. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن هذا النظام

جاء فرضا اقتضته طبيعة "العمران" وما ارتبط به من الصراع بين القبائل، وما اقترن بها من صراع على الرزق فرض على الجميع تحديد فترة يستريحون فيها من عناء الصراع، سواء لتسوية المشكلات القائمة بينهم، أو للحصول على حاجاتهم الغذائية التي تعذر عليهم توفيرها طوال الحروب والمنازعات. وانفقت القبائل على أربعة أشهر أى ثلث السنة تقريبا، يقف فيها الصراع والنزاع ويحرم فيها القتال أو الاغارات، وجاءت ثلاثة من تلك الشهور متتالية، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم^(١).

أما الشهر الرابع فكان يحل فى منتصف العام تقريبا وهو شهر رجب الذى اشتهر لذلك باسم رجب الأصم^(٢)، حيث تقف فيه الحروب والمنازعات دفعة. واستغل العرب نظام الأشهر الحرم لأداء واجباتهم التجارية والدينية على حد سواء. وكانت الأشهر الثلاثة المتتالية تخصص للمطالب الدينية القبلية، على حين أفاد العرب من الشهر الرابع فى تلبية مطالبهم الدينية والتجارية كذلك واستطاعت مكة بفضل التنظيمات التى سارت عليها قبيلة قريش أن تقيّد من الأشهر الحرم فائدة عظيمة، وأن تتال الزعامة على سائر بلاد العرب قبل الإسلام ليس فى شئون التجارة فحسب بل وفى شئون الدين أيضا.

وكانت القبائل العربية قد دأبت على الذهاب إلى الحجاز حيث وجدت فى هذا المكان بغيتها التجارية والدينية على حد سواء. ولم تكن بلاد الحجاز نفسها أرضا غنية، وإنما امتازت بأن الطرق إليها سهلة ميسورة سواء من الشمال أو الجنوب أو الغرب، مما جعل العرب يقبلون عليها لأداء فروضهم الدينية إلى جانب التجارة. على أن ذلك لا يعنى أن القبائل العربية لم تعرف الأشياء المقدسة الدينية

(١) كان السبب فى هذا الترتيب هو مساعدة القبائل على الحج إلى مكة. ولما كان الحج يتم فى شهر ذى الحجة، وكانت القبائل تغد من جهات بعيدة كان شهر ذى القعدة يكفل للقبائل الحضور إلى مكة فى طمأنينة، وشهر المحرم يهيب لها العودة فى أمان بعد الفراغ من الحج.

(٢) كان يسمى هذا الشهر أيضا باسم شهر الله الأصم، لاختفاء صوت السلاح طوال أيامه.

إلا في الحجاز، إذ كانت في أراضي كل قبيلة أشياء مقدسة^(١)، من أحجار أو ينابيع أو مظاهر الطبيعة، تكفى لإشباع عواطف أهلها الدينية البسيطة. ولكن لما كانت الحجاز مركزا لتلقى فيه كثير من القبائل في الأشهر الحرم فإن العرب جميعا قدسوا أصنامها إلى جانب أصنامهم المحلية.

وكذلك الأشهر الحرم سببا في ازدياد شهرة الكعبة، وذيوع المراسيم المقدسة المرتبطة بها، وهي الحج، الذي اعتبره قسم كبير من أهل بلاد العرب واجبا مقدسا. فقامت آلاف عديدة ومركز حياة العرب التجارية والدينية أيضا. واتخذت قريش وسائل عديدة لاجتذاب القبائل إلى الكعبة، وإرضاء مطالبها الدينية والديونية. واستعانت قريش في تلك السبيل بالاحتفال بالأشهر الحرم، وذلك على نحو ما قامت به أمها "مضر" فورثت قريش زعامة مضر في هذا الشهر وهي الزعامة التي تمثلت في القبة الحمراء التي اعترف العرب بها العرب في كل مكان دلالة على السيادة العليا لأهل سدة البيت العتيق.

وظل نظام الأشهر الحرم مقدسا عند العرب جميعا، واعتبروا الخروج عليه عملا آثما كما وصفوا الغزوات القليلة التي وقعت في تلك باسم "حرب الفجار" دلالة

(١) اتخذت كل قبيلة لنفسها إلهاً يحميها ويدافع عنها وإذا تحالفت القبائل تحالفت أيضا آلهتها، وإذا تنازعت القبائل تنازعت آلهتها. وكثيرا ما كانت القبيلة تتخلى عن الإله الذي تعبد به إذا انهزمت لعجزه عن حمايتها وعبادة آلهة أخرى. فأفرد القبيلة نظروا إلى معبودهم الإله نظرتهم إلى شيخ القبيلة ونسبوا أنفسهم إليه أحيانا واعتبروه أبا لهم. وكان الخروج على معبود القبيلة يعنى الخروج على القبيلة نفسها أشبه بخروج الفرد عن عشيرته إذا ارتكب عملا يوجب خلعه وطرده. وأصبحت أصنام القبائل رموزا سياسية إلى جانب دلالاتها الدينية عند أفراد تلك القبائل، وصار من المؤلف خروج القبائل للقتال وهي تحمل أصناما، أو عند ارتحالها. واتخذت كل قبيلة لآلهتها "سمتا" كان عبارة عن خيمة تقوم مقام المعبد عند سكان المدن. وتعتبر هذه الخيمة مقدسة. وللموضع الذى تقام عليه نفس الحرمة والقداسة. وخلقنت هذه الظاهرة تفككا بين القبائل ليس في النواحي السياسية فحسب بل وفي المعتقدات الدينية أيضا. وصار الشرك ظاهرة عامة في الحياة القبلية قبل الإسلام، وسهم في إشاعة الفوضى والمنازعات التي أفسدت شبه الجزيرة العربية فسادا خطيرا في القرن السادس الميلادى ومطلع القرن السابع الميلادى كذلك.

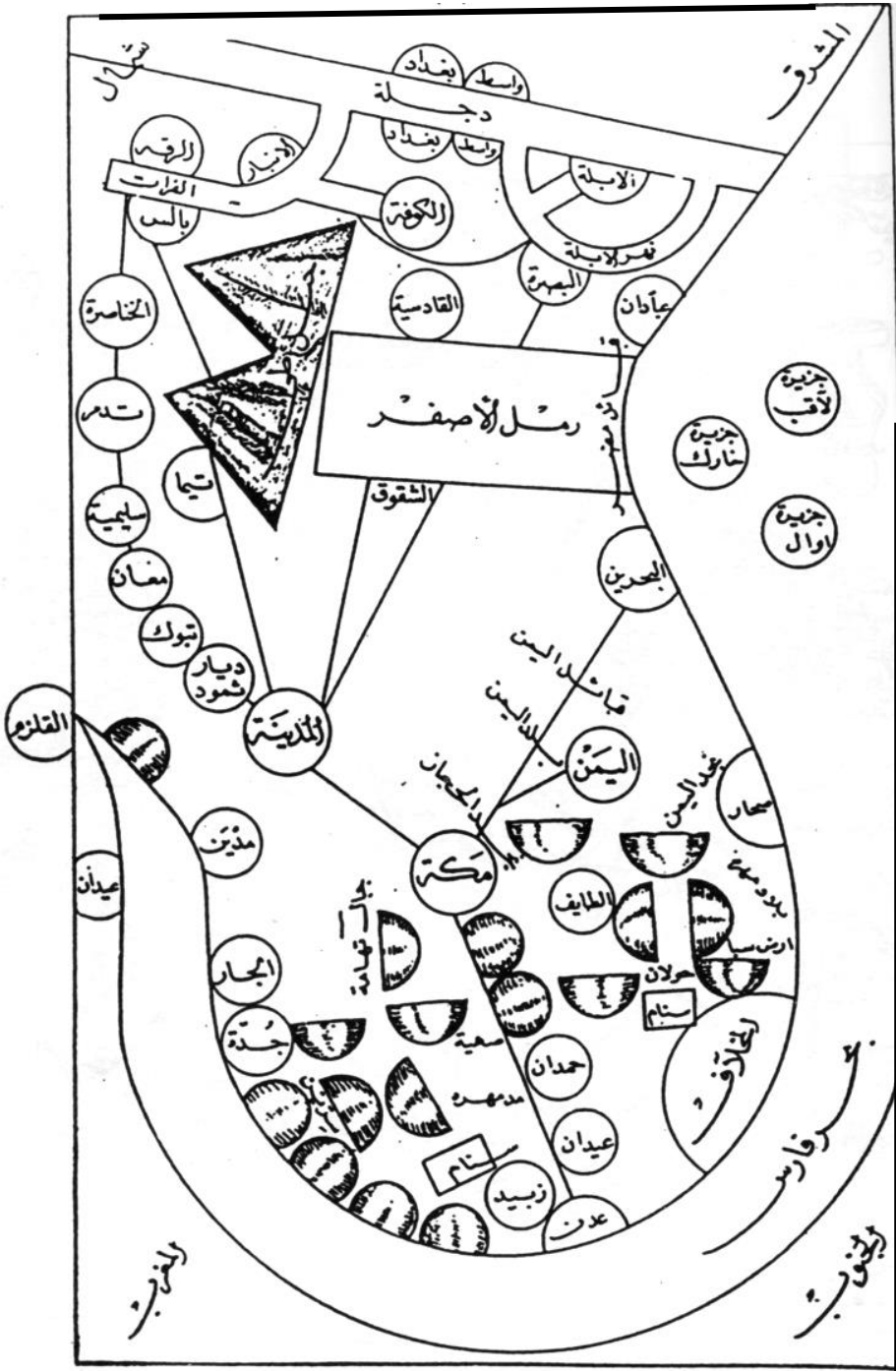
على فظاعة مرتكبي هذه الأعمال الباغية. ولكن كان أخطر مظهر من مظاهر التحايل على نظام الأشهر الحرم وهو ما عرف باسم "النسيء" فهو نوع من التلاعب فى تلك الأشهر الحرم ، وتغيير مواقعها وإحلال شهور من السنة محلها وجاء هذا النسيء خرقا لحرمة الأشهر الحرم ورد فعل لرغبة الحياة القبلية فى الغزو والتحلل من الالتزام بالهدوء والاستقرار فى تلك الأشهر الحرم. ولجأت قريش أيضا إلى "النسيء" برغم للنزاع القبلى، رغبة منها فى أن يأت الحجاج إلى الكعبة فى موسم الشتاء، ذلك أن التقويم القمري جعل الأشهر الحرم تأتى فى مواعيد مختلفة من فصول السنة. وبعضها لا يتفق مع مصالح البداوة وأهلها. فكانت قريش تتلاعب فى النسيء لىأتى فى موسم الشتاء حيث يتوافر الأدم ومنتجات المراعى التى تغذى الأسواق والوافدين عليها من القبائل.

وأشرف على نظام النسيء شخص كان يلقب باسم "قلمس" وهو لفظ جاهلى يرادف لفظ الفقيه أو المفتى عند المسلمين. واتبع الناسىء فى تنفيذ هذا النظام قواعد محددة حتى يلتزم بها الجميع فكان يدعو الناس إليه عند انتهاء موسم الحج للاجتماع به، ثم يرتقى مكانا عاليا، أو يجلس على ظهر جملة حتى يراه الحاضرون جميعا، ثم يعلن بأعلى صوته التعديل أى النسيء ليحل شهرا من الأشهر الحرم ويحرم مكانه شهرا من شهور السنة وفق الرغبات الشخصية سواء عند قريش أو عند القبائل الباغية الطاغية. فيقول القلمس "اللهم إني لا أعاب ولا أحاب ، ولا مرد لما قضيت اللهم إني أحللت شهر كذا (ويذكر شهرا من الأشهر الحرم سبق اتفاهم على شن الإغارات فيه). وأنسأته إلى العام القابل أى أخرت تحريمه، وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى. فكانوا يحلون ما أحلى ويحرمون ما حرم. وكان الناس بذلك يبيحون لأنفسهم الغزو فى الشهر الذى أخره الناسىء. وإذا جاء العام التالى عاد الناسىء ليعلن للناس: إن آهتكم قد حرمت عليكم الشهر الفلانى، وهو الشهر الذى سبق أن أحله فى العام الماضى ، ويطلب منهم تحريمه ويخضعون لأوامره.

وأفسد هذا النسب وهو تأخير الشهور نظام التوقيت فى العصر الجاهلى وجعل مدار السنة مضطربا خاضعا لمشيئة القائمين على هذا النظام ونزواتهم الشخصية ومطالبهم الدنيوية. وكان أول من نسأ الشهور (عمرو بن لحي). زعيم قبيلة خزاعة اليمينية التى نزلت مكة. وانتزعت رئاسة هذه البلد وبيتها العتيق من قبيلة جرهم. وينسب إلى هذا الزعيم أيضا إدخال عبادة الأصناف إلى مكة. وصرف الناس هناك عن دين أبيهم إبراهيم^(١)، الذى رفع هو وابنه إسماعيل قواعد بيتها العتيق. ثم نقلت قبيلة كنانة حين سيطرت على مقاليد الأمور فى مكة نظام النسب عن خزاعة، حيث تولى مهمة " القلمس "نفر من الكنانيين كانوا نابيين فى قومهم، ولهم مركز وشأن عظيم فى تنسيق العمل خلال الأشهر الحرم، وزادت مفاسد النسب بمرور الزمن حتى أن القائمين عليه أضافوا إلى شهور السنة عدداً آخر بلغت ثلاثة عشر أو أربعة عشر، لتنتسح لممارسة الروح القبيلية من غزو ونزاع دون التزام بأى قيد من القيود.

(١) يعرف دين إبراهيم عند المسلمين باسم الحنيفية وأتباعه فى العصر الجاهلى باسم " الحنفاء " وهم الذين لم يشركوا بربهم أحدا، ولم يدخلوا فى الديانة اليهودية أو المسيحية، ولم يقبلوا على عبادة الأصنام ويذكر أهل الأخبار المسلمين أن العرب جميعا من قحطان وعدنان كانوا على دين إبراهيمي أى كانوا موحدين ويعبدون الله عز وجل ولا يشركون به أحدا. وظل الأمر على ذلك حتى ظهر عمرو بن لحي زعيم قبيلة خزاعة التى أخرجت جرهم من مكة. وكانت جرهم هى القبيلة التى صاهر إليها إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم. ومن تلك المصاهرة نسل سيدنا إسماعيل من العرب الذين اشتهروا بالعرب العدنانية أو عرب الشمال، وينسب إلى عمرو بن لحي الخزاعي إفساد دين إبراهيم الذى كان عليه العرب، إذ نشر بينهم عبادة الأصنام التى نقلها من بلاد الشام حين زارها وحل بين أهلها. ولم تلبث عبادة الأصنام أن تقشت بين القبائل العربية وقل عدد المتمسكين بدين إبراهيم والمتبعين لأحكام دينه من التوحيد الحنيف وهى الاعتقاد بوجود إله واحد وطواف البيت والحج إليه والعمرة والوقت بعرفات. ويعد الاختتان والحج إلى البيت العتيق والاعتسال من الجنابة واعتزال الأوثان من أهم العلامات التى ميزت الحنفاء عن المشركين.

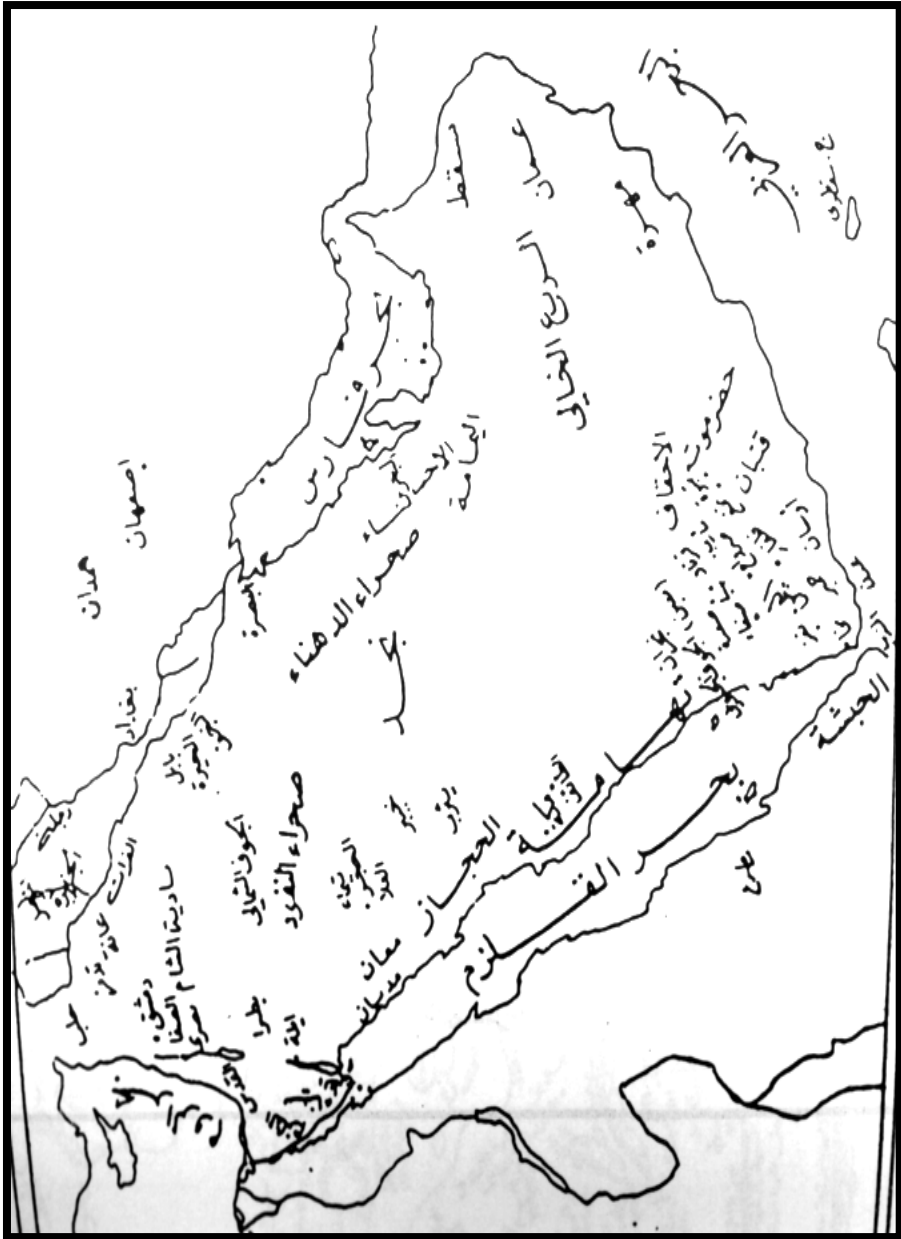
وظل النسيء يمثل رد فعل للروح القبلية من أجل هدم نظام الأشهر الحرم حتى ظهر الإسلام فقد أبطل الدين الجديد نظام النسيء وثبت شهور السنة وجعل التقويم القشمرى هو الرسمى للمسلمين وحدد بمقتضاه ميعاد الأشهر الحرم وجاء النص على إبطال النسيء فى قوله تعالى: "إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهرا فى كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، وأعلموا أن الله مع المتقين إنما النسيء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا، يحلوناه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله. زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى الكافرين".



() صورة ديار العرب للاصطخري

سعد زغلول : تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٦٣ نقلًا عن كتاب العراق والخوارق القديمة جمع وتحقيق أحمد سوسة

جزيرة العرب (الأقاليم والبلاد)



نقلاً عن سعد زغلول: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٧١



خريطة الجزيرة العربية وما حوالها للإدريسي

الفصل الثاني

البعثة النبوية

روح حياة الرسول ﷺ في مكة

١ - محمد ﷺ قبل البعثة.

٢ - البعثة النبوية.

٣ - قيام الدولة العربية الإسلامية في المدينة.

الفصل الثاني

البعثة النبوية وحياة الرسول ﷺ في مكة

١- محمد قبل البعثة:

* الرسول منذ ولد إلى أن بُعث:

أن لنا أن نتكلم عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وأن ندخل في نطاق التاريخ الإسلامي، فلنبداً ذلك بالحديث عن نسبه الشريف.

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وفهر هذا هو المسمى قريش وهو الجد العاشر لرسول الله ﷺ، ويمتد نسب الرسول ﷺ إلى عدنان الذي هو الجد العشرون للرسول، وعدنان من نسل إسماعيل عليه السلام، وكانت بطون قريش اثني عشر بطناً، هي بنو عبد مناف جد الرسول الثالث ومن أولاد عبد مناف بالإضافة إلى هاشم، نوفل والمطلب وعبد شمس، وأشهر أولاد عبد شمس أمية جد الأسرة الأموية، والبطن الثاني بنو تميم أجداد أبي بكر، ثم بنو عدى أجداد عمر، وبنو أسد أجداد خديجة، وبنو زهرة أجداد أمية، وبنو مخزوم أجداد خالد بن الوليد، وبنو سهم أجداد عمرو بن العاص، وبنو عبد الدار وبنو عامر وبنو الحارث وبنو جمح وبنو محارب.

وهاشم الجد الثاني للرسول ﷺ كان سفير قريش لدى الملوك، وقد عقد مع الروم معاهدة تجارية لتذهب تجارة قريش إلى الشام في أمان ومنعة، وكثيراً ما كان يقود تجارة قريش إلى الشام، ومات هاشم في إحدى رحلاته التجارية، وكان هاشم قد تزوج في يثرب وولد له ولد هناك أسماه شيبية، فلما مات هاشم أحضر أخوه المطلب هذا الولد وقد أردفه خلفه فظن بعض الناس أنه عبدٌ للمطلب فاشتهر باسم عبد المطلب وهو في الحقيقة شيبية بن هاشم.

* عبد الله بن عبد المطلب:

روى أن رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ فقال له:.... يا ابن الذبيحين، فلم ينكر الرسول عليه ذلك، والذبيح الأول هو إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، والذبيح الثاني هو أبو الرسول عبد الله بن عبد المطلب.

وقد قص القرآن الكريم قصة الذبيح الأول في قوله تعالى: (فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتلاه للجبين، ونادياه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على إبراهيم).

أما قصة الذبيح الثاني فترويها لنا كتب التاريخ وبخاصة كتاب الأصنام لابن الكلبي وتاريخ الطبري، وهي تروينا بعضاً من عادات العرب التي سبق الحديث عنها، فالعرب كانوا يتقربون إلى الآلهة بتقديم القرابين التي تكون أحياناً من دماء البشر، كما انتشرت عندهم عادة الضرب بالقداح واتباع ما توصى به هذه القداح، وخالصة هذه القصة أن عبد المطلب كان عليه سقاية الحاج، وكان عليه أن يحضر الماء لذلك من آبار بعيدة ويضعه في أحواض ليشرب منها الحجيج وكان هذا العمل صعباً يحتاج إلى أيدٍ كثيرة وإلى جهد كبير، ولذلك فكر عبد المطلب في إعادة حفر بئر زمزم، ولكنه وجد كثيراً من العنت من قريش، ولولا صبره ودأبه ما نفذ هذا العزم، ومن أجل هذا نزر لئن ولد له عشرة بنين ثم شبوا وأصبحوا يمنعون، لينحرن واحداً منهم عند الكعبة تقرباً للآلهة قريش، فلما حقق الله أمنيته وأصبح له عشرة أولاد أراد أن يفي ببنده، فجمع أولاده عند هبل وهو أعظم الأصنام التي تعبدتها قريش، وطلب إلى صاحب القداح أن يضرب عليهم، فخرجت القرعة على عبد الله وهو أصغر أولاد عبد المطلب وأحبهم إليه. فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة وذهب به ليذبحه عند أساف ونائلة وهما وثنا قريش اللذان تقدم عندهما

القرابين، فكفته قريش وكفه بنوه وقالوا: لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، وأشاروا عليه أن ينطلق إلى عرافة شهيرة ليستشيرها، فذهب إليها، فأشارت عليه أن يعيد الضرب بين عبد الله وبين عشرة من الإبل، فإن خرجت القرعة على الأبل فلتكن هذه دية لعبد الله وإن خرجت على عبد الله زيد عليها عشرة أخرى وهكذا حتى ترضى الآلهة بالدية، فاستجاب عبد المطلب لرأى العرافة وظلت القرعة تخرج على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة فخرجت على الإبل فنحرها عبد المطلب وترك لحمها حلالاً للناس والحيوان والطيور. (١)

نجا عبد الله بذلك من الذبح، ولكن هذه الحادثة أذاعت اسمه وأكسبته شهرة عظيمة، وأصبح موضع عناية الناس وحديثهم وحبهم، وزوجه والده بعد ذلك من آمنه بنت وهب، وعاش معها فترة قصيرة بعد الزواج، ثم تركها وسافر متاجراً إلى الشام. ومات في الطريق دون أن يعود إلى زوجته، ولكن بعد أن أودع بضعها نطفة كان مقدرًا لها أن تكون أعظم شخصية في تاريخ البشرية. فكأنما نجا عبد الله من الذبح لغرض واحد هو الألتقاء بأمنة وتكوين هذا الجنين، وبعد أن أدى عبد الله هذا الغرض أذن بالرحيل.

***أمنة بنت وهب:**

إذا كان عبد الله قد أدى مهمته في الحياة بزواجه بأمنة وتكوين هذا الجنين، فإن مهمة أمنة لم تنته بذلك، فالحمل والحضانة والإشراف على الطفل استدعى أن تمتد الحياة بأمنة بضع سنين، والباحث النفسى يدرك سرور أمنة بزواجها من عبد الله ذى الشباب الغض والشهرة الذائعة، ويدرك أن موت عبد الله بعد هذا الألتقاء الوجيز كان جديراً أن يحطم قلب أمنة، ولكن التاريخ يثبت لنا هدوء أمنة فى غمرة الحزن ورضاها مع الأسى، وقد وجدت أمنة سلوها فى الجنين ثم فى

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، المجلد الثانى، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٩.

الطفل ولكنها سرعان ما ماتت عندما كان طفلها في السادسة من عمره، وكانت وفاتها في موضع يقال له "الأبواء" بين مكة والمدينة. (١)

لقد شاء الله فيما يبدو أن يتولى هو تربية محمد وأن ينزعه من أسرته ليصبح في رعاية الله تمهيداً للأسرة الكبيرة التي سيكون محمد زعيمها، والتي لا تهتم بجنس ولا لغة، وإنما أكرم الناس فيها هو أكثرهم تقوى لله، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بالآية الكريمة: (ألم يجدك يتيماً فأوى) وعبر عنه الرسول بقوله: "أدبنى ربي فأحسن تأديبي". (٢)

* مولد محمد وحياته قبل البعثة:

كان محمد ثمره هذا الألتقاء القصير، وقد ولد في التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٢٠ أبريل سنة ٥٧١م) وكان مولده في مكان غير بعيد من الكعبة، وقد أقيمت مكتبة في المكان الذي ولد فيه عليه السلام، ويؤمها كثير من الحجاج ليعيشوا رداً من الزمن في المكان الذي شهد مولد المصطفى، ولم ير محمد أباه ولذلك كفله جده عبد المطلب، وأرضعته حليلة السعدية، ولما شب عندها أخذ يرعى الغنم، ولما مات جده وهو في الثامنة كفله عمه أبو طالب، وتربى في بيته وساعده في أعماله التجارية، وسافر معه إلى الشام متاجراً قبل أن يبلغ الحلم. (٣)

أبو طالب أبا شقيقاً لعبد الله، ولذلك كان أرحم أعمام النبي ﷺ به وأولاهم برعايته.

وعندما كانت سن محمد أربع عشرة سنة وقعت حرب الفجار الرابعة، وكانت بين قريش وكنانة من جهة وهوازن من جهة أخرى، وقد حضر الرسول هذه

(١) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٧٠؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧، ص ١١٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١١٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٢٥؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٦٠.

الحرب، ويروى عنه قوله: كنت أنبل على أعمامى يوم "الفجار" وأنا ابن أربع عشرة سنة. أى أناولهم النبل: وسميت حرب "الفجار" لوقوعها فى الشهر الحرم، وحروب الفجار خمسة اشتركت فيها القبائل التى سبق ذكرها: كنانة وهوازن وقريش. (١)

ومن أهم الأعمال التى قام بها محمد قبل البعثة تجارته فى مال خديجة بنت خويلد، وقد سافر فى هذه التجارة إلى الشام وكان معه غلامها ميسرة، وقد ربحت هذه التجارة ربحاً عظيماً وكانت سبب ارتباط بين محمد وخديجة، وقد توج هذا ارتباط بزواجه منها وهو فى الخمسة والعشرين وهى امرأة فى الأربعين من عمرها، تزوجت قبله مرتين. (٢)

عودة للحديث عن الرسول قبل البعثة:

وقد عُرف سيدنا محمد ﷺ فى جميع مراحل حياته بالخلق الطيب، والبُعد عن الشبه والخمر ومجالس اللهو والميسر وغير ذلك مما كان يميل له شباب العرب فى ذلك الوقت، وكان لحسن خلقه يعرف بالأمين.

ولما بلغ الخامسة والثلاثين جددت قريش بناء الكعبة، وقد كان الرسول يعمل مع قريش فى نقل الحجارة والبناء، ولما أتمت قريش العمل وأرادت وضع الحجر الأسود اختلفت البطون فيمن يكون له شرف حمله ووضع كادت تنتشب الحرب بينهم لذلك، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم من باب شيبية، فكان محمد ﷺ أول من دخل، فقالوا: هذا هو الأمين رضيناها حكماً وأخبروه الخبر: فبسط رداءه ووضع الحجر عليه، وقال لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب، فرفعوه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذ الرسول ووضع مكانه وكان فى عمله هذا من الحكمة ما أَرْضَى الجميع.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج ١، ص ٦٥-٦٦.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٢٠؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٩٧.

ومنحه الغنى فرصة للفراغ والمزيد من التفكير، ومنحه تقدم سنة مزيداً من العمق، ومنحته أخلاقه الحسنة مزيداً من الصفاء، وشملته عناية الله فرأى أن يخلو لله، وشجعت زوجته الصالحة على رغبته فكانت تعد له الطعام، فيأخذه ويذهب إلى غار حراء، حيث يخلو ليفكر في الكون وخالفه، والموت ومصير الناس بعده وهكذا، وصفت نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق ولا تكاد تتخلف. (١)

بدء الوحي:

وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الإثنين السابع عشر من شهر رمضان، وضمه إليه ضمة شديدة ثم أطلقه وقال له: اقرأ. فأجاب الرسول: ما أنا بقارئ. فعاد جبريل فضمه بشدة ثم أطلقه وقال له: اقرأ فأجاب الرسول وقد أرقه الضم والخوف: ما أنا بقارئ. فضمه جبريل مرة ثالثة ثم أطلقه

وقال له: (﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾)
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾
 ﴿اقْرَأْ بِرَأْسِ الْوَجْدِ ۖ وَالْحَقُّ يُرْسِلُ ۚ وَالْحَقُّ كَرِيمٌ ۚ﴾

"سورة العلق"

وكانت هذه أول آيات تنزل من القرآن الكريم، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تخبر محمداً بدعوة، ولم تكلفه برسالة، ولم تكن إلا إعلماً بشئ غير عادي لم يدرك محمد كنهة عند وقوعه، ومن أجل هذا أسرع محمد إلى البيت وهو يرتجف فقص على خديجة ما رآه، وقال لها: لقد خشيت على نفسي، فهدأت خديجة من روعه، وقالت له: والله لا يخزيك الله أبداً، ولم تعرف خديجة كزوجها كنه هذه الحالة، ولذلك أشارت عليه أن يذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان شيخاً

(١) ابن كثير: الفصول في سيرة الرسول، تحقيق وتعليق محمد العبد الخطراوى وآخرين، ط٤، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٩٥؛ ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٤٧-١٤٨.

جليلاً واسع الأطلاع عميق الخبرة: فاستجاب الرسول لرأيها وذهباً إليه حيث قص محمد قصته فقال ورقة: هذا هو الناموس الذي ينزل على الأنبياء، ويا ليتنى أكون معك حين يخرجك قومك. فسأله محمد: أو مخرجي هم؟ فأجاب ورقة: لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم يلبث ورقة أن توفى. (١)

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك، وكان الرسول يترقبه فى الغار وخارج الغار، فسمع مرة وهو يمشى صوتاً، فرفع رأسه للسماء، فرأى جبريل على نحو ما رآه فى الغار، فهاب المنظر وارتعب، ورجع إلى بيته فى حالة من الخشية، وقال لأهله: دثرونى دثرونى. فدثروه؛ وجاءه جبريل وهو فى هذه الحالة فألقى إليه نداء ربه: (③◆①◆②◆③◆④◆⑤◆⑥◆⑦◆⑧◆⑨◆⑩◆⑪◆⑫◆⑬◆⑭◆⑮◆⑯◆⑰◆⑱◆⑲◆⑳◆㉑◆㉒◆㉓◆㉔◆㉕◆㉖◆㉗◆㉘◆㉙◆㉚◆㉛◆㉜◆㉝◆㉞◆㉟◆㊀◆㊁◆㊂◆㊃◆㊄◆㊅◆㊆◆㊇◆㊈◆㊉◆㊐◆㊑◆㊒◆㊓◆㊔◆㊕◆㊖◆㊗◆㊘◆㊙◆㊚◆㊛◆㊜◆㊝◆㊞◆㊟◆㊠◆㊡◆㊢◆㊣◆㊤◆㊦◆㊧◆㊨◆㊩◆㊪◆㊫◆㊬◆㊭◆㊮◆㊯◆㊰◆㊱◆㊲◆㊳◆㊴◆㊵◆㊶◆㊷◆㊸◆㊹◆㊺◆㊻◆㊼◆㊽◆㊾◆㊿◆)

فكانت هذه الآيات هى الآيات الأولى التى كلفت الرسول بالدعوة واتضح بها ما كان غامضاً، ونهض محمد عليه السلام ليحمل هذا العبء الكبير. وبدأت بذلك رسالة محمد، تلك الرسالة التى وضعت حداً لعصر الجاهلية الذى سبق أن تكلمنا عنه وافتتحت عصراً جديداً للعرب هو عصر النور أو عصر الإسلام، ومن الواضح مما ذكرناه من قبل عن العرب قبل الإسلام أن كلمة الجاهلية لم يقصد بها الجهل، فقد كان فى الجزيرة العربية حضارة، وكان لكثير من ممالكها ثقافة ومجد، ولكن المقصود بالجاهلية هو التخبط فى المسائل الدينية، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه الضلالة ويدعوهم لدين واحد وإله واحد.

(١) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٤٨؛ الطبرى: تاريخ الأمم، ج ١، ص ٥٣.

ويروى أن الرسول ﷺ كان يتصبب عرقاً عندما تركه جبريل بعد أن ألقى إليه أمر ربه، فقالت السيدة خديجة له: استرح يا محمد قليلاً، ولكن الرسول قال لها: لم يعد هناك وقت للراحة يا خديجة، ونهض ليؤدي واجبه تجاه الدعوة على ما سنرى. (١)

مراحل الدعوة :

قلنا آنفاً أن آيات سورة المدثر هي التي أمرت محمداً أن ينذر الناس، وأن يدعوهم لدين الله، وقد بدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد وهذه المراحل ثلاث هي:

-المرحلة الفردية.

-دعوة بنى عبد المطلب.

-الدعوة العامة. وسنتحدث عن كل منها فيما يلي:

المرحلة الفردية:

هي المرحلة الأولى من مراحل الدعوة، وفيها دعا الرسول سراً أهل بيته، كما دعا خاصة أصدقائه وكان يدعوهم لمبادئ الإسلام الأولى التي ذكرتها هذه الآية وهي الإيمان بالله ونبذ عبادة الأوثان، فأمن به في هذه المرحلة زوجته وابن عمه علي، وزيد مولاه، ثم دعا الرسول أبابكر وكانت له به صلة منذ مدة فأمن به، وعن طريق أببكر أسلم السابقون الأولون: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبوعبيدة بن الجراح، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الموالى والفقراء. وقد استمرت هذه الدعوة السرية ثلاث سنوات. (٢)

وإسلام أبو بكر يحتاج إلى المزيد من التفصيل، فقد كان صديقاً للرسول قبل البعثة، وكان يتردد على بيته، ويحس فيه بعمق الصدق وطيب الفطنة، فلما

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ١٤٦.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٥٥ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٩.

اتجه محمد إلى الخلوة في غار حراء زاد أبو بكر تعلقاً بالرسول وإيماناً بصفائه، فلما جاء الوحي للرسول بالآيات الأولى من سورة اقرأ ومن سورة المدثر التقى الصديقان، وسأل أبو بكر: لقد افتقدتك طويلاً يا محمد فكيف حالك؟ فسأله الرسول بالتالي: أتصدقني لو حدثتك بحالي؟ فقال أبو بكر: ومن سواك أصدق إذا لم أصدقك؟ فأخبره الرسول بخبر الوحي وقرأ له آيات سورة اقرأ وآيات المدثر، وأضاف الرسول أن هذا مطلع شعاع النور الذي أرجو أن يهتدى به الناس من الضلال وعبادة الأصنام ومن أكل الربا ومن الفسوق والعصيان.

وسرعان ما قبل أبو بكر ما قاله الرسول، وسأله: ماذا أفعل لأصدقك؟ فأجابه محمد: تتطرق بالشهادتين فتقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فنطق أبو بكر بالشهادتين عدة مرات.

ويقول الرسول ﷺ: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة (تردد) إلا أبا بكر.

وحمل أبو بكر عقب ذلك عبء الدعوة إلى الإسلام فدخله السابقون الأولون كما ذكرنا آنفاً.

ومما يذكر عن إسلام طلحة أن بنى تميم قومه وقوم أبي بكر سخطوا على إسلامهما، وعبر نوفل بن خويلد الذي كان يدعى "أسد قريش" عن هذا السخط بأن تقدم وربطهما في حبل واحد، وأخذ يشهر لهما، ولذلك سميا القرينين، وظلت هذه التسمية شرفاً يحرص عليه طلحة.

وممن بكر بالإسلام من أقارب طلحة عمه عمرو بن عثمان وقد كان ضمن المهاجرين إلى الحبشة، أما عمه الآخر عمير بن عثمان فقد قتل في بدر.

واتجه السابقون الأولون إلى أصدقائهم يدعونهم إلى دين الله وقد استجاب لهؤلاء عدد من خيرة قريش مثل: سعيد بن زيد بن عمرو وزوجته فاطمة بنت الخطاب، وأم الفضل زوجة العباس، وأبي سلمة بن عبد الله المخزومي، والأرقم بن أبي الأرقم، الذي كانت داره على جبل الصفا منعزلة عن مكة، فاتخذها الرسول

مقراً للدعوة السرية للدين الجديد، فكان يلتقى بها مع أتباع الدين يعلمهم ويرشدهم.
(١)

ومن الذين استجابوا لدعوة السابقين خالد بن سعيد بن العاص، وكان أبوه من أغنى القرشيين، ولإسلام خالد قصة جديدة بالذكر يرويها خالد بقوله: سمعت عن دعوة محمد وكنت متردداً في قبولها، ثم رأيت فيما يرى النائم أننى على شوك أن أقع فى هاوية فأدركنى محمد وخلصنى من الوقوع فيها، فلما أصبح الصبح اتجهت إليه لأتعرّف على تفاصيل الدين الجديد، وسألت محمد السؤال التالى: إلام تدعو يا محمد ﷺ؟

فقال ﷺ: "أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع.

وأدعو إلى الإحسان إلى والديك، وألا تقتل ولدك خشية الفقر، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وألا تقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل فى قولك ولو حكمت على نوى قرباك، وأن تقى بما عاهدت". قال خالد: فرأيت أن ما يدعو إليه الحق، فأسلمت واتبعت دينه.

دعوة بنى عبد المطلب:

هذه هى المرحلة الثانية من مراحل الدعوة، وقد بدأها الرسول عندما نزل عليه قوله تعالى "وأندر عشيرتك الأقربين" فدعا بنى عبد المطلب ليجتمعوا به، فلما حضروا قال لهم: إنى ما أعلم شاباً جاء قومهم بأفضل مما جئتمكم به، فلقد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة. وبلغهم دعوته، فصدق به بعضهم وكذب به آخرون، وكان عمه أبو لهب هو وزوجته من أشد الناس قسوة عليه، فقد هتف به أبو لهب قائلاً:

(١) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٥٥، ابن سيد الناس: عيون الاثر فى فنون المغازى

والشمائل والسير، ج١، ص ١٢٦-١٢٧، مؤسسة عز الدين، بيروت ١٩٨٦م

تَبَأْ لَكَ، أَلْهَذَا دَعْوَتُنَا؟ (١) فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَا بِالْبَيِّنَاتِ لِنُظَاهِرَ بِهِ مَا كُنَّا نَعْبُدُكُمْ وَأَنَّا نَكُونُ الْبَارِئِينَ﴾ (سورة المسد)

وكانت زوجة أبي لهب (أم جميل) أخت أبي سفيان بن حرب فجذبت زوجها ليكون مع قومها من عبد شمس ضد بنى هاشم امتداداً للعصبية بين الجماعتين.

وقد كانت هذه المرحلة بدء الجهر بالدعوة للدين الجديد، (٢) ولذلك مهدت للمرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهي التي سنتكلم عنها فيما يلي:
الدعوة العامة:

نزل قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فانطلق الرسول يدعو للإسلام جهراً كل طوائف الناس، يدعو السادة والعبيد يدعو الأقربين والغرباء، يدعو أهل مكة ثم يتجاوزها إلى البلاد الأخرى، وكذلك يدعو الحجاج الذين يفدون إلى مكة من مختلف البلدان وقد أسلم في هذه المرحلة الوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام أخو أبي جهل وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وجماعة غيرهم أراد الله لهم الهداية. (٣)

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ، ص ٢٠٠ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧ م ، الطبري :

تاريخ الطبري ج ١ ، ص ٥٤٢ ، ط ٣ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١ م

(٢) عبد الفتاح فتحى: المسلمون فى عصر الرسالة، دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٢٢.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٣-٤٥ ، ابو الفداء :المختصر فى اخبار البشر، ج ١ ، ص ١٤٩ ، تقديم /حسين مؤنس ، تحقيق /محمد زينهم محمد عزب ، دارالمعارف القاهرة ، ١٩٩٨ م .

مقاومة قريش وأسبابها ومراحلها:

بدأت الدعوة للإسلام سراً كما قلنا، وربما عرفت قريش أخبارها آنذاك، ولكن قريشاً لم تعلن العداء على محمد ﷺ إبان هذه المرحلة السرية، إذ لم تتصور قريش أن الدعوة ستقوى وتشتد ويعتقها أفراد كثيرون، كذلك لم تهتم قريش بدعوة محمد لبنى عبد المطلب، فقد رأت هذه حالة داخلية فى نطاق الأسرة، فلم تتدخل بها، وكأنما اكتفت بمقاومة أبى لهب وأمثاله لها، ولكن ما إن بدأ الرسول ﷺ يجهر بالدعوة حتى أعلنت قريش حنقها على هذا الدين، وسلكت كل السبل للقضاء عليه، وقبل أن نتحدث عن هذه السبل أو ما نسميه مراحل المقاومة يجدر بنا أن نبين الأسباب التى جعلت قريشاً تقاوم دين الإسلام هذه المقاومة القاسية. (١)

أسباب المقاومة:

نستطيع من دراستنا لحياة العرب وأخلاقهم قبل الإسلام أن نستنبط أسباب مقاومتهم للإسلام وللمسلمين، وتلك الأسباب هى:

١- كان الرق منتشرراً فى الجزيرة العربية انتشاره فى كل بلاد العالم، وكان العبد رقيق العقل والقلب بالإضافة إلى الرق الجسمانى، بمعنى أنه لم يكن له أن يتدين بغير دين سيده، ولا يحب أو يكره إلا تبعاً لحب سيده وكرهه، وكان جسمه خاضعاً لأوامر سيده، فلما جاء الإسلام لم يعترف برق العقل أو القلب، وقرر أن العقل والقلب لا يتطرق لهما الرق، فالرقيق حر فى فهمه وتدينه وحبه وكرهيته، وان رق الجسم غير مطلق، أى أن للرقيق حقوقاً لدى سيده فى الطعام والكساء والزواج، وليس لسيده أن يطلب منه الحرام أو ما يشق عليه من العمل. (٢)

ودخل بعض العبيد الإسلام كما قلنا، ورحب بهم محمد، واعتبر السادة هذا التصرف تمرداً من العبيد، كما اعتبروا محمداً مثيراً للفتن، وأنه لم يكتف بزويته

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ، ج٢، ص٤٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٠٠؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ص١٢٠؛ الطبرى: تاريخ الأمم، ج١، ص٥٤٢.

يدعوهم لعقيده بل راح يدفع الإسلام إلى القصور عن طريق العبيد على الرغم من إرادة أصحاب القصور .

٢- كان الصراع فى الجزيرة العربية يدور لأتفه الأسباب، فإذا جاء دين جديد يهاجم معتقدات القوم، فما أجدرهم أن يهبوا فى وجهه ليرضوا ما بأنفسهم من شوق للغارة والحروب.

٣- السيادة القبلية والتنافس عليها: لم تستطع قريش أن تفرق بين النبوة وبين السيادة، أو بين النبوة وبين الملك، وحسبوا أن التسليم بدين محمد معناه التسليم بالزعامة له ولآله من بنى عبد المطلب، وكانت هناك منافسة شديدة بين قبائل العرب على الرياسة والسلطان، فلم يكن من الممكن أن تسلم قريش زمامها لمحمد ولبنى عبد المطلب وأن تفقد بطونها المختلفة مكانتها وسيادتها. (١)

٤- المساواة بين السادة والعبيد: كان العرب يهتمون بالطبقات اهتماماً شديداً، فكل إنسان طبقته التى يجب ألا يتعدها، وإذا بدعوة محمد تجعل المساواة بين الناس أساساً هاماً من أسسها؛ وتسوى بين السيد وعبده، بل تجعل العبد أفضل من سيده لو كان أكثر منه تقى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن أجل هذا لم يقبل السادة أن يدخلوا فى هذا الدين الذى يهدم تقاليدهم، وأسس الحياة عندهم، ويسوى بينهم وبين العبيد الأذلاء. (٢)

٥- الفزع من البعث: يقرر الدين الإسلامى أن هناك بعثاً بعد الموت وأن هناك حساباً للناس، يكافأ المحسن فيه على إحسانه، ويعاقب المذنب على سيئاته وآثامه، قال تعالى (القارعة ما القارعة، وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش، فأما من ثقلت موازينه فهو فى

(١) أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ج ١، ط ٥، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١١٨؛ هاشم يحيى الملاح: الوسيط فى السيرة النبوية والخلافة الراشدة، مطبعة

الموصل، ١٩٩١م، ص ١٢٦.

(٢) أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١١٨.

عيشة راضية؛ وأما من خفت موازينه فأمه هاوية، وما أدراك ما هيه، نار
حامية).

وقال (فإذا جاءت الصاخة، يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته
وبنيه، لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).

ولم تستطع قريش أن تقبل هذا الدين الذى يعيد الإنسان للحياة بعد الموت،
ويعيده ولا سلطان له ولا نفوذ بيده، ثم يحاسب هذا الإنسان بعدالة على ما ارتكبه،
ما أبشع الصورة التى تصورها زعماء قريش للإسلام، تلك الصورة التى دفعتهم إلى
رفض هذا الدين الجديد وعدم اتباعه والدخول فيه، إنها صورة العدالة التى لا
يرضاها الظالم؛ وصورة الحساب الذى يفر منه المذنبون.

٦- تقليد الآباء: كان تقليد الآباء واتباع سلوكهم فى العبادات والمعاملات شيئاً
راسخاً عند العرب، ولذلك كرهوا أن يخرجوا من دين آبائهم وأن يتبعوا ديناً
جديداً، وصاحو فى غياب وجمود (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) فهزئ بهم
سبحانه وتعالى بقوله (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون).^(١)

٧- بيع الأصنام: كان هذا السبب مادياً، فقد كان بين العرب من يحترف نحت
الأصنام على شكل اللات والعزى ومناة وهبل، وكان هؤلاء يبيعون هذه الأصنام
للحجاج الذين كانوا كثيراً ما يشترونها للتبرك والذكرى.

فلما جاء الإسلام حرم عبادة الأصنام ونحتها وبيعها، ووجد هؤلاء التجار
فى الإسلام حائلاً بينهم وبين أرباحهم وعاملاً يقضى على تجارة الأصنام بالكساد
والبوار، ولذلك سرعان ما قاوموا الإسلام وثاروا عليه.

ومما يتصل بهذا السبب المالى أيضاً إحساس سدنة الكعبة بأنهم سيفقدون
ما كانوا يتمتعون به من ثروة ونفوذ بسبب خدمتهم للأصنام ورعايتهم لزائريها، كما

(١) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية، ج ١، ط ٢، الأنجلو المصرية، القاهرة،

ظن أهل مكة على العموم أن الكساد سوف يصيبهم جميعاً بسبب إعراض الحجيج عن مكة إذا بطلت عبادة الأصنام بها.

مراحل المقاومة:

كانت مراحل المقاومة ثلاثاً، إذ اتجهت أولاً إلى العبيد والضعفاء، وثانياً إلى سواهم من المؤمنين، وثالثاً إلى الرسول نفسه، وسنتكلم عن كل من هذه المراحل على حدة فيما يلي:

١- العدوان على العبيد والضعفاء:

لم توجد قريش اهتماماً لمقاومة الإسلام في أول عهده كما قلنا، وظنوا أن دعوة محمد ليست إلا حركة تفتت وتختفي بعد قليل من تلقاء نفسها. ولكن سرعان ما بدا لهم أن الدعوة تدخل عليهم بيوتهم وأن عبيدهم الذين كانوا يعدون ضمن متاعهم يدخلون هذه الدعوة الجديدة، بعد أن وضح لهم الإسلام أن الرق لا يمتد للعقل ولا القلب، وإنما هو مقصور على الجسم وبشروط محددة في ذلك أيضاً. لذلك اتجهت الخطوة الأولى من خطوات المقاومة إلى العبيد والضعفاء، لأن محمداً عن كان حراً يقول ما يريد فهؤلاء في نظرهم ليسوا أحراراً في أبدانهم ولا في عقولهم، وعلى هذا تعرض ياسر وابنه عمار وزوجته سمية كما تعرض بلال وخباب بن الأرت وغيرهم إلى ألوان قاسية من العذاب ليس فيها خلق ولا رحمة (١) ، وقد شمل هذا العذاب الضرب والحرمان من الطعام والشراب، وامتد العذاب بهؤلاء العبيد حتى كانت توثق ظهورهم بالرمضاء وتوضع فوقهم الحجارة المحماة الثقيلة، وقد مات ياسر وهو يعذب، ولما صرخت أمراًته شاكية طعنها أبو جهل بحربة فقتلها. وكان من نتائج تعذيب هؤلاء أن اشترى أغنياء المسلمين كثيرين من هؤلاء العبيد وأعتقوهم، وقد أعتق أبو بكر بلالاً وأمه حمامة، وأعتق عامر بن فهيرة وأعتق خمسا من النساء، ويقال إن فيه نزلت الآيات الكريمة "وسيجتنبها الأتقى الذي يؤتى

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤٥-٤٦.

ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى".

٢- العدوان على كل المسلمين:

وتجئ بعد ذلك المرحلة الثانية حيث امتد الاعتداء إلى أتباع الدين الجديد جميعاً من غير العبيد والضعفاء، إذ رأت قريش أن الدعوة زاد انتشارها وانضم لها بعض أشرف، وبدا خطرهم يظهر، فعم الاعتداء كل المسلمين وأصبح كل مسلم هدفاً للهجوم والإيذاء من المشركين مهما كانت مكانته في قريش، ومهما كان ثراؤه، ومهما كان جاهه وقوته، وعلى هذا تعرض للأذى سادة أمجاد مثل أبي بكر وعثمان والزبير وأبي عبيدة، وربما كان من الممكن أن يدافع هؤلاء عن أنفسهم، ولكن الإذن باستعمال القوة-ولو للدفاع- لم يكن قد جاء بعد، كما سيأتي تفصيله عند الحديث عن الإسلام والقتال، ولذلك احتتم المسلمون الأول ألوانا من العسف والقسوة والطغيان أنزلتها بهم قوى الشر بمكة. (١)

وقد أودى أبو بكر إيذاء شديداً على الرغم من سنه ومكانته في قريش ولقد هم بالهجرة إلى الحبشة من شدة ما عانى، ولكن أحد سادة قريش قابله وقد أزمع الهجرة فخلج أن يهاجر رجل مثل أبي بكر من مكة، فأعاده معه في جواره ولكن أبا بكر سرعان ما رد هذا الجوار حتى لا ينعم بالأمن في وقت يعانى فيه باقى المسلمين ألواناً من العنت والعذاب، وقد صبر أبو بكر وصابر حتى هاجر مع الرسول إلى المدينة وممن نزل به، الأذى في هذه المرحلة (عثمان بن عفان)، فقد حبسه عمه الحكم بن العاص في حجرة مظلمة وقيده بسلاسل من حديد وهدده بأنه سيبقى هكذا إلى أن يعود إلى آلهة قومه، ويترك إله محمد، ولكن عثمان أكد أنه لن يعود إلى الكفر بعد أن ذاق حلاوة الإيمان، أما ما يعانى من قسوة فلا مناص من احتمالها في سبيل الله.

(١) النويرى: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١٦، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة،

وتعرض الزبير بن العوام إلى سخط عمه نوفل بن خويلد، وأقسم نوفل أن ينزل بالزبير من العذاب ألواناً حتى يعود إلى دين آبائه وأجداده وتنفيذاً لهذا القسم وضعه نوفل في حجرة مظلمة مكتوف الأيدي وأطلق دخاناً كثيفاً بالحجرة حتى ضاقت أنفاسه وهو صابر لقضاء الله، ولم ينقذه من الموت إلا أمه صفية التي هددت بأنها ستدخل نفس الدين إذا استمر نوفل في إنزال العذاب بابنها.

وإذا كانت صفية قد دافعت عن أبنها، فإن شاباً مسلماً آخر هو سعد ابن أبي وقاص كانت أمه (حمنة بنت أبي سفيان) مصدر تعذيبه والتتكيل به، وسنرى ذلك عند الحديث عن (الرسول والشباب).

ويمكن القول إن الرسول نفسه لم يمسه إيذاء يذكر في هذه المرحلة لمكانة بنى هاشم ومكانة أبي طالب الذي أخذ على نفسه حماية ابن أخيه ومن نتائج الإيذاء الذي وقع على المسلمين أن هاجر هؤلاء إلى الحبشة كما سنوضحه فيما يلي، ثم نعود -بعد الكلام عن الهجرة إلى الحبشة- إلى استكمال مراحل المقاومة بشرح المرحلة الثالثة حيث تعرض الرسول نفسه للإيذاء والاعتداء.

هجرة المسلمين إلى الحبشة:

لما نزل الأذى بالمسلمين، وأصابهم البلاء من قريش، وأصبحت حالة المسلمين تدعو للأسى بسبب ما لاقوه من قريش من إيذاء وهجوم، بدأ الرسول يفكر في بلدة أخرى يرسل لها المسلمين المستضعفين ليعيدوا عن قريش وعن هجمات قريش، أما المسلمون الأشداء فقد بقوا بمكة يحيطون بالرسول ويدفعون بهيبتهم العدوان عن أنفسهم، ومن هؤلاء علي بن أبي طالب عليه السلام وطلحة بن عبيد الله وكثيرون سواهما. (١)

أي البلاد يختار الرسول لراغبي الهجرة من المسلمين؟ هل يرسلهم إلى اليمن؟ لا، إن اليمن خاضعة للفرس، لا يعتنقون الأديان السماوية ولا يحترمونها

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٩٨؛ الطبري: تاريخ الأمم، ج ١، ص ٥٤٧.

بدليل أن كسرى ملك الفرس أرسل إلى بأذان عامله على اليمن يقول له: ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جليدين من عندك فليأتياى به. هل يرسلهم إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالجزيرة العربية؟ فقد كان أهل الكتاب فى نزاع ومنافسة، فهم لا يقبلون منافساً جديداً يقول بالله الذى يقولون به على غير ما يعتقدون.

هل يرسلهم إلى الشام أو الحيرة؟ لا، فإن الشام والحيرة مكانان لقريش فيهما نفوذ كبير بسبب الصلات التجارية التى تربطهم بسكانها، هذا بجانب نفوذ الروم والفرس الذى لا يسمح بتأييد الدعوة الجديدة.

إلى أين يرسلهم؟ هل يرسلهم إلى الحبشة التى كان الرسول يعرف أن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد؟ نعم، لقد استقر رأى على ذلك، فوجه الرسول أتباعه عبر البحر الأحمر إلى أرض الأحباش.

وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة على مرحلتين تعرفان بهجرة الحبشة الأولى، وهجرة الحبشة الثانية، وكانت الهجرة الأولى فى السنة الخامسة للدعوة وقوامها أحد عشر رجلاً وأربع نساء فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة الرسول والزبير بن العوام وأبو حذيفة وامراته، وكان عثمان بن مظعون رئيس هؤلاء المهاجرين. (١)

أما الهجرة الثانية فقد حدثت بعد ذلك بأشهر قلائل واشترك فيها ثمانون رجلاً وامراً واحدة هى أم حبيبة بنت أبى سفيان مع زوجها عبيد الله بن جحش، وكان جعفر بن عبد المطلب زعيم المهاجرين فى هذه المرة، وبعد فترة قصيرة اتصل بمن كان فى أرض الحبشة من المهاجرين خبر إسلام عمر ومجاهرته بالعبادة، فتشجع بعضهم للعودة ليشارك عمر شجاعته وثباته ونضاله، كما بلغهم كذلك نوع من الهدنة بين قريش وبين المسلمين لحرص قريش على ألا تقوم حرب أهلية بين الفريقين، وحب الوطن طبيعة فى الإنسان، والغريب يتلمس المعاذير

(١) ابن كثير : السيرة النبوية، ج ٣، ص ٨٤-٨٥.

ليعود للوطن، وباسم حب الوطن، الذى - فيما نظن - نسج الأسباب وهياً الحجج، عاد بعض هؤلاء المهاجرين إلى مكة، ولكنهم ما إن وصلوها حتى ظهر لهم أنهم كانوا متفائلين، وأن حدة العداء بين المسلمين والمشركين لم تهدأ، ولذلك - كما يقول ابن هشام - لم يدخل أحد منهم مكة إلا بجوار أو مستخفياً، أما باقى مهاجرى الحبشة الذين لم يخضعوا للتفاوض، أو الذين آثروا البقاء فى مغتربهم حتى تعلق كلمة الله فقد بقوا هناك حتى السنة السابعة للهجرة. (١)

وقد أحست قريش عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة أن أختيار المسلمين للحبشة سببه استعداد النجاشى لإكرامهم، وأمنهم على نفوسهم ودينهم فى مغتربهم، فقررت أن تكيد للمغتربين لتحريمهم هذا الملجأ، فأختارت لذلك عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة المخزومى وأرسلتهما إلى النجاشى، وكان لعمرو بن العاص جاه فى الحبشة وفى بلاط النجاشى، وأرسلت مع البعثة مجموعة كبير من الهدايا للنجاشى وبطارقته، وأذاعت أن المسلمين يقولون فى عيسى وفى أمه قولا عظيما فعقد النجاشى مجلساً استمع فيه لرأى جعفر ابن أبى طالب فى هذه التهم، وقد نجح جعفر فى عرض الفكر الإسلامى مما جعل النجاشى يقول: إن هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، ويقال إنه آمن بالإسلام فثار عليه قومه لذلك، وفى العام السابع للهجرة أرسل الرسول من حمل هؤلاء المهاجرين فى سفينتين وأحضرهم إلى المدينة، وكان ذلك عقب استسلام خيبر، ويروى أن الرسول قال عندما رأى جعفر بن أبى طالب، ما أدرى بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدم جعفر. (٢)

ونعود بعد ذلك للحديث عن الجوار الذى أشرنا إليه فيما سبق، فقد قلنا إنه لم يدخل مكة من العائدين من الحبشة إلا من دخل فى جوار ومن دخل مستخفياً، وكان من عادة العرب أن من دخل فى جوار شخص أصبح ذلك الشخص مسئولاً عنه وعن حمايته، ويكون الاعتداء على المستجير اعتداء على المجير وهتكاً

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ١، ص ٥٤٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب، ج ١٦، ص ٢٣٢.

لحرمته، وقد دخل عثمان بن مظعون-عقب عودته من الحبشة ومعرفته أن المسلمين لا يزالون يسامون العذاب-فى جوار الوليد بن المغيرة، ولكن عثمان رأى ما فيه المسلمون من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان، فخلج من ذلك وقال: والله إن غدوى ورواحى أماناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى، فمشى إلى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس وقت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك. قال: يا ابن أختى، لعله آذاك أحد من قومى؟ قال: لا، ولكنى أرى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره: قال المغيرة: فانطلق بنا إلى الكعبة فارد على جوارى علانية كما اجرتك علانية: فانطلقا حتى أتيا الكعبة، قال الوليد: هذا عثمان جاء يرد على جوارى. قال عثمان: صدق، قد وجدته وفيأ كريم الجوار، ولكنى أحببت ألا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره. (١)

ورأى عثمان عقب ذلك لبيد بن ربيعة الشاعر فى مجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان وأنشد لبيد: ألا كل شئ ما خلا الله باطل. قال عثمان: صدقت. وتابع لبيد إنشاده قائلاً: وكل نعيم لا محالة زائل. قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

ولما سمع لبيد من يكذبه صاح: يا معشر قريش. والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم، قال رجل من القوم؛ إن هذا سفيه من سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن فى نفسك من قوله. فرد عليه عثمان بكلام يدافع عن نفسه، فاشتبكا فى عراك، ولطم القرشى وجه عثمان لطمة أثرت فى عينه.

قال الوليد: يا عثمان، قد كنت فى غنى عما أصابك فقد كنت فى ذمة منيعة. قال عثمان: والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله، وأنى والله لفى جوار من هو أعز منك وأقدر.

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٢، ص ٥١٢؛ الحلبى: السيرة الحلبية فى سيرة الأئمين والمأمون، ج ٢، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣.

ومما يروى أيضاً عن أحاديث الجوار أن أبا بكر لما أصابه الضّر ورأى الأذى يصيبه ويصيب الرسول ﷺ ولا يطيق له دفعاً أستأذن الرسول في الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر وسار يوماً أو يومين فلقيه ابن الدغنة وهو أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد الأحابيش. فسأله: إلى أين يا أبا بكر؟ فاجاب: أخرجني قومي وآذون وضيقوا علي. قال ابن الدغنة: ولم؟ وإنك والله لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدم؟ ارجع وأنت في جوارى. فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إنى قد أجزت ابن أباي قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير. ومنذ ذلك الحين كفت قريش عن أذى أباي بكر.

وكان لأبي بكر مسجد عند بابا داره فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن، وكان رجلاً رقيقاً إذا صلى خشع وإذا قرأ القرآن بكى واستبكى، وكان ذلك يجذب حوله الصبيان والنساء في إعجاب ظاهر، فخاف رجال قريش عاقبة ذلك ومشوا إلى ابن الدغنة وشكوا له أبا بكر وطلبوا أن يصلى وأن يقرأ القرآن داخل داره، فكلمه ابن الدغنة في ذلك: فأجابه أبو بكر: أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. قال: فارد على جوارى. ففعل أبو بكر وتعرض بعد ذلك إلى عنت قريش من جديد.

٣-العدوان على الرسول:

نتكلم الآن عن المرحلة الثالثة من مراحل مقاومة قريش للإسلام، وفي هذه المرحلة تعرض الرسول ﷺ نفسه للهجوم والإيذاء، وقد بدأ ذلك عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة، فقد أزعجت هذه الهجرة قريشاً وتوقعت أن يبشر المسلمون في كل النواحي داعين إلى دينهم، وأن تمهد هذه الهجرة لهجرة محمد نفسه، وبذلك تتغلب عبادة الله على عبادة أصنامهم، ولهذا اتجهت قريش إلى رأس هذه الحركة، إلى محمد بن عبد الله للضغط عليه أو لإغرائه حتى يكف عن هذه الدعوة الجديدة. واتبعوا في إغراء الرسول ﷺ العروض المالية السخية، ولكن محمداً سخر منهم ومن أموالهم، فتجاوزوا المال إلى الملك، فعرضوا عليه أن يكون عليهم ملكاً،

ولكن محمداً صاح بهم صيحة وضعت حداً لهذه العروض الرخيصة حين قال قولته المشهورة: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت ذلك حتى يظهره الله أو أهلك دونه". (١)

ولما لم يفد الإغراء اتجهوا للهجوم والإيذاء وكانوا راغبين في إنزال الأذى مصرين على المقاومة، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخافون نتائج هذا الإيذاء ويتوقعون الشر من إقدامهم عليه، فأبو طالب يحتل أرفع مكانة بين العرب، وحوله بنو هاشم فيما عدا أبا لهب، ولذا تنوعت المقاومة فاتجه ثقلها إلى المقاومة السلبية وضرب الحصار كما سنوضح ذلك عندما نتكلم عن "مقاطعة بنى هاشم" واتجه بعضها إلى إنزال الأذى بالرسول مباشرة، فأم جميل زوجة أبي لهب كانت تلقى الأقدار والأشواك أمام داره في غسق الليل لتؤدي الرسول ﷺ عند خروجه مبكراً، وكان أبوجهل يلقي فوقه القاذورات وهو في أثناء صلاته. (٢)

ولكن حماية أبي طالب ردت عن الرسول كثيراً من الأذى، ووقفت زوجته خديجة وكأنها بلسم يشفي ما يصيبه من آلام، لقد كانت تحسن استقباله إذا عاد إلى البيت كئيباً، وكانت تواسيه وتشجعه حتى يعود له نشاطه ويسترد عزمه وقوته. وكان المجاهرون بالظلم لرسول الله، ولمن آمن به كثيرين أهمهم عمه أبو لهب، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وهما من بنى هاشم، وعتبة وشيبة أبنا ربيعة، وعتبة بن أبي معيط وأبو سفيان بن حرب وابنه حنظلة، والحكم بن أبي العاص بن أمية وهم من بنى عبد شمس، ومن بنى عبد الدار النضر بن الحارث ومن بنى أسد بن عبد العزى زمعة بن السود وأبو البختری العاص بن هشام، ومن بنى مخزوم أبو جهل بن هشام، وأخوه العاص وعمه الوليد بن المغيرة، ومن بنى سهم العاص بن وائل وابنه عمرو بن العاص، ومن بنى جمح أمية بن خلف وأخوه أبي، وكان هؤلاء يواصلون الأذى للرسول وللمسلمين، ويروى ابن عباس أن النبي

(١) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ١٨٢-١٨٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٤٥.

ﷺ كان يصلى فجاءه أبو جهل واعتدى عليه، وحاول نهيهِ عن الصلاة ولكن الرسول زجره وهدده، فقال أبو جهل: يهددنى محمد وقد علم أن ما بها رجل أكثر نادياً منى؟ فأنزل الله فيه الآيات الكريمة: "أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى، أرأيت إن كذب وتولى، ألم يعلم بأن الله يرى، كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة، فلیدع نادية، سندع الزبانية، كلا، لا تطعه واسجد واقترب" قال ابن عباس والله لو دعا ناديه لأخذته الملائكة.

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب ونتائج ذلك:

وبينما كانت الدعوة بين إسرار الرسول وكفاح قريش، إذ دخلها فى السنة الخامسة للدعوة بطلان عظيمان هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب وقد كانا معروفين بالقوة والصلابة فعز بهما الإسلام واشتد الأمل فى انتصاره، ولكن هنا نقرر أنه كان لإسلام عمر وحمزة رد فعل قوى عند قريش، فقد أدركت أن مسألة محمد ستؤدى إلى انتصار دينه ما دام هذا الدين قد بدأ يجذب له الأقوياء الأشداء من أمثال حمزة وعمر، وأدركت كذلك أن العدوان على المسلمين قد يؤدى إلى حرب داخلية، فإن عمر وحمزة لا يصبران على الضيم، وبخاصة أن إسلام حمزة ارتبط بعدوان أبى جهل على الرسول، فغضب حمزة لذلك وأعلن إسلامه، وقصد أبى جهل وشجه وهدده بالانتقام من أى عدوان. (١)

ومن أجل هذا اتجهت قريش وجهة جديدة طابعها المفاوضة لرغبتها فى أن يتم القضاء على محمد دون إثارة بنى عبد المطلب، فأخذوا يترددون على أبى طالب يطلبون إليه أن يسكت ابن أخيه الذى يسب دينهم ويحقر آلهتهم، ولكن هذه الخطوة لم تأتى بطائل، وحينئذ خطت قريش خطوة أخرى فيها شدة وتهديد فقد ذهبت وفودهم إلى أبى طالب وصاحت فيه:

(١) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٢١٢.

يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وأنا قد استنهيئك من ابن أخيك فلم تنتهه عنا، وإن والله لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، فأما أن تكفه عنا وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. (١)

ولم يفد التهديد بشئ فخطوا خطوة ثالثة هي أنهم ساوموا أبا طالب وأرادوا أن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة ويأخذوا محمداً ليقتلوه، وقالوا في ذلك لأبي طالب: إن عمارة أنهد فتى في قريش، وأجمل شباب العرب، فخذ، فلك عقله ونصره واتخذه ولداً لك وأعطنا محمد. وسخر منهم أبو طالب، وقال: بئس ما تساومونني؛ أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم أبنى تقتلوناه؟

مقاطعة بنى هاشم:

وانتقل العداء خطوة جديدة، فقد أدركت قريش أن قوة محمد مصدرها أهله الذين يحمونه ويدافعون عنه، سواء منهم من اتبع دينه أو من بقى على دين آبائه وأجداده؛ ولهذا عزمت قريش على مخاصمة بنى هاشم جميعاً، ورغبة عن الحرب وما تجره من ويلات اتجهوا في مقاومتهم لبنى هاشم اتجاهاً سلبياً ولكنه عنيف، فاجتمعت قريش وكتبت صحيفة قررت فيها مقاطعة بنى هاشم فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم. ولا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يكلمونهم، ولا يزورون مرضاهم ولا يشيعون موتاهم، وأكروههم أن يلزموا الشعب وهو طريق بين جبلين.. وقد كانت هذه المقاطعة قاسية جداً على بنى هاشم، مسهم بسببها الضر بل الجوع والحرمان، وقد استمرت حوالي ثلاث سنوات، ولم تنقض إلى بعد أن أشفق بعض القرشيين على بنى هاشم بسبب ما نالهم من أذى وعذاب فمزقوا هذه الوثيقة وعادوا إلى الاتصال بهم. (٢)

وكان أبو طالب شديد الرعاية للرسول ﷺ طيلة مدة بنى هاشم في الشعب، فكان يأمر الرسول أن ينام في فراشه الخاص أول الليل حتى يراه الناس وقد أوى

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٥٧-٥٨.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ٣؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٠٩.

إلى هذا الفراش، فإذا نام الناس أمر أبوطالب أحد بنيه أو اخوته أو بنى عمه فأخذ مكان الرسول، وأمر رسول الله أن ينتقل إلى فرشهم فيرقد فيها، وذلك ليضلل أعداء الرسول الذين قد يتجهون إلى العدوان على الرسول صلوات الله عليه. (١)

ومما يذكر عن نهاية الصحيفة أن الله بعث عليها الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد لهم وميثاق، ولحست اسم الله عز وجل، ولم تترك فيها إلا كلمات الظلم والشرك والقطيعة، وهناك رواية مضادة ترى أن الأرضة أتت على كل شيء، ولم تدع إلا اسم الله جل وعلا، وقد أوحى الله لمحمد بذلك، فنقل ذلك إلى عمه أبي طالب، فتحدى أبو طالب جماعة المشركين، وأحضروا الصحيفة فظهر صدق محمد، ومع هذا اعتبروا ذلك سحراً وزاد بغيهم وعدوانهم.

ولكن كان بين المشركين نفر عارضوا المقاطعة ومشوا في نقض الصحيفة، ومن هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث وهو كاتب الصحيفة، وأبو البختری العاص بن هشام والمطعم بن عدى، وزهير بن أبي أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمه رسول الله، وزمعة بن الأسود.

وكان أبو جهل من أحرص الناس على النيل من المسلمين وحرمانهم ويروى ابن هشام أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً إلى خديجة بنت خويلد زوجة الرسول وعمه حكيم فتعلق به أبو جهل وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختری وقال له: مالك وله؟ إنه طعام كان لعمته عنده رغبت إليه فيه، فكيف تمنعه؟ فأبى أبو جهل، وقام نزاع كان من أسباب إغفال الصحيفة ونهاية المقاطعة.

وأبوجهل الذي كان شديداً في غيبة محمد، كان يهاب محمداً ويحس بالرهبة أمامه يروى ابن هشام أن رجلاً من إراش باع إبلاً له إلى أبي جهل بثمن مؤجل، فلما طالبه الإراشي بالثمن مطلقه أبو جهل وذهب الإراشي إلى حشد من الناس حول الكعبة وقال لهم: يا معشر قريش، ما من رجل يؤديني ديناً على أبي

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٣١.

الحكم بن هشام، فإنى رجل غريب وقد غلبنى على حقى؟ فرأى أحد الجالسين أن يهزأ برسول الله ﷺ، وكان الرسول ﷺ يجلس فى ناحية بعيدة عن القوم، فقال للأراشى: أرايت هذا الجالس هناك؟ إنه هو الذى يستطيع أن يأخذ لك حقه من أبى جهل. (١)

وصدق الأراشى كلام القرشى، وذهب إلى الرسول وقص عليه الخبر، قال الرسول للرجل: انطلق معى إليه، وذهبا معاً تجاه منزل أبى جهل. وأراد القرشيون أن يعرفوا ما سيتم عليه الأمر، فألحقوا بالرسول والأراشى رجلاً منهم لينقل لهم خبر ما سيتم من أحداث وعاد الرجل ليقول لقريش كلاماً عجباً، فقد دق الرسول باب أبى جهل ورد أبو جهل سائلاً من الذى يدق الباب؟ فقال الرسول: أنا محمد إخرج إلى فخرج أبو جهل وقد امتنع لونه، وما فى وجهه قطرة من دم، فقال له الرسول: أعط هذا الرجل حقه. قال أبو جهل: نعم فى التو والساعة ودخل وعاد ومعه ثمن الإبل وأعطاه للأراشى. (٢)

وسرعان ما جاء أبو جهل إلى الكعبة، فقال له المشركون: ويحك ماذا حدث لك قال: ويحكم أنتم، والله ما هو إلا أن ضرب بأبى وسمعت صوته حتى ملئت رعباً، ولما خرجت إليه وجدت كأن فوق رأسه قوة هائلة أرعبتنى، وأحسست أننى لو أبيت لهلكت. فعجب القوم من شأن أبى جهل وشأن محمد.

عام الحزن والخروج إلى الطائف:

وتفيد المصادر أنه عقب ذلك خرج الرسول ﷺ إلى الطائف فى السنة العاشرة من البعثة لكى يعرض الدعوة الإسلامية على قبيلة ثقيف ويلتمس هناك النصرة والمنعة، لحمايته من بطش مشركى قريش، وقد رحل إليهم وحده وقيل بصحبته زيد بن حارثة مولاه، واجتمع النبى ﷺ ببعض سادات ثقيف، وقد دعاهم

(١) السهيلي: الروض الأتف فى تفسير السيرة النبوية، المجلد الثانى، الطبعة الأولى، دار الكتب

العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٦١.

(٢) الحلبي: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٢٦.

إلى عبادة الله الواحد والدخول فى الإسلام، ومساعدته على من خالفه من مشركى قريش، ولكنهم أعرضوا عنه، وأغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونهم ويرمونهم بالحجارة حتى أدمت قدماه، فالتجأ إلى بستان لعتبة؟ وشيبة ابنى ربيعة (من قريش)، فجلس فيه إلى أن انصرفوا عنه، ثم عاد إلى بلده مكة حزينا لإعراض أهل الطائف عن الدعوة، ولم يستطع دخول مكة إلا بعد أن استجار بالمطعم بن عدى أحد سادات قريش، الذى أجاره وحماه من إيذاء مشركى قريش. (١)

ولعل رفض قبيلة ثقيف بالطائف الاستجابة للدعوة الإسلامية يرجع إلى

سببين:

أولاً: العلاقات التجارية والدينية الوثيقة التى تربط بين قبيلتى قريش وثقيف والمصالح المتبادلة.

ثانياً: أن الطائف كانت مركزاً لعبادة الآلهة اللات، وكان سدنة تلك الآلهة من ثقيف، ولذا خشوا أن تتأثر مكانة اللات بالدعوة الإسلامية.

الإسراء والمعراج:

أشارت المصادر إلى أنه فى السنة العاشرة للبعثة أسرى برسول الله فى رحلة روحانية من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس بعد المعاناة التى تعرض لها فى الفترة الأخيرة، وذلك ليشرح الله صدره ويعلى ذكره فى العالمين ويريه بعض آياته الكبرى فقد جاء جبريل عليه السلام بيت أم هانئ بنت عمه أبى طالب أثناء الليل ومعه البراق وهى البداية التى كان تحمل عليها الأنبياء قبله، حتى انتهى به إلى بيت المقدس، فصلى بالأنبياء فى المسجد الأقصى، ثم صعد به إلى السماء وتحدث إلى بعض الأنبياء، ورأى الجنة والنار، وفرضت الصلوات الخمس، ورأى الكثير من آيات الله عز وجل ثم عاد به جبريل فى نفس الليلة إلى مكة، وفى الصباح أخبر أم هانئ بما حدث له فى تلك الليلة

(١) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٤٢١-٤٢٢؛ الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٣٤٥-٣٤٨؛ عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٥٧-٥٨.

المباركة فأشفقت عليه من تكذيب قومه وإيذائهم له، غير أنه صمم على إخبارهم ، ووصف لهم الطريق الذى سلكه إلى بيت المقدس، والعبر التى رآها خارج مكة لقوم منهم ^(١) ولكنهم رغم ذلك كذبوه، بينما صدق أبو بكر رضي الله عنه، ولذا لقب بالصديق لعدم ترده فى تصديق حادثة الإسراء والمعراج.

الرسول يعرض نفسه على القبائل :

أخذ الرسول ينتهز فرصة اجتماع القبائل العربية فى المواسم سواء للتجارة أو الحج، وكان يجتمع بهم ويعرض عليهم الدخول فى الدعوة الإسلامية الجديدة والانتقال إلى أرضهم، فيذكر الطبرى أنه ذهب إلى قبائل كندة وبنى عامر وبنى حنيفة غير أن تلك القبائل لم تستجب لدعوته لحرصها على علاقاتها الوطيدة مع قبلية قريش، وارتباطها معها فى المصالح التجارية، علاوة على قيام ابى لهب - عم رسول الله - بشن دعاية كبرى ضده بين القبائل، ويحذرهما من اتباعه، والدخول فى الدعوة الإسلامية الجديدة.

اتصال رسول الله بقوم من يثرب ودخولهم فى الإسلام :

فى تلك الأثناء وصل إلى مكة نفر من الأوس من أجل السعى لعقد تحالف مع قبيلة قريش ضد الخزرج فى يثرب، غير أن القرشيين رفضوا ذلك، فانتهز النبى فرصة وجودهم فى مكة واتصل بهم وعرض عليهم الدخول فى الإسلام فأسلم أحدهم ويدعى إياس بن معاذ الأوسى، وفى نفس السنة (الحادية عشرة للبعثة) شاءت إرادة الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه وأن يساهم أهل يثرب بدور فعال فى نصرة الإسلام عندما وفد على مكة جماعة من الخزرج لزيارة البيت الحرام والتقرب إلى الآلهة، فاجتمع بهم الرسول صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الوحدانية والإسلام وقرأ عليهم آيات من القرآن الكريم، فصدقوا بالدعوة وأسلموا على يديه، وقالوا له:

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٤٣ وما يليها..

"إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين..." (١)

ويضيف الطبرى أنه عندما عاد وفد الخزرج إلى قومه بيثرب ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى انتشر فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار (الأوس والخزرج) إلا وفيها ذكر من رسول الله.
بيعة العقبة الأولى:

استمر الرسول ﷺ فى الدعوة إلى الدين الإسلامى فدعى قبيلة كندة فرفضوا، وردته بنى حنيفه، ودعى بنو سليم وعبس وفزارة وغثان ومرة وكلب، وبنو الحارث، وبنو عذرة فلم يستجب منهم أحداً، ثم أتى بنى عامر بن صعصعة ودعاهم إلى الإسلام فقال له رجل منهم " رأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال الرسول ﷺ الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، وكان لهذا الجهاد المستمر من قبل الرسول ﷺ فى سبيل إظهار هذا الدين أن يجد من بعد هذا الضيق فرجاً فظهر شعاع من الأمل والنجاة، فوجد من يستمع إليه ويستجيب لدعوته وكان النبى ﷺ يستغل أية فرصة للقاء وفود العرب إلى مكة، وفى هذه المرة التقى برهط من قبيلة الخزرج وذلك عند العقبة وكان عددهم ستة رجال فدعاهم إلى الإسلام وأسمعهم بعض آيات القرآن الكريم فأجابوه وصدقوه وقبلوا ما عرض عليهم، وقالوا للنبى ﷺ سنقدم على قومنا بيثرب ونعرض عليهم هذا الدين فإن أيدوك فلا يكون أعز منك ورجعوا إلى يثرب وذكروا لأهلهم وذويهم وقومهم ما نكره رسول الله ﷺ لهم، حتى انتشرت دعوته فى كافة

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٢٩٠، ٣٤٨-٣٥١؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ص ٧٣، عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٥٨.

بيوت يثرب واشتاقوا لمقابلته وكانت هذه المقابلة فى العام الحادى العشر من البعثة النبوية. (١)

وفى نفس العام قدم وفد من قبيلة الأوس يطلب مخالفة قريش ضد قبيلة الخزرج، فأتاهم الرسول ﷺ ودعاهم إلى الإسلام فقال أحدهم وهو إياس بن معاذ: هذا والله خير مما جئنا له، ثم عاد وفد الأوس إلى يثرب دون أن يعقدوا حلفاً مع قريش، وكان الأوس والخزرج يسمعون من يهود المدينة أن نبياً سوف يبعث ويتوعدونهم به إذا حاربوهم، ولذلك لما رأى الأوس النبى ﷺ ولاحظوا أمارات الصدق عليه وقال بعضهم لبعض والله هذا الذى توقعكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه وانصرفوا إلي بلدهم.

فلما كان العام المقبل وفد إلى مكة اثنا عشر، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فبايعوا الرسول عند العقبة، وتعرف تلك البيعة ببيعة العقبة الأولى "بيعة النساء"، واجتمعوا وعاهدوا النبى على ألا يشركوا لعبادة الله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلون الأولاد ولا يأتون ببهتان ولا يعصون النبى ﷺ، وبعث معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن مناف بن عبد الدار وأسعد بن زرارَةَ ليقارئهم القرآن ويدعوهم إلى عبادة الله، وأصبح الإسلام بين الرجال والنساء وفى كل دار بيثرب. (٢)

فنزل مصعب بإحدى دور المدينة وصار يدعو أهلها من العرب إلى الإسلام، ويصلى بالمسلمين ويتلو عليهم القرآن. ولم يمض عام حتى أصبحت كل أسرة من عرب المدينة تضم فريقاً ممن دخل فى الإسلام على يد مصعب بن عمير (٣).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٢-٥٣؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٢، ص ٦٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٤؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٥٥٨.

(٣) ابن الأثير: ج ٣، ص ٣٦-٣٧.

بيعة العقبة الثانية:

وفى العام التالى الموافق الثالث عشر من البعثة خرج من يثرب ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من الأوس والخزرج، من المسلمين الذين أسلموا حديثاً قاصدين مكة، فقدم إليهم النبى ومعه عمه العباس وكان على دين قومه، ولكنه صحب ابن أخيه ليتوثق له، وكان معه أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ﷺ وتحدث العباس إلى الأنصار وذكر لهم أن محمداً فى عز من قومه ومنعة فى بلده ولكنه فضل الإنحياز إلى أهل يثرب، وطلب منهم أن يتعهدوا على حمايته ورد عليهم أحد رجال الخزرج وهو البراء بن معرور أنهم صادقون فى عزمهم وقام النبى ﷺ ورغبهم فى الإسلام وتلا بعض آيات القرآن الكريم فقبلوا دعوته وبايعوه وتعاهدوا له بالدفاع عنه ورحبوا بهجرته إلى مدينتهم، ثم قام أبو الهيثم مالك بن التيهانى أحد رجال الأوس فقال لا يارسول الله وإنا بيننا وبين الناس حبلاً - يقصد اليهود - وإنا لقاطعوها فهل عسيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا. (١)

فتبسم الرسول ﷺ وقال: "بل الدم الدم الهدم الهدم" أنتم منى وأنا منكم وسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم، وطلب منهم أن يختاروا من بينهم إثنا عشر نقيباً ليكونوا رؤساء على الناس وأختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس بايع هؤلاء النقباء الرسول ﷺ على السلم والحرب والزودة عنه وعن الدين الإسلامى بالمال والروح ومحاربة كل من يعارض الإسلام وقللوا راجعين إلى يثرب ودخل سادات يثرب إلى الإسلام وعدد كبير من أهلها، وكتبتم المسلمون أخبار هذه البيعة حتى لا تعلم بها قريش، لأن النبى ﷺ لم يكن قد أمره الله عز وجل بإستعمال السلاح للدفاع عن نفسه وإنما كان يأمرنا بالصبر والصفح عن الجاهل. (٢)

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٥؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٥٢؛ الطبرى: تاريخ

الرسول والملوك، ج ١، ص ٥٦٢.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٢٦٢؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٩٥ وما يليها.

وعندما تسرب خبر هذه البيعة إلى قريش جن جنونهم وقابلوا وفد يثرب بمكة ولكن هذا الوفد لم يكن ممن حضروا بيعة العقبة من المسلمين، فأقسموا لقريش أنه لا علم لهم بذلك، ثم تأكدت قريش من إبرام المعاهدة بين الرسول ﷺ وأهل يثرب ورجعوا مرة ثانية يبحثون عن وفد يثرب بمكة فوجدوه قد رحل عنها فانطلقوا في آثار أهل يثرب خارج مكة فلحقوا بهم وتمكنوا من القبض على سعد بن عبادة سيد الخزرج وقيدوه وآذوه حتى أطلق سراحه منهم جبير بن مطعم بن عدى لعلاقة طيبة بينه وبين سعد الذي رجع بسرعة عائداً إلى يثرب، ودبر ضرورة سرعة انتشار الإسلام بها ونصرة الرسول ﷺ.

هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى يثرب:

لما علمت قريش نبأ تحالف الرسول ﷺ مع عرب يثرب في بيعة العقبة الثانية، اضطربت اضطراباً شديداً، واشتد أذاها على المسلمين على المسلمين، فأذن الرسول لأتباعه بمكة في الهجرة إلى المدينة، وقال "إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها"، فتجهزوا إليها في ستر وخفاء وصاروا يتعاونون بالمال، وكان كل مهاجر من قريش وحلفائهم يستودع دوره وماله رجلاً من قومه فمنهم من حفظ الوديعة ومنهم من تصرف فيها وفق رغبته، وخرج المسلمون جماعة بعد جماعة، حتى لم يبق بالمدينة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق وعلى بن ابي طالب رضى الله عنهما ومن اعتقله المشركون كرهاً.

ولما بلغ قريش تأهب الرسول الهجرة إلى يثرب اجتمع رجالها بدار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره فاتفق رأيهم على قتله، فاعلنه الله بذلك وخرج من داره ليلاً بعد أن أمر على بن ابي طالب ﷺ أن ينام على فراشه وقابل أبا بكر الصديق وأخبره أن الله قد أذن له في الخروج من مكة، فطلب منه أن يصحبه في هجرته، فأجابته إلى ما طلبه ومضى به إلى غار بجبل ثور. (١)

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٣٦٩.

كانت قريش تترقب حركات الرسول ﷺ وانتدبت من تتبع أثره حتى وصل بعضهم إلى الغار، فأوجس أبو بكر خيفة وأخذ الرسول ﷺ يهدأ من روعه وإلى ذلك

يشير القرآن الكريم: ﴿...﴾

فلما مضت ثلاث ليالى على الرسول ﷺ وأبى بكر وهما بالغار وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتى إليهما كل مساء بالطعام والشراب وعبد الله بن أبى بكر يأتى إليهما كل مساء بالأخبار وماتريد قريش أن تفعل.

وفى اليوم الرابع ارتحل النبى وأبو بكر بعد أن أستأجر دليلاً يسمى عبد الله بن أريقط وصاحبهما أيضاً عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق إلى يثرب وصاروا فى طريق يثرب حتى بلغ ضاحية من ضواحيها تسمى قباء - على بعد ميلين من المدينة - فنزل الرسول ﷺ على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أربعة أيام وأسس بقباء مسجداً، ثم خرج يوم الجمعة راكباً ناقته فلما أتى بنى سالم صلى الجمعة بمن معه من المسلمين وهم إذ ذاك مائة وهى أول جمعة أقامها الرسول ﷺ فى الإسلام وألقى عليهم خطبة "بدأها بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه..." .

ركب الرسول ﷺ على راحته بعد صلاة الجمعة متوجهاً إلى يثرب وكان كلما مر على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم قائلين: يا رسول الله هلم إلى القوة والمنعة، فيقول خلو سبيلها (يعنى ناقته) فإنها مأمورة، ولم تزل ناقته سائرة به حتى أتت دار بنى مالك بن النجار وبركة في مرشد لغلامين يتيمين من بنى النجار، ثم نزل الرسول ﷺ عنها وحمل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري رحله وأضافه في داره، وأشترى الرسول المرشد بعشرة دنناير وأمر أن يبني في مكانه مسجد للمسلمين، ويبني إلى جانبه مساكنه التي انتقل إليها بعد أن استغرق بنائها سبعة أشهر قضاها في ضيافة أبي أيوب الأنصاري، ومنذ هاجر النبي ﷺ إلى يثرب أطلق عليها اسم المدينة وهو العام الذي هاجر فيه هو أول التاريخ الهجري. (١)

٣- قيام الدولة العربية الإسلامية في المدينة:

لم يضع النبي وقتاً منذ أن وطأت قدماه أرض يثرب التي سميت منذ ذلك الحين مدينة النبي، وعرفت فيما بعد باسم المدينة أو المدينة المنورة، وأخذ ينظم الحياة العامة في مجتمع المدينة ويرسم السياسة التي سوف يقدمها في نشر الإسلام داخل المدينة وخارجها.

وكما تحدثنا عن الدور المكي في نقاط محددة، يمكننا أن نتحدث عن الدور المدني في نقاط محددة أيضاً. وأولى هذه النقاط الجديرة بالبحث والدراسة هي الأسلوب الذي رسمه النبي لتنظيم الحياة العامة في المدينة.

١- تنظيم الحياة العامة في مجتمع المدينة:

كان أول ما فعله النبي في المدينة هو بناء مسجد اتخذ منه مكاناً للعبادة وإدارة دفة الأمور. فكان هذا المسجد بمثابة دار للحكومة الإسلامية، فيه تعقد الاجتماعات العامة، وتعقد مجالس الحرب، واتخذ أيضاً ميداناً للتدريب العسكري

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٤٠؛ عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل

على القتال، كما كان يتخذ أيضاً دار للقضاء وللاستقبال الوفود ولمعالجة جرحى المسلمين وتعليم القرآن، فهو مكان للصلاة والحكم والقضاء وشئون الجهاد. (١)

ولم يقيم النبي في المدينة حكومة بالمعنى المعروف اليوم، فلم يعين موظفين أو وزراء بالمعنى المألوف، إنما كان يكلف بعض الصحابة بمهام معينة يؤديونها، وبعد أدائها يعودون إلى ما كانوا عليه من تلقاء أنفسهم، وكان مستشاروه أيضاً ليسوا بموظفين، بل من خاصة الصحابة وأتقاهم مثل أبي بكر وعمر وغيرهما. وكان الرسول يرسل الوفود إلى الملوك والأمراء لدعوتهم إلى الإسلام، وبجيش الجيوش ويعقد اللواء للقواد من المسلمين في الغزوات التي لم يباشرها بنفسه، وكان يرسل أيضاً الحكام والولاة وعمال الصدقات إلى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة ليفقهوا الناس في الدين وليحكموا بينهم بالعدل ويسوسوهم بسياسة الإسلام. كل هذا يدل على أن الرسول مارس نشاطاً سياسياً واسعاً وضع فيه أساس أول حكومة إسلامية في المدينة، وأظهر به أمة من العدم. (٢)

وكانت الخطوة الحاسمة في تكوين الأمة الإسلامية هو ما بدأ به الرسول من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فصار لكل مهاجر أخ من الأنصار، يشركه في بعض ماله وداره، بل ويرث كل منهما الآخر، وذلك بقصد بث الطمأنينة في قلوب المهاجرين، وإبعاد الإحساس بالغربة عن نفوسهم، ولما عز الإسلام وانتصر المسلمون على أعداء الله في غزوة بدر، نزل قوله تعالى: "والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم، فأولئك منكم، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، إن الله بكل شيء عليم". فنسخت هذه الآية نظام التوريث بالمؤاخاة، ورجع كل مسلم يرثه ذوو قريابه فقط.

كما وضع النبي أسس التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع الإسلامي في المدينة وخاصة عندما فرضت الزكاة، فتيسرت سبل العيش على الفقراء من

(١) السهمودي: وفاء الرفا، ج ١، ص ٣٢٢.

(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٧٤.

المسلمين، وعين النبي في كل أرجاء شبه الجزيرة من يجمع الصدقات من الأغنياء ويردها على الفقراء، علاوة على أنه أذن للمعدمين ومن ليس له بيت يأويه أن يبيتوا في مسجد الرسول بالمدينة وكان يدعوهم لتناول الطعام معه أو مع أصحابه، وعرف هؤلاء الفقراء بأهل الصفة، لأنهم كانوا يقيمون بصفة المسجد، وهي المكان المسقوف فيه.

ونتيجة لذلك وجدت الأمة الإسلامية أول ما وجدت في المدينة تلك الأمة التي قامت على أساس من الدين، وليس على أساس من العصبية القبلية والنسب، ذلك أنها ضمت المهاجرين والأنصار، وكانوا مختلفين نسبا وأصلاً، فالمهاجرون من عرب الشمال من ولد عدنان، والأنصار من عرب الجنوب من ولد قحطان، كما أنها ضمت المشركين الذين لم يدخلوا الإسلام بعد في المدينة، وكذلك اليهود الذين كانت لهم نفس الحقوق والواجبات، وبصفة عامة شملت الأمة الإسلامية كل من تبعها وحارب معها أو عاهدها من سكان المدينة سواء كانوا قرشيين أم انصاراً، مسلمين أم مشركين، منافقين أم يهود.

وكان هدف هذا الاتحاد الذي أوجده النبي بين تلك العناصر والطوائف هو توفير الأمان للناس في المدينة وتوفير الحماية لهم ضد أي عدوان خارجي عليهم، وكان هذا الأمر يقتضى تنظيماً معيناً يحدد الحقوق والواجبات لكل عشيرة أو طائفة أو جماعة من سكان المدينة، فكتب الرسول كتاباً بين فيه ذلك. وقد ورد نص هذا الكتاب أو الصحيفة عند ابن اسحاق، وعنه نقله ابن هشام، ويتضمن النواحي الآتية:

أولاً: إرساء مبدأ الوحدة الإسلامية:

فالمسلمون أمة واحدة "فهم أمة واحدة من دون الناس، كما نصت الصحيفة، وقد أتسع مدلول لفظ الأمة في هذه المرحلة المبكرة ليشمل العرب، مسلمين ووثنيين، ويشمل اليهود المقيمين في يثرب أيضاً.

ثانياً: تنظيم العلاقة بين المسلمين في المدينة:

- ١- فلا يتحالف بعضهم ضد البعض الآخر، يفهم هذا من قول النبي في الصحيفة، "لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه". وبذلك قضى النبي على المحالفات القبلية التي كانت تحدث بين القبائل ضد بعضها البعض قبل الإسلام، لأن هذا يتنافى مع مبدأ الوحدة الإسلامية.
- ٢- التضامن والتعاون بين أفراد الجماعة الإسلامية لأن "المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وهذا التعاون مطلوب أيام السلم وأيام الحرب. فكل جماعة تقدى أسيرها" ولا ينصر أحد كافرا على مؤمن.
- ٣- تنظيم مسائل السلم والصلح مع الأعداء فلا يحل لبعض المسلمين أن يسالموا أعداءهم دون البعض الآخر "فسلم المؤمنين واحدة" حتى لا يضرب العدو المسلمين ببعض في المدينة.
- ٤- التعاون ضد من يعتدى على المدينة فسكانها "بينهم النصر على من دهم يثرب".
- ٥- يتكافل المسلمون جميعا ضد من ظلم أو اعتدى أو أفسد ولو كان ابن أحدهم "وهم عليه كافة ولا يحل لهم إلا القيام عليه" حتى يؤخذ الحق منه، وبذلك ينقل الإسلام مشروعية العقاب وحق التأديب من القبيلة إلى الجماعة أو الأمة وذلك لتوفير الأمن والأمان في المدينة.
- ٦- عدم نصره وعدم إيواء من يرتكب جريمة، فلا جوار لظالم أو معتدى أو مجرم "فلا يحل لمؤمن أن ينصر محدثا (مرتكبا لجريمة) ولا يؤويه، وأن من نصره أو آواه فعليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة.
- ٧- من ارتكب جريمة قتل، فعليه القصاص إلا إذا رضى ولى القاتل بالدية، والمسلمون جميعا على القاتل حتى يقتص منه لأنه "من اعتبط (قتل بلا ذنب) مؤمنا قتلا عن بيعة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه".

٨- ولضمان تحقيق ذلك أسندت الصحيفة السلطة القضائية للنبي، لأنه "ما كان من بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساد، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله، وبذلك نزع الرسول سلطة القضاء من رؤساء القبائل وركزها في شخصه أو فيمن ينيبه عنه في أنحاء الجزيرة المختلفة، حتى يضمن تنفيذ شرع الله وحكمه في أية قضية من القضايا. (١)

ثالثاً: تحديد العلاقة مع قريش:

١- منع مشركى المدينة من إجارة مشركى مكة، وعدم منع المسلمين عنهم، فلا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن".
٢- منع المسلمين فى المدينة من إجارة قريش أو حلفائها "فلا تجار قريش ولا من نصرها.

٣- لقريش وحلفائها حق الصلح إذا طلبوه إلا من حارب منهم دين الإسلام. "فإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين..."
رابعاً: تنظيم العلاقة مع اليهود فى المدينة:

١- إقرار الحرية الدينية لليهود المدينة "قلليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته".
٢- يتمتع اليهود بالمساواة التامة مع المسلمين فى الحقوق والواجبات "وانه من تبعنا عن يهود" فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم".
٣- يقوم اليهود بتمويل أنفسهم عند قتال من يعتدى على المدينة بل ويتكافل ويتضامن الطرفان (اليهود والمسلمون) فى الأنفاق حتى النصر ضد من يحارب أهل المدينة حسب نص الصحيفة "وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة".

(١) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٥٠١-٥٠٤.

٤- التعايش السلمى بين الطرفين، تعايشا يقوم على الإخلاص والنصح وعدم الغش والخداع والتآمر، لأن يهود المدينة أمة مع المؤمنين "فيهود بنى عوف أمة مع المؤمنين" وعدد الرسول اليهود الموالين للقبائل العربية الأخرى من غير بنى عوف وقال عنهم أنهم أمة مع المؤمنين، حتى يضمن وحدة الجهة الداخلية، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الآثم، والنصر للمظلوم، حتى تأتى تلك الوحدة السياسية على أسس واضحة قويمه يمكن على أساسها محاسبة من يخون ويغدر. (١)

هذه هى النظم التى وضعها الرسول لتنظيم الحياة فى المدينة التى نتج عنها قيام مجتمع قوى يعرف كل فرد فيه حقوقه وواجباته، وقيام أمة ودولة فتيحة استطاعت أن تتجاوز قريشا وبقية العرب رغم كثرة عددهم وقلة عددها وعدتها وأن تتغلب عليهم ونلاحظ فى هذا الصدد أن معظم النظم أو المبادئ التى وردت فى الصحيفة جاء بها القرآن الذى أقر المساواة بين الناس جميعا وقضى على الفوارق الجنسية والاجتماعية التى مزقت العرب قبل الإسلام فقد ورد فى سورة الحجرات "يا أيها الناس إنا خلقناكم من نكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" إن الله عليم خبير".

وقوله عليه الصلاة والسلام: "كلكم لأدم، وأدم من تراب، وأنه" لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى"، وهكذا أصبح الدين والانتساب إليه، وليس الجنس أو العنصر أو النسب أو العصبية، هو المرجع الوحيد فى تحديد العلاقات بين الحكومة والشعب، وبين الناس بعضهم بعضا.

أما ما يقوله بعض المستشرقين من أمثال فلهوازن من أن مبدأ الوحدة والمؤاخاة والمساواة لم يطبق فى عهد الرسول ﷺ وأنه "بقى المهاجرون على حدتهم، وبقى الأنصار على حدتهم وبقيت قبائل اليهود فى المدينة على حدتها، وبقى التابع تابعا والمولى مولى والنزىل نزىلا، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام، وأن اليهود لم يكن

(١) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٥٠١-٥٠٤.

لهم نفس الحقوق ولا تقع عليهم نفس الواجبات، وأنه على ذلك بقى ما يشبه التمايز العربى القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل". (١)

واضح أن كل هذا الكلام الذى تابعهم فيه أو فى بعض معناه بعض المؤرخين المسلمين المحدثين ليس له من هدف إلا نفى فكرة الوحدة وفكرة الأمة وفكرة المساواة التى نادى بها رسول الله ﷺ وطبقها فعلا عقب هجرته إلى المدينة، فليس هناك أوضح من القول من أن "اليهود أمة مع المؤمنين، وليس هناك أوضح من المساواة فى شكلها الإنسانى غير المسبوق والذى عرف بالمؤاخاة حيث كان المهاجر والأنصارى يرث كل منهما الآخر.

ويدعى هذا الفريق من الكتاب أيضاً بأن هذا التمايز وعدم الاندماج بين سكان يثرب الذى أشاروا إليه، هو الذى أجبر فريقاً من المشركين من أهل يثرب على الدخول فى الإسلام، وخاصة بعد ان اتبع الإسلام سياسة الإرهاب بعد انتصاره فى بدر كما يقول فلهوزن "للم يسمح للمشركين بأن يبقوا داخل الأمة على شركهم كما كان الحال حتى ذلك الحين، وكان لابد لهم تحت ضغط الظروف من أن يعتنقوا الإسلام". (٢)

والحقيقة أنه لم يكن هناك إرهاب بعد النصر فى بدر، بل كان هناك استعداد للدخول فى معركة ثانية مع قريش، والاستعداد لا يبيح للحاكم أياً كانت سياسته واتجاهه أن يرهب فريقاً من رعيته هو فى أشد الحاجة إليهم، كما أن مشركى يثرب لم يتحولوا إلى الإسلام عقب النصر فى بدر كما أدعى فلهوزن، فقد بقى معظمهم على الشرك حتى بعد غزوة الخندق، أى حتى العام الخامس للهجرة.

أما ما كان يقوم به كل فريق من المسلمين أنصاراً ومهاجرين، أو من اليهود من دفع الديات أو فداء الأسرى إذا ما اعتدى واحد منهم على آخر أو

(١) أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى، ج ١، الطبعة الخامسة، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٧٨.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج ١، ص ٨٩.

اعتدى على أحدهم من خارج يثرب الأمر الذى اتخذه فلهوزن دليلا على عدم وجود الوحدة والمساواة واتخذ منه بعض المؤرخين المحدثين دليلا على اعتراف الصحيفة بالوجود القبلى داخل دولة المدينة، نقول أن هذا الأمر لم يكن إلا لأن دولة المدينة فى عهد الرسول ﷺ لم يكن لها فى البداية أو فى تلك الفترة بالذات وهى الشهر الأول من أول عام للهجرة بيت مال يمكن أن تدفع منه الرايات أو الفداء من الأسر ولما تم تنظيم الدولة فى عهد الخلافة الراشدة وصار لها بيت مال أصبح هذا العب، يقع على كاهل الدولة وليس على الجماعات أو الأفراد، وكما أشرنا فههدف فلهوزن وأمثاله واضح فى إنكار ما أقامه الرسول ﷺ من أساس مكين لأمة إسلامية موحدة قوية، فتكريس الانفصال والفرقة هدف أساسى من أهداف هؤلاء. (١) يضاف إلى ذلك أن مناقشة هذا الأمر لا تتم على ضوء "الصحيفة التى وردت فى مصدر تاريخى واحد هو ابن إسحاق وعنه نقل ابن هشام، بل يجب أن تتم هذه المناقشة بجانب ذلك- فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية التى اشتملت على عدد كبير من الآيات والأحاديث النبوية التى تدل على مبدأ الوحدة والمساواة والأخوة وعدم التمييز بين الناس على أساس المال أو الطبقة أى المنزلة الاجتماعية، بل على أساس التقوى والعمل الصالح وهو الأساس الذى طبقه الرسول منذ نادى بكلمة التوحيد وطبقه معه المسلمون سواء فى مكة أو المدينة مما أوجد أمة إسلامية قوية موحدة.

وبعد أن اطمأن الرسول ﷺ إلى قيام الأمة الإسلامية فى المدينة وإلى جمع شمل العرب والمسلمين واليهود بها فى وحدة واحدة وجه أنظاره إلى نشر الإسلام خارجها، خاصة بعد أن فرض الله عليه الجهاد. ولم يشرع الله الجهاد للعدوان أو الاعتداء على الناس أو لنشر الإسلام بحد السيف كما يقول بعض المستشرقين وإلا لكان ما قاله ميور وغيره من المستشرقين من أن السيف والقرآن أكثر أعداء

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٦٩؛ عبد العزيز سالم: تاريخ العرب

الحضارة والحرية صحيحا، فالسيف فى نظرهم هو وسيلة الدعوى، والقرآن عندهم وكما قال شاتو بريان لا يحت على مقت الاستعباد والطغيان ولا يحت على حب الحرية، والجهاد فى رأيهم لم يكن إلا للقضاء على اليهود والمسيحيين بوصفهما أعداء الإسلام كما قال ماسينيون. (١)

فالجهاد لم يكن ضد مسيحيين أو يهود، وكما سبق أن رأينا فقد عاقد الرسول اليهود وعاهدهم على أنهم أمة مع المؤمنين لهم مالهم وعليهم ما عليهم، كما عاهد النصارى فى نجران وغيرها وكفل لهم حريتهم الدينية كاملة، وأرسل ملوك النصارى فى بلاد الروم ومصر والحبشة، ولم يطلب منهم إلا الإيمان بالله وحده، كما أن القرآن لم يدع إلى طغيان أو استبعاد، بل هو فى جوهره دعوة إلى الحرية الخالصة، دعوة إلى تحرير الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد حتى يتساوى الناس جميعا أمام إله واحد خالق تخضع له البلاد ملوكا وحكاما ومحكومين، فلا يخز الإنسان ساجدا إلا لله وحده، والسيف لم يكن للإكراه على الدخول فى الإسلام لأن هذا يتنافى مع مبادئ الإسلام نفسه فقد ورد فى القرآن أنه "لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى"، "إنك لا تهدى من أحببت"، "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟" (٢)

كما أن سير الأحداث التاريخية ينقض هذه الدعوى من أساسها، فالرسول استمر يدعو الناس فى مكة بالموعظة الحسنة وبالإقناع طيلة ثلاثة عشر عاما، لم يرفع فيها سيفاً، ولم يجرّد سلاحاً سوى كتاب الله، فأمن بعضهم وكانوا قلة، وبقيت الأغلبية فى مكة على دينها القديم، وكان النبى ﷺ يعرض نفسه على الناس والقبائل فى مواسم الحج، فأمن بعضهم ورفضه آخرون، وذهب إلى الطائف وعاد منها بعد أن ناله كثير من الأذى.

(١) أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى، ج ١، ص ١٨٠.

(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٨٥.

ولما انتشر الإسلام وأصبحت الجزيرة كلها إسلامية اتصل النبي ﷺ بالدول المجاورة، وأرسل لها السفارات والكتب يدعوها إلى الإسلام، ولم يرسل لها جيوشاً أو أساطيل تهددها وتفرض عليها ما تأباه.

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده، فلم يحاربوا شعوب الشام والعراق ومصر، وإنما حاربوا محتليها من الفرس والرومان، وأخرجوهم من تلك البلاد، وتركوا بعد ذلك لشعوبها حرية الاختيار بين الإسلام أو البقاء على دياناتها القديمة، وعقدوا معها معاهدات تنظم ذلك^(١)، ولو كان هناك إكراه على الدين لما كانت هناك اقلية دينية غير إسلامية ظلت موجودة في العالم العربي والإسلامي حتى اليوم، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الجهاد لم يشرع لأن الرسول أراد أن يوفر الطعام اللازم لإطعام المهاجرين الذين كانوا قد وفدوا على المدينة من مكة كما قال بذلك ول ديورانت، أو لأن المهاجرين شكلوا عبئاً على إخوانهم الأنصار الذين تطوعوا لإعالتهم كما قال بذلك الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد، بل أن الجهاد شرع لتحقيق أهداف أخرى سامية غير هذه الإدعاءات، من هذه الأهداف:

١-الدفاع عن النفس، وفي ذلك يقول تعالى في سورة البقرة: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين".

٢-رد الظلم واسترجاع الحق بمحاربة الذين اضطروهم للهجرة وأجبروهم على الخروج من بلدكم مكة ظلماً وعدواناً، وفي ذلك يقول تعالى في سورة الحج "إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله".

٣-تأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف في سبيلها أو يحاول أن يفتن المسلمين عن دينهم، يفهم هذا من قوله تعالى في سورة البقرة، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله".^(٢)

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ١، ص ٨٨.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٤٩٨.

٤- تأديب الخائنين والناقضين للعهد، مثلما حدث من يهود المدينة حينما خانوا الرسول، ونقضوا عهدهم معه وانضموا إلى مشركى مكة لقتال الرسول، يفهم هذا من قوله تعالى فى سورة الأنفال: "وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين" ومثلما حدث من قريش حينما نقضت صلح الحديبية وساعدت بنى بكر ضد خزاعة حليفة الرسول، فنزل قوله تعالى فى سورة التوبة "وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة". (١)

وهكذا ترى أن الجهاد فى الإسلام لم يشرع إلا لتحقيق أهداف دفاعية فى المقام الأول ولم ينفرد الإسلام بطلب الجهاد أو القتال من أتباعه فقد شرعت الحرب فى غير الإسلام من الأديان، وإن كانت أهدافها فى هذه الأديان غيرها فى دين الإسلام، ففى التوراة المتداولة بين اليهود ما يفيد بأن الحرب كانت أمراً مقررأ، إذ أنها تنص أن "الله فرض عليهم أن لا يتركوا من الأمم السبعة الذين كانوا سكانا فى فلسطين والأردن أحد أصلاً إلا قتلوه" وفيها أن الرب يأمرهم بحرب المدن ودعوة أهلها إلى الصلح أولاً، فإن أجابوا إلى ذلك فأهلها عبيد للقاتلين وإن لم يستجيبوا، فالرب يأمرهم بأن يحاصروها "ويضربوها جميع نكورها بحد السيف" أما باقى السكان والبهائم فهم غنيمة لهم، كما أمرهم الرب بألا يبقوا على نسمة فى مدن الحيثيين والكنعانيين.

وكذلك فإن الإنجيل المتداول بين النصارى، يأمر المسيح فيه أتباعه بالحرب كما سبق القول، فقد قال لهم أنه ما جاء ليلقى سلاماً وإنما جاء ليلقى سيفاً. فأهداف القتال كما ترى عند أصحاب هاتين الديانتين غيرهما عند المسلمين، وهى فى الإسلام بغرض الدفاع، وفى غير الإسلام بغرض السيادة والتسلط والاستعباد، ورغم ذلك لم يسلم الإسلام من الطعن والتشكيك فى أهداف ما شرع من جهاد. (٢)

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج ١، ص ٨٩.

(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٨٦.

وقد أعطى هذا الجهاد للمسلمين - بجانب ما ذكرنا من أهداف صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل، ذلك أنه اعتبرهم أمة، وعلى هذه الأمة أن تذود عن الإسلام والمسلمين وتحدد علاقاتها بالآخرين، وبذلك اكتملت الصفات التي لا بد أن تتوافر لقيام أى دولة. فهناك جماعة أو أمة المسلمين وغيرهم فى المدينة، على رأسها حكومة من النبي ﷺ وكبار الصحابة تعيش على أرض محددة أو وطن خاص بها هو المدينة ولها قانون يحكم وهو كتاب الله وسنة نبيه، ولها نظامها الداخلى الذى نظمته الصحيفة ولها أيضاً سياستها الخارجية التى أشارت إليها آيات الجهاد فى القرآن. وقد حددت هذه الآيات موقف النبي ﷺ من قريش وغيرها من القبائل والأمم، ورسمت سياسة النبي ﷺ فى التعامل معها بقصد نشر الإسلام والقضاء على الوثنية. وبذلك نصل إلى النقطة الثانية فى حديثنا عن الدور المدنى، وهو موقف النبي ﷺ من قريش بمكة. (١)

٢- موقف النبي من قريش وقبائل بلاد الحجاز:

من هذا المنطق بدأ الرسول ﷺ يعد العدة لنشر الإسلام بين القبائل العربية وصد أى اعتداء يقع على المسلمين، واسترجاع حقوقهم فى مكة. وكان هؤلاء قد تركوا أموالهم وأراضيهم ودورهم، فتصرف فيها مشركو مكة دون وجه حق، ولتحقيق ذلك وجه الرسول ﷺ جهوده لاستمالة القبائل المقيمة على الطريق بين مكة والمدينة وحالف معظمها، واستطاع أن يهدد القرشيين فى تجارتهم التى كانت تمر فى ذلك الطريق، وكان الرسول يعرف مدى حرص القرشيين على تجارتهم وعلى توفير الأمان والطمأنينة للطرق التى تمر بها، فهى مصدر ثروتهم ورزقهم الوحيد. لذلك كان نجاح الرسول ﷺ فى هذا المضمار كبيراً. وانتقل الرسول بعد ذلك إلى نشاط إيجابى أكثر حقق له أهدافه فى النهاية، فتلاقى مع قريش فى عدة مواقع أشهرها موقعة بدر وأحد، والخندق وصالحها فيما يعرف بصالح الحديبية ولما نقضته قريش

(١) رشيد عبد الله الجميلى: تاريخ العرب، مطبعة الرصافى، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٧٦م،

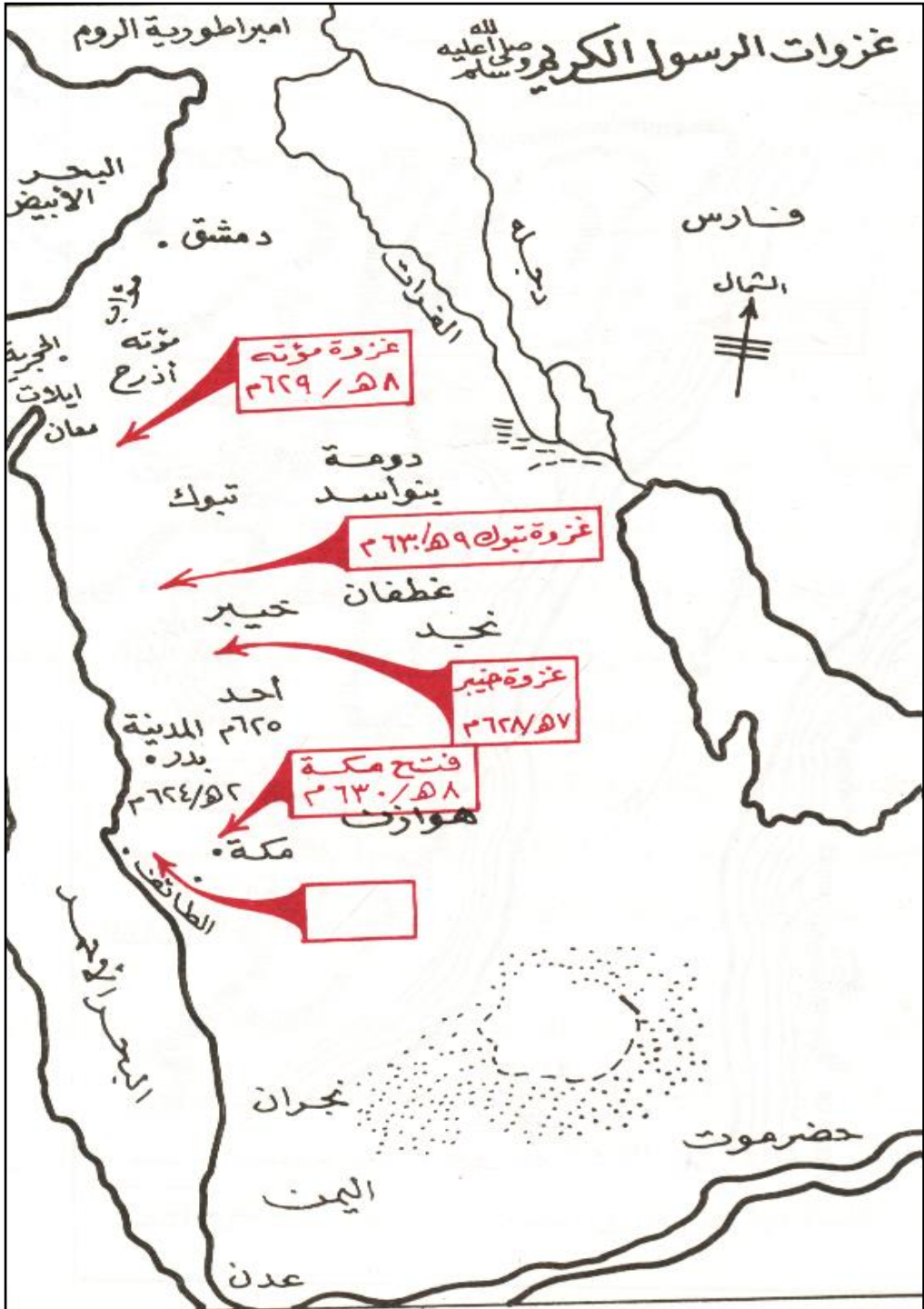
زحف الرسول ﷺ إليها في عشرة آلاف من المسلمين وانتهى الأمر بفتح مكة وإسلام أهلها عام ٨هـ. وعلينا أن ندرس تلك الأحداث في شيء من التفصيل.

الفصل الثالث

الصراع بين مكة والمدينة

- غزوة بدر سنة ٢هـ.
- غزوة أحد سنة ٣هـ.
- غزوة الأحزاب (الخدق) ٥هـ .
- صلح الحديبية سنة ٦هـ.
- غزوة مؤتة ٨هـ.
- فتح مكة ٨هـ.
- غزوة حنين والطائف ٨هـ.
- غزوة تبوك سنة ٩هـ
- عام الوفود ٩هـ
- حجة الوداع سنة ١٠هـ.

غزوات الرسول ﷺ



الفصل الثالث

الصراع بين مكة والمدينة

غزوة بدر: (١٧ رمضان ١٤/هـ ١٤ مارس ٦٢٤م):

سبق تلك الغزوة بشهرين سرية أرسلها الرسول ﷺ في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، تضم ثمانية من المهاجرين، وعلى رأسها عبد الله بن جحش وأمره أن يتبع تعليماته في كتاب أمره ألا يفرضه إلا بعد مسيرة يومين وكانت هذه التعليمات تقضى أن تنزل تلك السرية في مكان يسمى نخلة بين مكة والطائف، وأن ترصد أخبار قريش. (١)

نفذت السرية ما طلب منها لكنها تجاوزت، إذ هاجمت قافلة صغيرة لقريش كانت تضم ثلاثة رجال من قريش ورابعا يمينا، فقتلت اليمنى وأسرت رجلين وفر الرابع، وعادت بالأسرى والغير إلى المدينة. لكن الرسول ﷺ امتنع عن أخذ الغنيمة والأسرى لأن ابن جحش خالف أوامره وقاتل في الشهر الحرام. وانتهز اليهود تلك الفرصة وشنعوا على المسلمين كما انتهزتها أيضا قريش، وأعلنت على القبائل أن محمداً استحل الدم الحرام في الشهر الحرام، فأسقط في يدي ابن جحش وأصحابه.

لكن الله أنزل قرآناً يجيز ما فعله ابن جحش، فقال تعالى في سورة البقرة "

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا ذُرِّيَّتِي طَاهِرَةٌ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُقَالُ ذُرِّيَّتِي طَاهِرَةٌ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُقَالُ ذُرِّيَّتِي طَاهِرَةٌ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا ذُرِّيَّتِي طَاهِرَةٌ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُقَالُ ذُرِّيَّتِي طَاهِرَةٌ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا ذُرِّيَّتِي طَاهِرَةٌ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُقَالُ ذُرِّيَّتِي طَاهِرَةٌ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾

ندب الرسول ﷺ نفرأ من المسلمين للوقوف على أخبار قافلة لقريش يقودها أبو

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ١، ص ١٠٥.

سفيان بن حرب بن أمية، وكانت قادمة من الشام إلى مكة، وكان هذا هو السبب المباشر لغزوة بدر الكبرى. (١)

ذلك أن أبا سفيان أرسل إلى قريش يخبرها بتعرض المسلمين لتجارتها وفي نفس الوقت اتخذ أبو سفيان لقاقلته طريقاً آخر على ساحل البحر حتى نجا بها، وأرسل إلى قريش يخبرها بذلك ويطلب منها العودة إلى مكة وكانت قريش قد تملكها الغضب من المسلمين واشتد بها الخوف على تجارتها وخافت أن تلاقى مصير القافلة السابقة، لذلك أرادت أن تظهر لمحمد مدى قوتها، فزحفت في جيش يبلغ عدده ما بين التسعمائة والألف، بينما كان الرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار في عدد قليل لا يزيد عن ثلاثمائة وخمس رجال.

عقد الرسول ﷺ مجلس الحرب لأخذ الرأي والمشورة، لأنه أراد أن يستوثق من الأنصار وكان قد عاهدهم على الدفاع عنه داخل بلدهم يثرب وفي هذا المجلس أيد الأنصار خطته في حرب قريش والتصدي لعدوانها وقالوا له فيما قالوا: "لو خضت بنا هذا البحر لخصناه معك ما تخلف منا رجل واحد". عندئذ تقدم الرسول وجيشه ونزل عند ماء من بدر، فأشار عليه أحد الصحابة "الحابب بن المنذر" فنفذ الرسول مشورته، وأمطرت السماء في تلك الليلة مطراً غزيراً ناحية معسكر قريش، فأعاقت خيلهم عن سرعة الحركة، ورذاذا خفيفاً ناحية معسكر المسلمين، فساعدت إبلهم على سرعة التحرك، وأصاب المسلمين النعاس ليلة المعركة فأصبحوا في أتم نشاط وعافية، بينما باتت قريش قلقة ساهرة: وكان النظام يسود جيش المسلمين الذي كانت قيادته العليا لشخص واحد هو النبي ﷺ، بينما لم تتوافر هذه الميزة الهامة لجيش قريش، فلم تكن له قيادة عليا موحدة بعد أن ظهر الخلاف بين زعماء قريش في مكة بعد أن نجحت قافلته وأموالها، بينما كان أبو

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط، ص ٦٣؛ ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٦٠٤-٦٠٤؛ الطبري:

تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٤١٣-٤١٤؛ عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠٣-

جهل يصير على الزحف حتى بدر كى يسمع العرب بذلك فيزدادون لقريش هيبة ووقاراً، وقد حاول عتبة بن ربيعة أحد سادة قريش ان يثنى أبا جهل عن موقعه ويعود بقريش إلى مكة كما أشار بذلك أبو سفيان، وخاصة بعد أن سمع عتبة ما قاله عمير بن وهب الجمحي عن المسلمين الذين كان قد اقترب منهم ليتعرف على استعدادهم وعدهم، من أنهم "البلايا تحمل المنايا، نواضح (إبل) يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم إلخ". وكان عتبة وغيره من زعماء قريش يخشون إلى جانب تصميم المسلمين على القتال والدفاع عن دينهم وأنفسهم، غدر بنى بكر (من كنانة) وأن يهاجم هؤلاء من خلفهم إذا ما اشتبكوا مع المسلمين انتقاماً لدماء وثورات كانت بينهم وبين بنى بكر قبل بدر، ولكن أبا جهل رفض ذلك كله وأثار عتبة واتهمه بأنه ما يقول ذلك إلا لأنه يخاف على ابنه أبا حذيفة الذى كان بالتأكيد ضمن جيش المسلمين. (١)

ونتج عن هذا الخلاف فى الرأى الذى ساد زعماء قريش أن عادت بعض القبائل إلى مكة دون أن تشترك فى قتال المسلمين. مثال ذلك بنو زهرة وبنو عدى بن كعب. هذا فى الوقت الذى كان المسلمون يشتعلون حماساً وفداية وشوقاً إلى لقاء العدو حتى إنهم قالوا للنبي ﷺ: "والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك".

وقد صدق المسلمون فى ذلك كل الصدق، فكانوا يندفعون إلى القتال طلباً للشهادة والجنة، فقد رمى عمير بن الحمام، أخو بنى سلمة ببضع تمرات كان يأكلها وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل بعد أن سمع من النبي ﷺ أنه ليس بين الجنة وبين النار إلا الشهادة. كما نزع عوف بن الحارث بن عفراء درعا كان يلبسها عندما سمع من

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ١١٠، ١١١؛ عبد العزيز سالم: تاريخ

النبى ﷺ أن الله يضحك من عبده سروراً به عندما يغمس يده فى العدد حاصراً،
وقاتل حتى قتل. (١)

وقد بلغت حماسة المسلمين وإخلاصهم لله ولرسوله أن كان بعضهم
يتعرض لأقرب الناس إليه فلا يتردد فى قتله. من ذلك أن عمر بن الخطاب قتل
بيده خاله العاص بن هشام بن المغير، وقتل على بن أبى طالب ﷺ وحمزة بن عبد
المطلب كثيراً من بنى عمومتها من بنى عبد شمس وبنى أمية، وغيرهم من أقرب
الناس إليهم، فقتل على بن أبى طالب ﷺ على سبيل المثال نوفل بن خويلد، أخو
خديجة وخال فاطمة الزهراء رضى الله عنهما، ولما صاح به نوفل أن يكف عنه
لأنه أخو خديجة وخال فاطمة قال له على: لا قرابة بين مشرك ومسلم وقتل أبو
عبيدة بن الجراح أباه فى غزوة بدر، وقال له وهو يطعنه: خذها فى سبيل الله، بعد
أن رأى أبو عبيدة حرص والده على قتله، ونادى أبو خديفة بن عتبة بن ربيعة ابن
عبد شمس أباه للخروج لمبارزته، ولما قتل أبوه خلال المعركة ووجده النبى كئيباً
حزينا قد تغير لونه، فسأله عما إذا كان هذا الحزن بسبب مقتل أبيه، نفى أبو
خديفة ذلك وقال للنبى ﷺ إنه كان يرجو أن يهدى الله أباه للإسلام، وأنه لم يحزن إلا
لموته على الكفر. (٢)

كما طلب عبد الله بن عبد الله بن أبى سلول من النبى أن يسمح له بأن
يقتل أباه بعد أن عرض بالنبى ﷺ وأظهر نفاقه فى غزوة بنى المصطلق ولكن
النبى ﷺ رفض وقال له. "بر أباك وأحسن صحبتته".

تضحية وفداء وإيثار وفدائية وحب وإخلاص تام لله ورسوله، دعمه مدد

السماء من تأييد الله لهم بالملائكة، يبين ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ سُوءِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، كَذَلِكَ يُضِيئُ اللَّهُ لِلرَّسُولِ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ، وَهُوَ يَصْرِفُ السُّوءَ وَالظُّلْمَ إِلَىٰ أُولِي الْأَلْبَابِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٩.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج ٣، ص ٢٠١-٢٠٢.

أبو لهب فقد مات غماً وكمداً بعد أن سمع بنتيجة المعركة وغنم المسلمون كثيراً من الإبل والخيول والسلاح، ولم يستشهد منهم سوى أربعة عشر فقط. (١)

وكان لهذا الانتصار في هذه المعركة نتائج هامة: دينية وسياسية ومعنوية ومادية وحربية أما النتائج الدينية والسياسية، فتتمثل في دخول كثير من المشركين في الإسلام.

ومن النتائج السياسية الهامة إصابة اليهود بضربة قاصمة، فقد ضعفت شوكتهم وقل شأن أنصارهم من المنافقين، وعلت كلمة المسلمين حتى أصبحت لديهم القدرة على معاملة هذا الخطر الداخلى إذا ما كثر عن أنيابه وأظهر عدوانه وحقده، وبالنسبة لقريش فقد أصبحت تخاف كساد تجارتها أكثر من ذى قبل بعد أن انتصر المسلمون وأصبحوا قوة لها بأسها وخطرها، ولذلك اضطرت قوافلها بعد بدر أن تسلك طريق مكة - العراق البعيد عن يثرب وتهجر طريق مكة - الشام الذى أصبح المسلمون يهددونه تهديداً قوياً. ورغم لجوئهم إلى الطريق الجديد إلا أن المسلمين لاحقوهم فيما يعرف بغزوة القرظة في جمادى الآخرة عام ٣هـ/ديسمبر ٦٢٤م حيث هوجمت قافلة لقريش، غنم المسلمون منها مغانم طائلة، وبذلك عز الإسلام وزادت قوته كثيراً عن ذى قبل. (٢)

وتتمثل النتائج المعنوية والعسكرية في أن المسلمين ازدادت ثقتهم بأنهم على الحق، وأن خصمهم على الباطل، وزادهم هذا يقيناً وثباتاً على دينهم، واندفاعاً واستجابة لأوامر رسول الله ﷺ في التصدى لقريش ومن لف لفيها من المشركين. فنرى الرسول لم يمكث في المدينة بعد غزوة بدر أكثر من سبع ليال حتى غزا بنفسه بنى سليم فيما يعرف بغزوة قرارة الكور في شوال ٢هـ/٦٢٤م، وكان بنو سليم وغطفان قد تجمعوا يريدون المدينة. ثم لاحق النبي ﷺ أباً سفيان بن حرب فيما يعرف بغزوة السويق في ذى الحجة من نفس العام نظراً لاعتداء أبى سفيان على

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٢١٠.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٤٤٧-٤٤٩.

بعض المسلمين وقيامه بقتلهم ظلماً، ثم غزا النبي ﷺ نجدا يريد غطفان فيما يعرف بغزوة ذي أمر في شهر ربيع الأول عام ٥٣هـ / سبتمبر سنة ٦٢٤م وكانت غطفان قد جمعت للإغارة على أطراف المدينة. ثم خرج إلى قريش وبنى سليم في شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى من نفس العام فيما يعرف بغزوة الفرع بين بحران بالحجاز.

أما النتائج المادية فتتمثل في حصول المسلمين على كثير من الأموال والسلاح والخيول والأسرى، وهى الغنائم التى عادوا بها واختلفوا فى توزيعها، فنزلت آيات القرآن توضح عليهم وتشرع لهم.

وبذلك نصل إلى النتائج التشريعية، وقد نزلت فى الغنائم هذه الآية فى

سورة الأنفال: "            . الأنفال آية ٤١.

أما الأسرى، فقد قتل بعضهم من شديدى العداوة للرسول مثل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط، وقبل الرسول الفدية من البعض الآخر، ومن الرسول على البعض الآخر وأطلق سراحه دون فداء بسبب فقرهم، وكلف البعض ممن يجيد الكتابة بتعليمها لأولاد المسلمين نظير إطلاق سراحهم. وقد عاتب الله نبيه بقوله فى

سورة الأنفال: "   . الأنفال آية ٤١.

من قتل جميع الأسرى، وكان عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ قد أشارا بذلك فقال
 النبي ﷺ "والله لو نزل بنا عذاب ما نجا منه إلا عمر وسعد بن معاذ" وأوضح أن
 الهدف من قتل جميع الأسرى هو إرهاب المشركين حتى لا يفكروا في العدوان على
 المسلمين مرة أخرى. (١)

ولما عز الإسلام وقويت شوكة المسلمين، نزلت آية أخرى في شأن الأسرى
 تقضى بالمن عليهم وإطلاق سراحهم أو أخذ الفدية منهم دون قتلهم، فقال تعالى في
 سورة محمد:

هناك الدروس المستفادة من مواقف الرسول قبل المعركة وأثناءها مثل عقده
 مجلساً للتشاور مع أصحابه ورجاله ثم قبوله رأى الحباب بن المنذر وهذا يدل على
 ديمقراطية حقيقية، وعلى حب الاستفاضة من جميع الآراء مهما كان أصحابها من
 أبسط الناس. وهناك أيضاً قيامه صلى الله عليه وسلم بضرب المثل لجنوده في
 الشجاعة و الإقدام فلم يتوان لحظة عن مباشرة القتال بنفسه حتى كان أشجع

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٨٤.

الشجعان، وكان المسلمون يحتمون به إذا ما اشتد عليهم القتال وأصابهم اليأس، فما يكون أحد أقرب إلى المشركين منه. (١)

وبعد انتهاء المعركة لم يكن هناك من هو أرق قلباً وأشد رحمة بالأسرى منه. فقد مال إلى الرأي الذى أشار بعدم قتلهم وقبول الفداء منهم والمن على فقرائهم. وكان يوصى أصحابه بهم بعد أن وزعهم عليهم حتى إن بعض الصحابة كانوا يخصون الأسرى بالخبز ويأكلون هم التمر. ولما أشار عليه عمر بن الخطاب بأن يسمح له بأن يقوم وينتزع ثيبتى سهيل بن عمرو السفليتين حتى لا يقوم خطيباً بعد ذلك ويحرض الناس على النبى ﷺ والمسلمين رفض النبى ﷺ ذلك وقال لعمر: "لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً" وأنه ربما يقوم مقاماً يحمد له المسلمون. وكانت النتيجة بالنسبة لقريش فادحة، ذلك أنها عادت تجر أذيال الخيبة والعار، وبلغ من حقدتها على النبى ﷺ أنها رصدت جميع أموال تلك القافلة لحربه والقضاء على دعوته، وتهيأت بذلك للجولة الثانية التى وقعت عند جبل أحد.

دور الاستخبارات فى غزوة بدر:

عندما علم الرسول ﷺ القائد بقافلة أبى سفيان قائد جيش المكيين التى تحمل تجارة قريش إلى الشام أمر سرية من جيش المسلمين بالخروج إليهم لعلهم يحوزونها غنيمة. (٢)

فلما اقتربوا من مكان يسمى "الصفراء" بعثوا جنديين هما بسيس بن عمرو وعدى بن الرعباء إلى "ماء بدر" يستطلعان أخبار القافلة وبينما هما كذلك إذ بجارية تطالب أخرى بدين عليها فتجيبها صاحبها، أن سوف تعطيها الذى لها عندما تأتى القافلة غد أو بعد الغد فتعمل لهم وتأجر منهم.

فيسرع الجنديان إلى الرسول ﷺ ويخبرونه بيوم قدوم القافلة وعندما قارب الجمعان بدرًا وتسبقاً إلى الماء بعث الرسول ﷺ علياً ابن أبى طالب، وسعداً والزبير

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، ص ١٦١.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٤٣٥.

إلى بدر يتجسسون فجاءوا بعبدين لقريش فسألهما عن مكان الجيش فقالا وراء هذا الكتيب ثم قال لهما كم القوم؟ فقالا: لا علم لنا، فقال: كم يذبحون كل يوم من الإيل. فقالا: يوماً عشراً ويوماً تسعاً، فقال الرسول ﷺ جيش الأعداء ما بين التسعمائة والأف ثم قال لهما: فمن فيهم من رجالات قريش فذكروا لهو مجموعة من الرجال الأشداء منهم عتبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد وأبو جهل بن هشام، وأمى بن خلف، وسهل بن عمرو، وعمرو بن ودة، وغيرهم، فقال الرسول ﷺ رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها. (١)

لقد ظهرت فائدة استنطاق الأسرى قبل المعركة في معرفة عدد قوات قريش، كما استنتج أبو سفيان بن حرب من فحصه روث ركائب المسلمين الذين استطلعوا موقع بدر ومعرفة هويتهم أن كان كل طرف متشبس في الحصول على المعلومات فقد استفاد المسلمون من المعلومات التي حصلوا عليها بالإسراع إلى ماء بدر وحوذته خلفهم الأمر الذي جعل قوة قريش محرومة من الماء يوم القتال وبذلك عجلت هزيمتهم.

أسباب انتصار المسلمين على قريش:

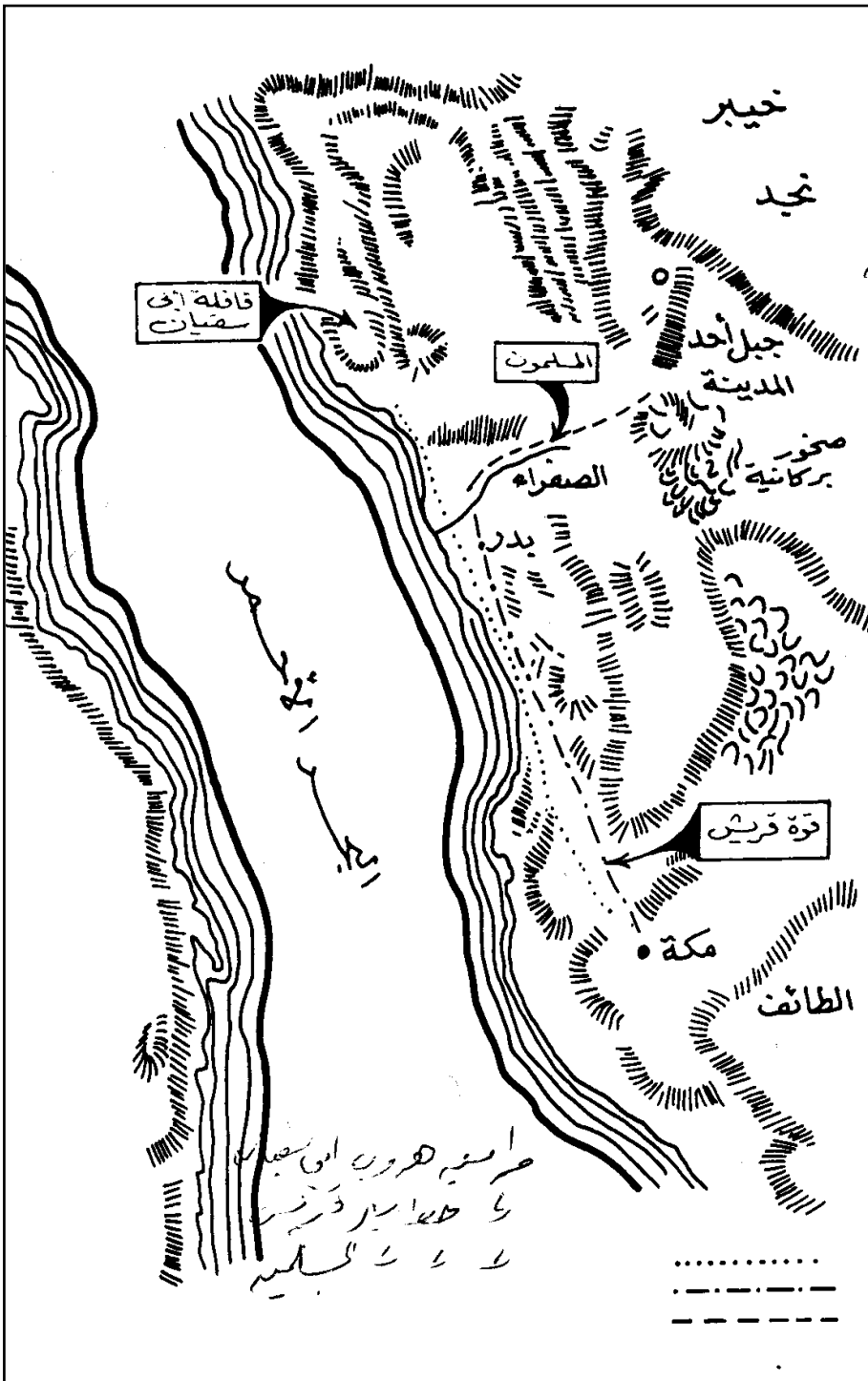
- ١- القيادة الموحدة في المعركة.
- ٢- التعبئة الجيدة التي طبقها الرسول ﷺ، ولا تختلف كثيراً عن التعبئة الحديثة في حروب الصحراء إذ كان لهم مقدمة ومؤخرة واستفاد من دوريات الاستطلاع، واستخدام أسلوب الصفوف في القتال.
- ٣- العقيدة الراسخة لدى المسلمين حيث كان هدفهم إما النصر أو الشهادة.
- ٤- أن الله أمد المسلمين بالملائكة تقاتل معهم.
- ٥- المعنويات العالية لدى المسلمين حيث شجع الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال ورفع من معنوياتهم.

نتائج غزوة بدر:

(١) محمد عبد الحليم أبو غزالة: الانتصارات الكبرى في صدر الإسلام، مؤسسة الشعب، القاهرة،

- ١- تهديد طرق تجارة قريش والتي كانت عصب حياتهم.
 - ٢- أضعفت هيبه مكة ونفوذها على العرب.
 - ٣- زادت فى قوة الإسلام وعززت الدولة الإسلامية فى المدينة.
 - ٤- دخول كثير من أهل المدينة فى الإسلام.
 - ٥- إزدياد التضامن بين المهاجرين والأنصار.
 - ٦- تشريع خمس الغنائم مما دعم بيت المال فى الإسلام.
 - ٧- مقتل سبعين من المشركين من بينهم أبو جهل وأمية بن خلف.
 - ٨- أسر سبعين من المشركين.
 - ٩- استشهاد أربعة عشر من المسلمين.
- يستفاد من غزوة بدر أن النصر ليس بالكثرة وأن الصبر والثبات يؤدى إلى النصر كما يستفاد أن الشورى واجبة فى التخطيط فى الحروب.

غزوة بدر ٢ هـ



٢- غزوة أُحد: (شوال ٣هـ/مارس ٦٢٥م).

استعدت قريش طوال عام كامل لتلك الموقعة، وعبأت قواتها واستعانته بحلفائها من ثقيف وتهامة وكنانة وبالأحابيش، ولما أتمت استعدادها خرجت في ثلاثة آلاف مقاتل بين فارس وراجل بقيادة أبي سفيان بن حرب بن أمية، وزحفت نحو المدينة وعسكرت في وادي يطل عليه جبل أحد شمالي المدينة، وزحف المسلمون إليهم في نحو ألف مقاتل من الأنصار والمهاجرين، وانتصر المسلمون في بداية المعركة لكن الرماة خالفوا وأمر الرسول ﷺ بالبقاء في أماكنهم بالجبل ليحموا ظهور المسلمين ونزلوا ميدان المعركة لجمع الغنائم والأسلاب، ظنا منهم أن المعركة قد انتهت، فكر المشركون على المسلمين وطوقوهم. وكان خالد بن الوليد قد استطاع أن يتسلل خلف المسلمين بفرسانه، فزلزل المسلمون ووقعوا بين قتيل وجريح ومهزوم، وجرح النبي نفسه وكاد يقتل، وهكذا انتهت هذه المعركة بهزيمة المسلمين^(١)، وترجع هذه الهزيمة إلى عوامل عدة:

١- الاختلاف الذي وقع بين صفوف المسلمين منذ اللحظة التي علموا فيها بزحف قريش وحلفائها نحوهم. فالرسول ومعه كبار الصحابة كان ير إزاء كثرة عدد جيش قريش ألا يغامر بلقائها في أرض مكشوفة، وفضل أن يتحصن في المدينة ذات الأزقة الضيقة والحصانة الطبيعية، مما يسهل الدفاع عنها ويمكن المسلمين جميعا رجالا ونساء وكهولا من الاشتراك في المعركة، وكان هذا أيضا رأى كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، لكن جمهرة المسلمين وخاصة الشباب المتحمس منهم رفضوا تلك الخطة ونادوا بضرورة الخروج للعدو حتى لا تظن قريش أن المسلمين جنبوا عن لقاءها وحتى ينال الشهادة من لم ينلها في بدر. ونفذ الرسول ﷺ رأى الأغلبية وخرج للقتال.

وقد أحس بعض المسلمين أنهم بذلك قد استكروها النبي ﷺ على الخروج ولم يكن لهم ذلك، فخاطبوه وطلبوا منه القعود، ولكنه قال لهم: "لا ينبغي لنبي إذا لبس

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٤٤٩؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٣، ص ٩.

لأمته (أى لباس الحرب) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، فانظروا ما أمرتكم به فافعلوه وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم". (١)

٢- انسحاب عبد الله بن أبي بن سلول ومعه حوالى ثلث الجيش الإسلامى قبل أن يصل إلى ميدان المعركة، وعودته إلى المدينة مدعياً أن النبى أطاع الشباب وخالف مشورته وهو سيد القوم، وزاعماً أنه لن يحدث قتال بين محمد وقريش وكما نعلم فقد كان هذا الرجل مرشحاً للرياسة أو الملك فى المدينة قبيل الهجرة النبوية، فلما هاجر الرسول ﷺ إليها فوت عليه هذه الفرصة، فاعتنق عبد الله الإسلام على دغل فى قلبه وأصبح كبير المنافقين فى المدينة، وانتهاز الفرصة وأراد أن يصفى حسابه ويثأر لنفسه، فانسحب مع كثير من المنافقين ومن لم يثبت الإيمان فى قلوبهم.

وفت ذلك فى عضد المسلمين خاصة وأن عدد الجند الدراعين وحدهم فى جيش المشركين كان لا يقل عن سبعمائه، بينما كان عددهم فى جيش المسلمين لا يزيد عن مائة دارع، كما أن عدد خيل المشركين كان مائتين، يضاف إليهم ثلاثة آلاف بغير، بينما كان عدد خيل المسلمين لا يزيد عن فرسين وعدد قليل من البعير يتناسب مع قلة عدد جندهم الذين تناقصوا كثيراً بانسحاب عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين. (٢)

وقد صور القرآن الكريم موقف هؤلاء المنافقين فى قوله تعالى: "وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون الذين

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ١٣٢، عبد العزيز سالم: تاريخ العرب

قبل الإسلام، ص ١١٥-١١٧.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٠٧-٥٠٨.

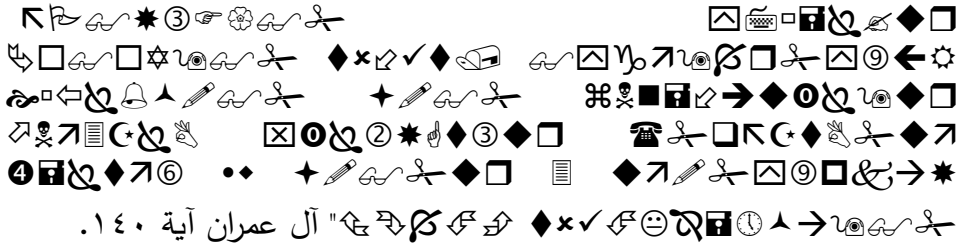
يفلتوها، وإذا سنحت لهم فرصة التقدم الشجاع تقدموا وقاتلوا ببطولة، مثال ذلك رجل يدعى قزمان قاتل قتالاً شديداً يوم أحد، حتى إنه قتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين.

ولما أصيب وحمل قيل له أبشر يا قزمان، قال: بماذا أبشر! فو الله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك لما فعلت. ولما اشتد عليه الألم انتزع سهما من كنانته فقتل به نفسه تخلصاً من هذا الألم، وبذلك كان النبي ﷺ يقول عنه إنه من أهل النار. (١)

لهذه الأسباب فازت قريش في أحد وانسحب الرسول من ميدان المعركة، وعسكر عند مكان يسمى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة لمنع قريش إذا ما فكرت في العودة كي تأخذ المسلمين على غرة وارسل على بن أبي طالب ﷺ يتحسس أخبارهم ويرى إن كانوا عائدین إلى مكة أم راجعين إلى المسلمين من جديد، وكان أبوسفیان يريد استئناف القتال حتى يقضى على البقية الباقية من المسلمين، ولم يمنعه من ذلك إلا ما سمعه من رجل كان على الشرك يسمى معبد بن أبي معبد الخزاعي - وكان مواليا هو وقومه للنبي ﷺ - من أن محمداً صار في جمع كثيف بعد أن عاد إليه من كان قد تخلف عنه يوم أحد، حيلة من هذا الرجل في إبعاد أبي سفيان عن تهديد المسلمين من جديد، ولذلك اكتفت قريش بما أصابته من نصر وعادت إلى مكة مزهوة بانتصارها وكانت هذه الهزيمة درساً استوعبه المسلمون وعرفوا منه نتيجة مخالفة الرسول وخطورة الاستعانة بالمنافقين في مثل هذه الأمور المصيرية. وقد أنزل الله بعض آيات من القرآن لتعزية المسلمين فيما أصابهم في أحد، فيقول تعالى في سورة آل عمران: ♦♦♦

﴿ وَإِذْ يُغِيثُكُمْ إِذْ تُبَدِّلُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُمْ عَلِيمًا ۝١٠٠﴾
﴿ وَإِذْ يُغِيثُكُمْ إِذْ تُبَدِّلُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُمْ عَلِيمًا ۝١٠٠﴾
﴿ وَإِذْ يُغِيثُكُمْ إِذْ تُبَدِّلُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُمْ عَلِيمًا ۝١٠٠﴾
﴿ وَإِذْ يُغِيثُكُمْ إِذْ تُبَدِّلُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُمْ عَلِيمًا ۝١٠٠﴾

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٨.



ولم تكن هزيمة المسلمين على هذا النحو إلا تمحيصاً لهم واختباراً لمدى إيمانهم وصدقهم وتمييزاً للمؤمنين من المنافقين، كما أنها أبانت عن جوانب مشرقة ومواقف غاية في البطولة والفداء وحب الله ورسوله. (١)

من ذلك ما رواه ابن اسحاق عن امرأة من بنى دينار استشهد زوجها وأخوها وأبوها في أحد، فلما عرفت باستشهادهم لم تجزع وإنما قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا لها: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين، ولم يطمئن قلبها حتى رأته بنفسها. (٢)

ومن ذلك أيضاً موقف أم عمارة، نسيبة بنت كعب المازينية التي قاتلت عن الرسول بالسيف ورمت عنه بالقوس حتى جرحته وهناك، زياد بن السكن وزملاؤه الأربعة من الأنصار الذين قاتلوا عن الرسول حتى قتلوا. أما أبو دجانة الأنصاري فقد جعل نفسه درعاً أو ترساً لرسول الله يحميه من نبال المشركين وانحنى على رسول الله حتى كثرت النبال في ظهره.

أما أنس بن النضر، عم أنس بن مالك فإنه لم يملك نفسه عندما سمع زعم المشركين بقتلهم لرسول الله فحمل سيفه واستقبل القوم وقاتلهم حتى قتل. وعمرو بن الجموح الذي كان أعرج شديد العرج، وكان أبناؤه الأربعة منعه من الخروج مع رسول الله ﷺ في أحد، فاشتكاهم للنبي ﷺ مستأذناً في الخروج معه قائلاً له: "قوالله إنني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فسمح له النبي ﷺ بالخروج، فقاتل حتى

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ١٠٣-١٠٤.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٧٤-٧٦؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٣، ص ٦٢-٦٧.

رزق الشهادة، وعمر بن الخطاب الذى قال لأخيه زيد: خذ درعى، فقال له زيد: إنى أريد الشهادة مثلما تريدها، فتركها الدرغ معا.

وقد شد الإسلام بعض المشركين إليه أثناء المعركة نفسها. فقد اندفع الأصرم عمرو بن ثابت بن وقش، من بنى عبد الأشهل، بين المسلمين فى أحد، وقاتل معهم حتى كثرت جراحه، ولما عرفه الناس سألوه "ما جاء بك عمرو؟ أحذب على قومك أم رغبة فى الإسلام؟ قال بل رغبة فى الإسلام، آمنت بالله ورسوله وأسلمت، ثم أخذت سيفى فغدوت مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابنى ما أصابنى" ثم لم يلبث أن مات فى أيديهم. ولما ذكروا أمره للنبي ﷺ قال: "إنه لمن أهل الجنة"، رغم أنه لم يكن قد أدى صلاة واحدة.

ولا ينسى التاريخ ما قاله سعد بن الربيع الخزرجى وهو يجود بأنفاسه لمن عثر عليه بين جثث الشهداء: "أبلغ رسول الله عنى السلام، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله خير ما جزى نبي عن أمته، وأبلغ قومك عنى السلام، وقل لهم: إنى سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف". ثم أغمض عينيه ولفظ أنفاسه الأخيرة.^(١)

وتلك لا شك صور مشرقة تدل على أن الإسلام لن ينهزم مهما حدث له فى أحد أو فى غير أحد. وقد عبر النبي ﷺ عن ذلك فقال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه بعد انتهاء المعركة: "لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا".

أما قریش فقد أطعمتها نتيجة المعركة فتوعدت المسلمين بالعودة إليهم فى العام القابل للقضاء عليهم جميعاً. أما القبائل الأخرى فقد أظهر البعض منها استهانتها بالمسلمين وأحتالت عليهم وقتلت بعضهم غدرا وخداعا وحطة. مثال ذلك ما حدث من رهط عضل والقارة، وهم من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة. ذلك أنهم أتوا إلى النبي ﷺ لكي يرسل معهم من يعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم فى الدين

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٩.

ويقريهم القرآن. فاستجاب لهم الرسول ﷺ وأرسل معهم ستة من الصحابة حتى إذا كانوا عند الرجيع، وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز، استعانوا عليهم بهذيل فقتلوا أربعة غدرا وحطة، وأسروا اثنين أرسلوهما إلى مكة وباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة، فقتلتها قريش. (١)

وقد حدث نفس الغدر من بنى سليم في يوم يعرف بيوم بئر معونة قرب حرة بنى سليم في صفر من العام الرابع للهجرة يولية ٦٢٥م، حيث قتلوا أربعين أو سبعين - على اختلاف في الآراء عند ابن إسحاق وابن سعد والطبرى وابن خلدون - من القراء، كان النبي ﷺ قد أرسلهم إلى نجد للدعوة إلى الإسلام بناء على طلب رجل يدعى أبا براء عامر بن مالك بن جعفر، من بنى عامر. ولم ينج منهم إلا رجل واحد هو عمرو بن أمية الضمري.

ولم يقف المسلمون مكتوفى الأيدي أمام هذه الضربات المتلاحقة وبدأوا يقومون بسلسلة من الغزوات للرد على هذا الهجوم الشرس اللوثية وللتخلص من آثار ما حدث لهم في أحد والرجيع وبئر معونة، ولإشعار العرب المحيطين بهم أنهم لا زالوا أعزة أقوياء يحسب لهم ألف حساب.

وكانت مرابطة المسلمين عند حمراء الأسد التي أشرنا إليها في اليوم التالي لانتهاء معركة أحد هي البداية، وكانت بداية ناجحة أدت الغرض منها، إذا انسحب أبو سفيان وجيشه وعادوا إلى مكة دون أن يعادوا الكرة على المسلمين الذين كانوا متخنيين بالجراج، وفي بداية العام الرابع للهجرة أرسل النبي ﷺ في شهر المحرم يونيه ٦٢٥م سرية للإغارة على بنى أسد سارا في قومها وفيمن أطاعها يدعونهم إلى حرب رسول الله ﷺ، فرأى النبي ﷺ أن يفاجئهم وأن يغير عليهم قبل أن يغيروا عليه، فأرسل إليهم سرية على رأسها أبى سلعة ابن عبد الأسد المخزومي ومعه مائة وخمسون رجلا من الأنصار والمهاجرين، فقدم هؤلاء المسلمون إلى ماء لبنى

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٣٩.

أسد بجبل قطن بناحية فيديك من نجد وفاجئوهم وأصابوا منهم بعض الغنائم وعادوا إلى المدينة.

وتتابعت بعد ذلك غزوات خرج النبي ﷺ على رأسها بنفسه، منها غزوة ذات الرقاع في جمادى الأولى من نفس العام، لغزو بني محارب وبني ثعلبة وأنمار من غطفان في نجد، ولم يحدث قتال بين الفريقين، وعاد المسلمون بعد أن أفهموا أهل نجد من غطفان وغير غطفان أن المسلمين ليسوا في ضعف قد يغرى هذه القبائل بهم أو بالانضمام إلى قريش لمحاربتهم. (١)

وقد أراد الرسول ﷺ أن يوضح لقريش هذا المعنى، فخرج على رأس ألف وخمسمائة من المسلمين في شعبان عام ٤هـ/يناير ٦٣٦م لملاقاة قريش في بدر كما طلبت يوم عودتها من أحد، وحتى لا نظن الضعف بالمسلمين إذا ما تخلفوا عن اللقاء، وقد وصل الرسول ﷺ إلى بدر وأقام بها ثمان ليال ينتظر أبا سفيان الذي كان قد خرج هو الآخر على رأس ألفي محارب من أهل مكة حتى نزل مجنة (مر الظهران) ثم بدا له أن الرجوع إلى مكة أسلم عاقبة وقال لقومه: "يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعى فيه الشجر، ونشرب اللبن، وإن عامكم هذا عام جذب وإني راجع فارجعوا، فرجع الناس، دون أن يصلوا إلى بدر وأخذوا في الاستعداد لغزوة الخندق.

ولم يقتصر نشاط المسلمين على نجد وعلى قريش، بل اتجهوا شمالا إلى دومة الجندل في شهر ربيع الأول عام ٥هـ/أغسطس ٦٢٢م بعد أن وصل إليهم أن أهل هذه الناحية جمعوا لهم الجموع وأنهم زحفوا حتى دنوا من أطراف المدينة وأنهم يقطعون الطريق على المارة الذين لا غناء لهم عن هذا الطريق المار بدومة الجندل إلى بلاد الشام. فخرج الرسول ﷺ على رأس ألف من المسلمين ووصل إلى دومة وأقام بساحتها أياما وبث السرايا في أنحاءها، ولم يحدث قتال لأن أهل دومة

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٨-٢٠.

كانوا قد هربوا عندما سمعوا بزحف النبي ﷺ إليهم، وعاد الرسول بعد أن وقعت في يده بعض الغنائم.

وتجاه الساحل، كان للمسلمين نشاط أيضاً فيما يعرف بغزوة المريع وهو ماء لبني المصطلق من خزاعة بناحية قديد، ولذلك سميت هذه الغزوة أيضاً بغزوة بني المصطلق، وذلك في شعبان عام ٦هـ/ يناير ٦٢٧م وقد خرج النبي ﷺ إليهم على رأس جيش كبير يضم كثيرا من المنافقين عندما سمع بأن سيد بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار "سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه وانهزم بنو المصطلق شر هزيمة، وسبى النبي ﷺ عدد كبيرا منهم، كان من بينهم جويرية بنت الحارث التي تزوجها كما غنم عددا هائلا من الإبل والغنم وعاد المسلمون إلى المدينة منتصرين.

وقد أثارت هذه الانتصارات المتوالية التي حققها المسلمون بعد أحد والتي كانت ردا على عدوان قريش وغيرها من القبائل، ومنعاً لقبائل أخرى كانت قد تهيأت واستعدت للزحف، وزحف بعضها فعلا إلى المدينة كما رأينا، نقول أثارت هذه الانتصارات قريشاً وبني النضير وغيرهم من أعداء الإسلام المتربصين به، إذ خافوا أن تشتد شوكة المسلمين من جديد، فاجتمعوا وتحزبوا وهاجموا المدينة فيم يعرف بغزوة الأحزاب أو الخندق.

دور الاستخبارات في غزوة أحد:

فكرت قريش في الانتقام لقتلها في غزوة بدر فأخذت تعد العدة وتجهز الكتائب وتستحث حلفائها للخروج معها، وما كاد العباس عم الرسول ﷺ يرى هذه الاستعدادات المريبة التي تقوم بها قريش حتى أخذ في جمع المعلومات عن هذه الحملة وميعاد تحركها وأعداد المشتركين فيها وأرسلها في رسالة إلى الرسول ﷺ في المدينة حتى وصلت، فلما قرأت الرسالة طلب الرسول ﷺ من أركان حربه عدم البوح بمضمونها ثم أخذ في إرسال عيونه ورجال إستخباراته لرصد الطلائع الأولى لجيش

قريش وكان عمل لرجال الاستخبارات مفيداً جداً حيث حال بين المشركين وبين مباغتتهم المدينة. (١)

نتائج غزوة أحد:

- ١- انتصار المسلمين في بداية المعركة ثم انتصار المشركين بعد أن ترك الرماة موقعهم على الجبل.
- ٢- استشهاد سبعين من المسلمين من بينهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش.
- ٣- مقتل اثنين وعشرون رجلاً من المشركين.
- ٤- ظهور المنافقين قبل المعركة وبعدها بزعامة عبد الله بن أبي بن سلول مما أتاح للمسلمين القيام بالتطهير في صفوفهم.
- ٥- طمعت قريش وغيرها من القبائل في جماعة المسلمين وشجعت المشركين على حربهم فيما بعد.

الدروس المستفادة من غزوة أحد:

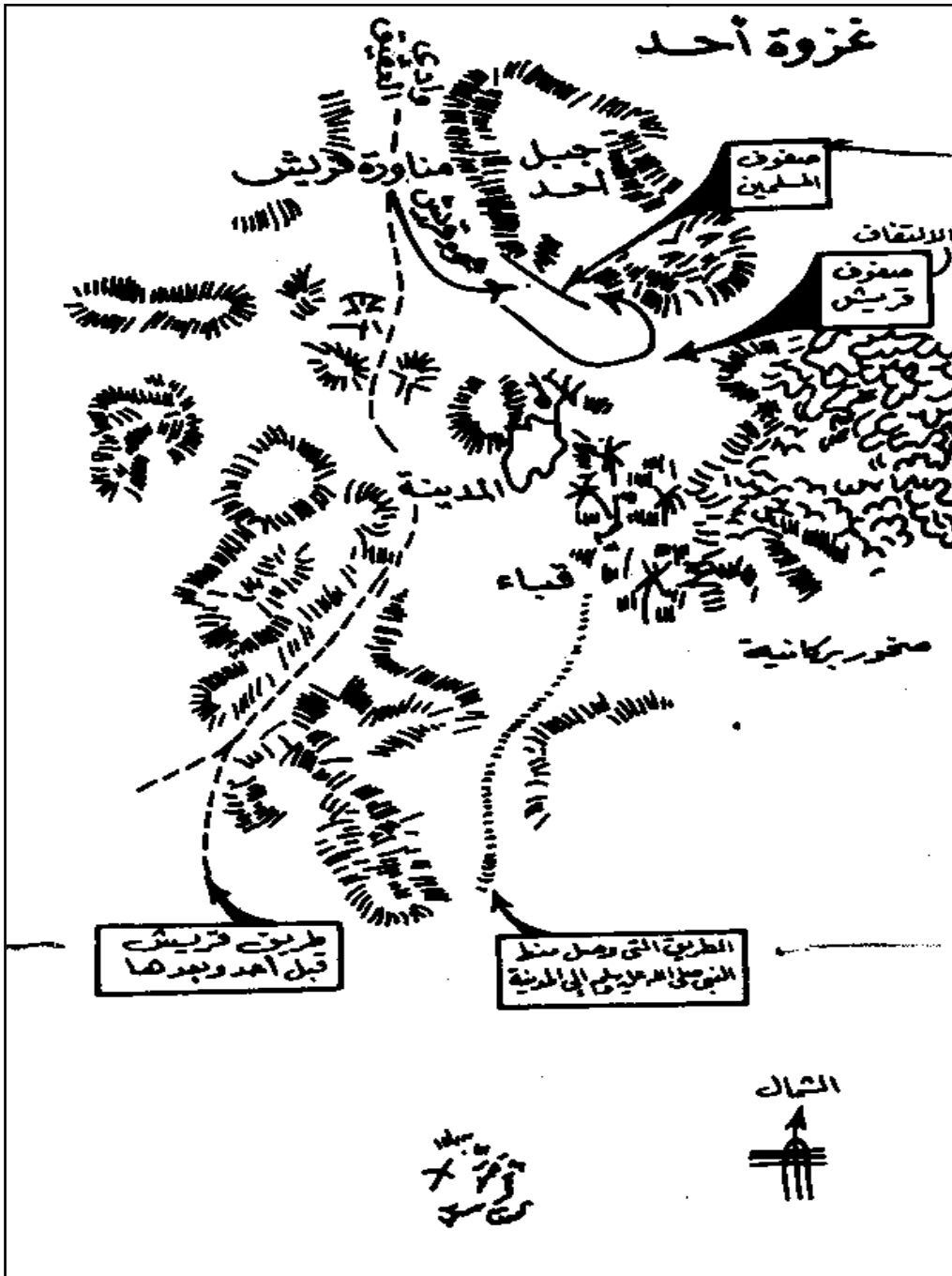
- ١- تقدير أهمية وقيمة الطاعة والجنديّة حيث أن مخالفة أمر القائد تؤدي إلى الفشل.
- ٢- إن المؤمن مهما عظمت صلته بربه فلا يجوز أن يغتر به أو يحسب أن الدنيا دانت له.
- ٣- إن هزيمة المسلمين في أحد كانت درساً قيماً للمسلمين خلال صراعهم مع المشركين حيث شاءت الأقدار أن يكبو المسلمون هذه القبوة بعد الانتصارات على المشركين في بدر لأن الانتصار الدائم يعرض الجماعة المسلمة لنوع من الاتكالية السالبة.
- ٤- أن النصر ليس بالكثرة وإنما بالطاعة والتلاحم.
- ٥- تحريم المثلة أي التمثيل بالقتلى.

(١) محمد أحمد زيود: تاريخ العرب والإسلام، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٥م، ص ٦١.

- ٦- إدارك قيمة الزوج عند المرأة كما شاهدنا موقف حمنة بنت جحش.
- ٧- وجوب قتل الأسير إذا عاد إلى قتال المسلمين بعد العفو عنه في المرة الأولى .
- ٨- ضرورة إخفاء الحقيقة لتخفيف شدة العدو والمحافظة على معنويات المقاتلين كما حدث عندما أمر الرسول بعدم الإعلان عن حياة الرسول.
- ٩- كانت غزوة أحد درساً قاسياً علم المسلمين كيف يحافظون على مواقعهم وعدم تركها لجمع الغنائم.
- ١٠- كشفت غزوة أحد عن المنافقين الذين ظهر السرور والفرح على وجوههم مما أصاب المسلمين. (١)

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٢٢؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص٤٣.

غزوة أحد (٥٣)



٣- غزوة الأحزاب أو الخندق: (شوال ٥هـ/مارس ٦٢٧م)

ذلك أن يهود بنى النضير عادوا إلى غدرهم وخيانتهم بعد أن كان النبي ﷺ قد أجلاهم عن المدينة لمحاولتهم قتله غيلة، فاتصل وفد لهم بقريش في مكة في محاولة للانتقام والإجهاز على محمد وأصحابه، وأخذوا يحرضون القرشيين على استئناف القتال ضد المسلمين من جديد، ووعدهم بتقديم المساعدات المادية، وكانت قريش في غنى عن التحريض إذ إنها كانت تعد لجولة أخرى مع النبي ﷺ حتى تقضى عليه وعلى قوته نهائياً فموقعة أحد لم تحقق لها هذا الهدف، ولذلك سرها ما دعا إليه بنو النضير كل السرور، واتفقوا على ذلك وضربوا له موعداً. (١)

وبعد أن تأكد بنو النضير من استجابة قريش لهم اتصلوا بقبيلة غطفان بنجد وأخبروهم بموافقة قريش على حرب المسلمين وأغروهم بإعطائهم تمر خبير لمدة سنة وتواعد الجميع على اللقاء عند المدينة، فخرجت قريش مع أحابيشها ومع حلفائها من بنى كنانة وثقيف وبنى سليم وأهل تهامة وعلى رأسهم أبو سفيان. وخرجت غطفان مع زعمائها عينية بن حصن في بنى فزارة والحارث بن عوف في بنى مرة، وسميت هذه الجماعات التي بلغ تعدادها حوالي عشرة آلاف بالأحزاب، نظر لتكونها من قبائل يهودية وعربية متعددة، سواء من الحجاز أو من نجد، ونزلوا بشمال المدينة في شوال عام ٥هـ / مارس ٦٢٧.

كانت قريش تهدف من وراء هذه الحملة إلى القضاء تماماً على أمر المسلمين وكانت بقية القبائل العربية تريد غنائم الحرب وأسلابها، أما بنو النضير وبنو قينقاع من اليهود فكانوا يريدون إرجاع نفوذهم إلى المدينة كما كان الحال من قبل. وقد قامت هذه الأحزاب بمحاصرة المدينة مدة شهر وقع فيها بعض المبارزات الفردية^(٢)، وانتهى الأمر برحيل الأحزاب بعد فشلها في اقتحام المدينة عنوة. ويرجع ذلك إلى عدة أمور:

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٦٥.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٣، ص ٥٩.

١- خط المسلمين في الدفاع عن المدينة كانت تختلف تماما عن خطتهم في معركة أحد. ففي أحد كانوا مهاجمين لمن هاجمهم خارج المدينة بينما في غزوة الأحزاب التزموا بالدفاع ولزموا المدينة وتحصنوا فيها، ووقف مقاتلوهم وراء الخندق يمنعون الأحزاب من اقتحامه عليهم. وكان حفر الخندق في حد ذاته من عوامل فشل الأحزاب. وكان هذا عملا جديدا على العرب أشار به سلمان الفارسي، ونفذه الرسول، وقسم الحفر بين القبائل وشاركهم فيه، وتم حفره في شمال المدينة "لأن الجهات الأخرى كانت محصنة بالجبال والنخيل والبيوت. وجعل النبي ﷺ لهذا الخندق أبوابا رتب عليها الحراس وعهد بقيادتهم إلى الزبير بن العوام. ولما أتت قريش وحلفاؤها ورأت هذا الخندق تملكها الدهشة وقالت: "والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها" ودلالة هذا العمل كبير من وجهة النظر السياسية والحربية، إذ أن الرسول أخذ برأى أحد جند المسلمين وعمل بمشورته ونظم عملية الحفر واشترك فيه رغم أنه القائد الأعلى وأنه النبي المرسل، فدلل بذلك على مهارة سياسية ربطت بينه وبين قلوب المسلمين، وضرب لنا مثلا في الديمقراطية وأعلى في نفس الوقت من قيمة العمل اليدوي.

٢- حاول الرسول تفريق كلمة الأحزاب، فأرسل من يفاوض غطفان ويطلب منهم الانسحاب على أن يعطيهم ثلث ثمار نخيل المدينة، وفي نفس الوقت عقد الرسول مجلس الشورى من الأوس والخزرج والمهاجرين، ولما عرفوا منه أن هذه المفاوضات لم تكن عن أمر من الله، وإنما هي اجتهاد من النبي للقضاء على هذا الحصار المضروب على المدينة، طلبوا منه إيقاف تلك المفاوضات والاستمرار في الدفاع عن المدينة وقتال أعدائهم. وقد كان لذلك صداه في معسكر الأحزاب، إذ أن غطفان كانت قد قبلت شروط النبي ﷺ إذا أعطاهم نصف الثمار، ورغم أن المفاوضات قد قطعت إلا أنها أدت إلى فك عرى التحالف بين غطفان وبين بقية الأحزاب، ولذلك لم نسمع عن اشتراك فرسان

غطفان في المبارزات الفردية التي وقعت بين المسلمين وقريش عند مكان ضيق من الخندق. (١)

٣- تمكن النبي ﷺ أيضاً من القضاء على التحالف الذي تم بين يهود المدينة من بنى قريظة وبين قريش وبقية الأحزاب وكان بنو قريظة في حلف مع النبي ومقيمين معه داخل المدينة، فاتصل بهم يهود بنى النضير وأغروهم بالتحول عن محالفة النبي ﷺ والانضمام إليهم، فنقض هؤلاء عهدهم معه وصاروا خطراً عظيماً على المسلمين، وإلى ذلك يشير القرآن في سورة الأحزاب بقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَمُنُوا بِيَوْمِ الْحُكْمِ وَأَنْ يُخَالِفُوا بِرِجَالِهِمْ الْأَقْرَابَ وَالَّذِينَ لَا يُخَالِفُوا عَهْدِي وَأَيْمَانِي إِنَّا كَانَاتُ لَشَدِيدِينَ ﴾ [سورة الأحزاب: ١٠]

لكن دبلوماسية الرسول ومهارته السياسية تغلبت على هذا الموقف العصيب، وكان نعيم بن مسعود الغطفاني قد انسل من بين صفوف الأحزاب واسلم خفية، ولجأ إلى النبي وعرض عليه تقديم المساعدة، فقال له النبي "خذ عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة" وكان هذا الرجل يمتاز بالدهاء والمكر. فذهب إلى أصدقائه من بنى قريظة وأشار عليهم بالألا يحاربوا مع قريش إلا بعد أن يأخذوا رهائن منها حتى لا تعود وتتركهم للمسلمين يفتكون بهم، ثم ذهب إلى قريش وإلى غطفان وأخبرهم بأن بنى قريظة قد تخلوا عن نصرتهم وأنهم سيطلبون رهائن منهم لن يحتفظوا بهم وإنما سوف يقدمونهم لمحمد ليقتلهم نظير عودة بنى النضير إلى المدينة، وحذرهم من إعطاء هؤلاء الرهائن. ولما حدث الاتصال بين الطرفين

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ١٢٥.

وظالب بنو قريظة بالرهائن حتى لا تتركهم قريش لمحمد ينال منهم، تبين لقريش وغطفان صحة ما قاله نعيم، فوقع الشك في قلوب الفريقين وتفرق جمعهم. (١)

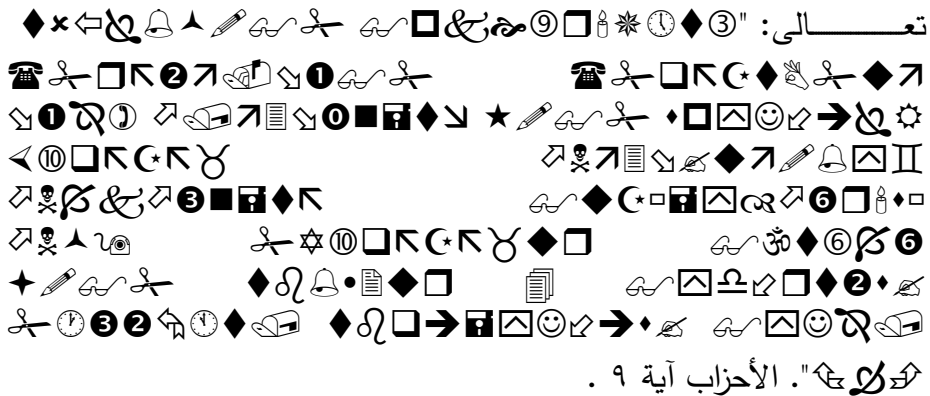
٤- كما كان لمهارة الرسول في حث المسلمين وتشجيعهم على الصمود بيد أنه قد تزعزعت ثقة البعض وخاصة من المنافقين، وقال أحدهم: "كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقیصر، وأحدثنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط" وترك أحدهم موقعه وطلب من الرسول-على ما لأ من المسلمين- الإذن لهم بالعودة إلى ديارهم بحجة أنها مكشوفة لأعدائهم إذ أنهم أصبحوا محاصرين بين يهود بنى قريظة في المدينة وبين الأحزاب وراء الخندق وقد أشار إلى ذلك القرآن فيقول تعالى في سورة الأحزاب "كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقیصر، وأحدثنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط" وترك أحدهم موقعه وطلب من الرسول-على ما لأ من المسلمين- الإذن لهم بالعودة إلى ديارهم بحجة أنها مكشوفة لأعدائهم إذ أنهم أصبحوا محاصرين بين يهود بنى قريظة في المدينة وبين الأحزاب وراء الخندق وقد أشار إلى ذلك القرآن فيقول تعالى في سورة الأحزاب "كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقیصر، وأحدثنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط" وترك أحدهم موقعه وطلب من الرسول-على ما لأ من المسلمين- الإذن لهم بالعودة إلى ديارهم بحجة أنها مكشوفة لأعدائهم إذ أنهم أصبحوا محاصرين بين يهود بنى قريظة في المدينة وبين الأحزاب وراء الخندق وقد أشار إلى ذلك القرآن فيقول تعالى في سورة الأحزاب ١٣.

لكن الرسول استطاع أن يضرب لهم المثل في الصمود، وشاركهم سواء في حفر الخندق أو في عبء الدفاع عن المدينة، فثبت المسلمون حتى من الله عليهم بالنصر". (٢)

٥- وكانت العوامل الطبيعية خير شاهد على عون الله لرسوله، إذ سير ريحا صرصرا عاتية على الأحزاب في ليال شديدة البرد، اقتلعت خيامهم وحطمت قدرهم وأوانيهم، ودهمهم وابل من مطر غزير أضاف إلى معاناتهم، خاصة وأن الحصار قد طال دون نتيجة حاسمة. فقررت قريش الانسحاب والعودة إلى مكة، وتبعتها غطفان وبقية الأحزاب. ويشير القرآن إلى ذلك في سورة الأحزاب فيقول

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٦٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص ١٦٠ وما بعدها .



وكانت نتيجة هذه العوامل كلها أن فشلت قريش وأنصارها في القضاء على المسلمين، كما فشل اليهود في تحقيق هدفهم في الثأر من النبي ﷺ وفي عودة نفوذهم إلى المدينة. وبذلك فشلت الوثنية واليهودية في الإيقاع بالمسلمين، ودلت موقعة الخندق على أن المسلمين لا يمكن أن يقهروا بسهولة، وأن المدينة لا يمكن أن تؤخذ عنوة حتى وإن احتشد لها العرب واليهود أجمعين. وكان لذلك أثره في بقية القبائل العربية، إذ أنها أحست قوة اليقين في نفوس المسلمين، ورأت أن الميزان سوف يتحول إلى صالحهم خاصة بعد أن قال النبي ﷺ عقب جلاء الأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزونا"، وكان من نتائج موقعة الخندق أيضا القضاء على يهود بنى قريظة وتأمين الجبهة الداخلية تأمينًا تامًا. (١)

أما الجبهة الخارجية فلم يتوان الرسول والمسلمون عن تأديب كل من اشترك في إيذاء المسلمين ومحاربتهم والاعتداء عليهم سواء قبل الخندق أو بعدها. ذلك أن المسلمين تعرضوا بعد الخندق لعدوان جديد. فقد أغار عيينة بن حصن الفزاري الغطفاني على لقاء الرسول ﷺ، وتسبب هذا الأمر في غزوة الغابة (ذي قرد) شمال المدينة، في شهر ربيع الأول عام ٦ هـ / أغسطس ٦٢٧م، تمكن فيها الرسول من استعادة بعض نوقه وعاد إلى المدينة بعد أن قتل عددا من المعتدين منهم حبيب بن عيينة بن حصن وأرسل إلى العرنيين سرية على رأسها كرز بن جابر

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج٢، ص ٥٧٠.

الفهري في شوال عام ٦٦هـ / مارس ٦٢٨م أمسكت بهم وقدمت إلى المدينة حيث قتلوا.

أما أعراب فزارة الذين اعتدوا على قافلة للرسول ﷺ كانت تحمل تجارة له من الشام، فقد أرسل إليهم سرية أغارت عليهم وقتلت بعضهم، ولما احتشد بنو سعد بن بكر بفدك للانضمام إلى يهود خيبر في محاولة للعدوان والإغارة على المدينة. أرسل لهم الرسول ﷺ على بن أبي طالب في شعبان عام ٦هـ/يناير سنة ٦٢٨م فأغار عليهم وغنم منهم خمسمائة بغير وألفى شاه وعاد إلى المدينة.

أما الحملات التأديبية التي أرسلها النبي ﷺ إلى بعض الذين اشتركوا في غزوة الخندق أو الذين اعتدوا على المسلمين في يوم الرجيع ويوم بئر معونة، فقد تعددت، وأشهر هذه المحلات هي الغزوة التي قادها بنفسه ضد بني لحيان، من هزيل، في شهر ربيع الأول عام ٦هـ/أغسطس سنة ٦٢٧م انتقاماً منهم لما فعلوه بأصحابه يوم الرجيع، فهربوا ولم يتمكن الرسول منهم. أما بنو ثعلبة الذين اعتدوا على المسلمين يوم بئر معونة، فقد أرسل لهم النبي ﷺ سرية على رأسها أبو عبيدة بن الجراح وصلت إلى ذى القصة التي تقع على طريق الربذة، على بُعد أربعة وعشرين ميلاً من المدينة، وذلك في شهر ربيع الآخر عام ٦هـ / سبتمبر سنة ٦٢٧م، فوجدهم قد هربوا إلى الجبال، فاستاق ما وجدته من مواشيهم وعاد إلى المدينة، وأرسل لهم النبي ﷺ سرية أخرى في جمادى الآخرة على رأسها زيد بن حارثة فهربوا أيضاً وغنم زيد عشرين بغيراً وعاد إلى المدينة. (١)

أما بنو سليم الذين كانوا قد اعتدوا على المسلمين أيضاً في بئر معونة واشتركوا مع الأحزاب في حصار المدينة، فقد أرسل لهم النبي ﷺ سرية على رأسها زيد بن حارثة في ربيع الآخر عام ٦هـ/سبتمبر سنة ٦٢٧م، فسار إليهم وأصاب منهم بعض الأسرى وحصل على بعض الغنائم. أما بنو أسد الذين اشتركوا أيضاً في الأحزاب فقد أرسل لهم النبي ﷺ سرية على رأسها عكاشة بن محصن الأسدي

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢٩.

فى شهر ربيع الأول عام ٦هـ / أغسطس ٦٢٧م، وصلت إلى ماء الغمر الذى يقع على بعد ليلتين من فذك على الطريق إلى المدينة، وغنم المسلمون مائتى بعير بعد أن هرب القوم إلى الجبال.

أما قریش نفسها فقد تعرضت تجارتها لتهديد جديد، ذلك أن المسلمون سمعوا أن عيراً لقریش أقبلت من الشام، فأرسل النبى ﷺ على رأسها زيد بن حارثة، فوصلت إلى العيص الذى يقع على بُعد أربع ليال من المدينة وتمكنت هذه السرية من أخذ هذه العير وما تحمله، وأسرت بعض رجالها منهم أبوالعاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ.

وقد تعدى نشاط المسلمين الحربى هذا النطاق إلى شمال بلاد الحجاز، حيث أرسل النبى ﷺ فى شعبان عام ٦هـ / يناير سنة ٦٢٨م سرية على رأسها عبد الرحمن بن عوف إلى كلب بدومة الجندل، وقال له: أغز باسم الله وفى سبيل الله، فقاتل من كفر بالله لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً، ولما وصل عبد الرحمن إلى دومة الجندل أسلم شيخها الأصبع بن عمرو الكلبى وكان نصرانياً، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأعطى الباقيون الذين ثبتوا على دينهم الجزية. وقد سبقت الإشارة إلى سرية على بن أبى طالب ﷺ إلى فذك، مما يدل على جهود المسلمين فى إقرار نفوذهم السياسى على منطقة شمال الحجاز. (١)

وفى سبيل ذلك أرسل الرسول أيضاً سريتين إلى خيبر، إحداهما فى رمضان، والثانية فى شوال من عام ٦هـ / مارس سنة ٦٢٨م. اغتيل فيهما زعيما يهود خيبر وهما: أبو رافع سلام بن أبى الحقيق النضرى جزاء له على اشتراكه مع الأحزاب وتحريضه القبائل للهجوم على المدينة فى غزوة الخندق. والثانى هو أسير بن زارم الذى تقلد رئاسة يهود خيبر بعد مقتل أبى رافع وسار إلى غطفان وغيرهم يجمعهم على حرب رسول الله من جديد.

دور الاستخبارات فى غزوة الخندق:

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٣٢.

علم الرسول ﷺ عن طريق عيونه وجواسيسه أن قريشاً عبأت عشرة آلاف مقاتل عدا حلفائها من اليهود لمهاجمة المدينة عندها بدأ المسلمون نتيجة لهذه المعلومات في حفر الخندق حول المدينة ولقد كانت مفاجأة لقوة قريش حتى قالو: "والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها".

وهذه الواقعة تدل على نجاح مخابرات النبي ﷺ الاستراتيجية التي عرفت بنية الأعداء مبكراً كما تدل على عجز مخابرات الأعداء وذلك لأن حفر الخندق استغرق حوالي عشرين يوماً وهذه المدة كافية جداً لعيون قريش لكشفة والإعلام عنه. (١)

كما تدل هذه الواقعة أيضاً على نجاح المخابرات الوقائية للمسلمين، وعلى مدى تكتمهم بسر خطتهم وحرمان العدو من الحصول على معلومات عنهم.

الدروس والعبر من غزوة الأحزاب:

- ١- التضحية والفدائية في الجهاد واجبة ولا سيما إذا كلف القائد بعض جنوده بالتضحية كما فعل على بن أبي طالب رضي الله عنه.
- ٢- الصبر من شروط النصر.
- ٣- ضرورة كتمان الأخبار السيئة عن العامة في المواقف الحرجة.
- ٤- ملة الكفر واحدة تجمعها العدو للإسلام والمسلمين وتفرقها المصالح الشخصية.
- ٥- إستعارة ما يحتاجه المسلمون للقتال من حلفائهم غير المسلمين جائز حيث استعار الرسول ﷺ أدوات الحفر من بنى قريظة.
- ٦- مشاركة القائد لرعيته في العمل يزيد من معنوياتهم ويهون عليهم التضحية.
- ٧- لا يجوز إكراه ضعفاء الإيمان على الجهاد فوجودهم في القتال ضرر.

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٥٩.

٨- الحيلة والخداع من فرض قد يعمل عمل جيش بأكملة فعمل نعيم بن مسعود فى هذه الغزوة يعادل عمل جيش كبير حينما دب الخلاف بين يهود وقريش وحلفائها.

٩- وجوب الاعتقاد بان النصر من عند الله. (١)

وهكذا صد المسلمون من حاول العدوان عليهم بعد انتهاء غزوة الخندق ولقنهم درسا لن ينسوه كما أنهم قاموا أيضاً بحملات تأديبية ضد من شارك فى غزوة الخندق نفسها، كما استأنفوا تهديدهم لتجارة قريش، وبذلك ارتفعت أسهم المسلمين وازداد شعورهم بالقوة والعزة والمنعة، ومن ثم خرجوا إلى مكة معتمرين فى ذى القعدة من عام ٦هـ / أبريل سنة ٦٢٨م وبذلك نصل إلى النقطة الرابعة فى حديثنا عن موقف الرسول ﷺ من قريش بمكة وهو صلح الحديبية.

٤- صلح الحديبية: (ذو القعدة ٦هـ-أبريل سنة ٦٢٨م)

خرج الرسول ﷺ قرب نهاية العام السادس للهجرة إلى مكة للعمرة فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار يسوقون الهدى أمامهم ولا يحملون إلا سلاح المسافر دلالة على عدم نيتهم فى قتال قريش وعندما أحست قريش بهم صممت على منعهم من دخول مكة عنوة حتى ولو كانوا مسالمين، وأرسلت خالد بن الوليد لمناوشتهم، لكن الرسول سلك طريقاً آخر وتوقف عند مكان يقال له الحديبية على بعد تسعة أميال من مكة وعسكر فيه، وأرسل عثمان بن عفان ليتعرف على أبناء قريش ويعرف سبب منعها للمسلمين من دخول مكة للعمرة، ولما تأخرت عودة عثمان إلى الرسول وأشيع أنه قتل، طلب الرسول من المسلمين البيعة على قتال قريش، فتسارعوا إلى بيعته. ونزل فى ذلك قوله تعالى فى سورة الفتح: "لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما فى قلوبهم وأنزل السكينة عليهم

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ١٢٥-١٢٦.

وأثابهم فتحاً قريب. ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكيماً". ولذلك تعرف هذه البيعة ببيعة الرضوان. (١)

وكان لهذا الموقف الشجاع من المسلمين تأثيره على قريش، فرغم أن المسلمين لم يكن معهم سلاح يكفي لمواجهة قريش إلا أنهم صمموا على قتالها لو ثبت فعلاً قتلها لعثمان. ولذلك غيرت قريش من نظرتها للمسلمين وأرسلت سهيل بن عمرو لمفاوضة الرسول ﷺ. وقد اعتذر سهيل للرسول عما حدث من حجز عثمان وقتال من قاتله من مشركى مكة، وأظهر حسن النية، فأرسل لقريش بأن تطلق سراح عثمان ومن معه من المسلمين، فعادوا، وأطلق الرسول أسرى قريش من الذين كانوا قد اعتدوا على المسلمين، وتمت المفاوضات بين سهيل وبين الرسول، وانتهت إلى أربع نقاط:

- ١- أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين.
 - ٢- أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه ولا تلزم قريش برد من يأتيها من عند محمد.
 - ٣- من أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك، ومن أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك.
 - ٤- أن يرجع الرسول إلى المدينة هذا العام دون أداء العمرة فإذا كان العام القادم دخل مكة بعد خروج قريش منها، وليس معه إلا سلاح المسافرين. (٢)
- لم يرض المسلمون جميعهم بشروط هذا الأتفاق، واعتبروا بعضها مهيناً لهم وتساهلاً لم يكن له ما يبرره، ولم يستجيبوا لنداء الرسول لهم بالتحلل من إحرامهم ونحر ذبائهم. وعبر عمر بن الخطاب عن هذا الاتجاه. لكن الرسول هدأ الخواطر وأفهم المسلمين أن ما فعله كان عن أمر من الله، إذ قال لهم: "أنا عبد الله ورسوله،

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٢٠٠-٢٠٤؛ عبد العزيز سالم: تاريخ

العرب قبل الإسلام، ص ١١٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ١٣٥-١٣٧.

لن أخالف أمره ولن يضيعني". وأشارت عليه زوجه أم سلمة بأن يتحلل من إحرامه أولاً، ولما فعل، اقتدى المسلمون به وعادوا إلى المدينة وفي الطريق نزل على الرسول قوله تعالى في سورة الفتح: "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً". فاستبشر المسلمون وهدأت نفوسهم وعرفوا أن ما فعله الرسول كان في مصلحتهم وفي مصلحة الإسلام لعدة أسباب:

١- إن توقيع قريش على هذا الصلح يعتبر اعترافاً سياسياً بالمسلمين وكانت قريش ترفض من قبل أن تعترف بهم أو بديانة الإسلام ولذلك تجرأت بعض القبائل على الدخول علانية في تحالف مع الرسول، مثلما فعلت خزاعة، وفي المقابل أعلن بنو بكر انضمامهم إلى قريش.

٢- أصبح للمسلمين حق مشروع في زيارة البيت الحرام بمكة حسب نصوص الاتفاق. وفعلاً عادوا في ذي القعدة من العام التالي ٧هـ / مارس ٦٢٩ ودخلوا مكة ومكثوا فيها ثلاثة أيام بعد أن خرجت منها قريش. وكان هذا في حد ذاته نصراً سياسياً كبيراً للنبي، فعز المسلمون من حيث ظنو المهانة، ونزل في ذلك قوله تعالى: "ولقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً.

٣- تغيرت نظرة قريش للمسلمين، وأدركت أن دينهم لا بد أن ينتصر في النهاية رغم عدائها الشديد ومؤامراتها العديدة وتحديها السافر للنبي وأصحابه. ولذلك رأينا كثيراً من رجالات قريش مثل خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وغيرهم يقدمون إلى المدينة في صفر عام ٨هـ / يونيه ٦٢٩ ويعلنون إسلامهم وانضمامهم إلى الرسول، وكان هذا تحولاً ضخماً في ميزان الصراع بين الرسول وقريش لصالح المسلمين".

٤- لم يظهر المفاوض القرشى كياسة وبعد نظر في شرطه على النبي أن يرد من جاء إليه من قريش مسلماً، ذلك أن من ردهم الرسول حسب هذا الشرط كانوا شوكة في جنب قريش، إذ قام بعضهم باعتراض قوافل قريش التجارية وبقتل من وقع في أيديهم من القرشيين لدرجة أن قريشاً أرسلت للرسول أنها تنازلت عن هذا الشرط إلى مصلحة المسلمين من حيث ظنوه إهانة لهم. (١)

٥- أتاحت الهدنة المتفق عليها في نصوص الاتفاق الفرصة أمام الرسول كي ينظم شئون المسلمين في المدينة، وأن يقضى على ما يهددها من أخطار، خاصة خطر يهود خيبر، فغزاهم في المحرم من عام ٧هـ / مايو سنة ٦٢٨ وقضى على نفوذهم، وبذلك تفرغ النبي لنشر الدعوة خارج الحجاز وأرسل رسله إلى القبائل العربية في أنحاء شبه الجزيرة المختلفة وإلى ملوك الدول المجاورة في بلاد الشام ومصر وفارس والحبشة واليمن التي أقبل منها وفد بنى دوس حيث أسلموا ولحقوا النبي بخيبر ثم عادوا إلى بلادهم ينشرون دين الإسلام، ولذلك اعتبر المؤرخون القدامى صلح الحديبية فتحاً كبيراً، وأنه "ما فتح الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، لأن القتال كان دائماً ومستمراً بين المسلمين والمشركين وبعد الحديبية آمن الناس بعضهم بعضاً، واختلط المشركون بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة حيث سمع منهم أهلها أحوال النبي ﷺ وعرفوا سيرته الطاهرة، فمالت نفوسهم إلى الإيمان حتى بادر بعضهم إلى اعتناق الإسلام قبل فتح مكة، وازداد ميل البعض الآخر للدخول في هذا الدين الحنيف وأخذ الإسلام يزداد انتشاراً أكثر من ذي قبل بحيث لم يدع أحد لاعتناقه إلا ودخل فيه.

ويستدل على ذلك من أنه في الفترة التي تقع بين صلح الحديبية وبين فتح مكة، وهي أقل من عامين اعتنق الإسلام عدد من الناس أكثر بكثير ممن اعتنقه طوال عهد الدعوة منذ مبعث النبي. والدليل على ذلك أنه خرج مع النبي ﷺ إلى مكة

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٦٢٠.

للمعرة عند صلح الحديبية عام ٦هـ ألف وأربعمائة بينما خرج معه عند فتح مكة عام ٨هـ عشرة آلاف وبذلك اتسعت رقعة انتشار الإسلام، وكسب نفوذا سياسيا لم يصل إليه من قبل وتضاعفت قوة المسلمين السياسية والمعنوية والمادية وأصبحوا مهيبين للتصدى لأى عدوان يمكن أن يتعرضوا له.

وليس معنى ذلك أن المسلمين بين صلح الحديبية وفتح مكة كانوا منتصرين على طول الخط، فقد نشطت قبائل نجد وشمال بلاد الحجاز للتصدى للمسلمين والعدوان على دولة المدينة. وربما يكون هؤلاء قد أطمعهم فى المسلمين بعض تساهلهم مع قريش حينما عقدوا صلح الحديبية، وظنوا أن هذا التساهل لم يكن إلا عن ضعف من المسلمين كما أنهم كانوا يعلمون أن بالمدينة منافقين يمكن أن يساعدهم فى الأنقضاض على المسلمين، زد على ذلك ما كان يقوم به يهود خيبر وغيرهم من اليهود الذين طردوا من المدينة من إثارة قبائل نجد وشمال بلاد الحجاز وجنوبى بلاد الشام على المسلمين. ولذلك ترى أن نشاط المسلمين العسكري كان موجها فى هذه الفترة ناحية الشرق والشمال. أما الجنوب حيث قريش فقد تكفل صلح الحديبية بفترة سلام استغلها المسلمون أحسن استغلال للدعوة إلى الإسلام وخاصة فى جنوب بلاد العرب وشرقيها، وللتصدى لأى عدوان قد يأتى من نجد فى الشرق أو من العرب واليهود فى الشمال. (١)

وقد نجح المسلمون فى التصدى لقبائل نجد وشمال الحجاز رغم ما تعرضوا له من بعض الهزائم القاسية، مثل هزيمتهم فى فدك فى شعبان عام ٧هـ ديسمبر ٨٢٨م عندما أرسلوا سرية لتأديب بنى مرة ومثل هزيمتهم فى ديار بنى سليم بنجد عندما هبت إليهم سرية بقيادة أبى العوجاء السلمى فى ذى الحجة عام ٧هـ / أبريل سنة ٦٢٩م لدعوتهم إلى الإسلام فحصروها وقتلوا معظم عند "ذات أطلاح" وراء وادى القرى من أرض الشام فى شهر ربيع الأول عام ٨هـ/ مارس

(١) النووى: صحيح مسلم بشرح الإمام محى الدين النووى، ج١٢، حقق أصوله وخرج أحاديثه خليل مأمون شجعه، ط٣، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٣٥٣.

٦٢٩م عندما ذهبت سرية بقيادة كعب بن عمير الغفاري إلى سكان ذات أطلاح من قضاة لدعوتهم إلى الإسلام، فرفضوا وقتلوا أفراد السرية عدا رجل واحد كما هزم المسلمون أيضا في مؤتة بأدنى البلقاء جنوبى بلاد الشام فى جمادى الأول عام ٨هـ/سبتمبر ٦٢٩م عندما أرسل النبي ﷺ حملة للرد على عدوان شر حبيل بن عمرو الغسانى الذى قتل الحارث بن عمير الأزدي الذى كان النبى قد أرسله إلى صاحب بصرى يدعوه ومن معه إلى الإسلام وقد جمع شر حبيل عشرات الآلاف من رجال القبائل التى تدين له بالطاعة مثل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام وانقضوا على جيش زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة الأنصارى فقتلوا هؤلاء القواد الثلاثة وقتلوا عدد آخر من المسلمين، وعاد خالد بن الوليد بباقيهم إلى المدينة.

ولم يمر شهر واحد حتى تعرض المسلمون فى المدينة لعدوان جديد عندما تجمعت قضاة وأرادت الزحف على المدينة، فأرسل لهم النبى ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص وصلت إلى ذات السلاسل وراء وادى القرى فى جمادى الأولى عام ٨هـ/سبتمبر ٦٩٥م.

ورغم هذه النكسات فلم يتوان المسلمون عن الرد عليها واستيعابها وتحقيق انتصارات كثيرة، يظهر ذلك من إرسال النبى ﷺ لعدد كبير من السرايا حققت هذه الأهداف. مثل ذلك سرية عمر بن الخطاب إلى هوازن فى منطقة تربة على الطريق إلى صنعاء على بعد أربعة ليال من مكة فى شعبان عام ٧هـ/ديسمبر سنة ٦٢٨م ومثل سرية أبى بكر الصديق إلى بنى كلاب بنجد فى شعبان عام ٧هـ/ديسمبر م ومثل سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة وراء بطن نخل بنجد فى رمضان من نفس العام، ومثل سرية القائد السابق إلى بنى الملوخ من بنى ليث بالكديدي فى صفر عام ٨هـ / يونية ٦٢٩ ثم سرية أيضا إلى فدك فى نفس الشهر للانتقام لبشير بن سعد وأصحابه الذين ذهبوا قبل ذلك يدعون إلى الإسلام، فقتل معظمهم ثم سرية شجاع بن وهب الأسدى إلى بنى عامر وهوازن بالمسير

على بُعد خمس ليالٍ من المدينة في شهر ربيع الأول عام ٨/هـ/يولية ٦٢٩م، ومثل سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى هوازن في خضرة بنجد في شعبان عام ٨/هـ/ديسمبر سنة ٦٢٩م، ومثل سرية سيف البحر إلى حى من جهينة عند ساحل البحر الأحمر في رجب عام ٨/هـ/نوفمبر ٦٢٩م، وقد سميت هذه الغزوة أيضاً باسم غزوة الخبط حيث أكل المسلمون أوراق شجر الطلح، لنفاد ما معهم من زاد، وأوراق هذه الأشجار تضرب وتخبط وتقدم عادة طعاماً للإبل. (١)

وفي هذه السرايا أحرز المسلمون النصر على أعدائهم وعادوا في غالب الأحيان محملين بالغنائم والأسرى، مما يدل على مدى القوة السياسية والعسكرية التي تمتع بها المسلمون في هذه الفترة مما جعلهم مهيين في نهايتها لفتح مكة وخاصة بعد أن اعتنق الإسلام قبائل عبد القيس بالبحرين وأزد بعمان وأبناء الفرس وحكام اليمن.

أ- غزوة مؤتة:

أراد رسول الله ﷺ أن يثأر لقتل رسوله الحارث بن عمير الأزدي علي يدي شرحبيل بن عمرو الغساني أمير مؤتة، ومقتل فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم علي معان وما حولها علي أيدي الروم بعد أن بلغهم إسلامه. فلما انصرف من عمرة القضاء في العام السابع للهجرة، علي ما عاهد عليه قريشاً في صلح الحديبية، أقام بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصيفاً وربيعاً من سنة ٨ للهجرة، ثم أرسل في جمادي الأولى من تلك السنة بعث الأمراء إلي الشام، لتأديب أمير مؤتة المذكور. (٢)

أعد رسول الله ﷺ جيشاً ضخماً عدته ثلاثة آلاف مقاتل علي رأسهم زيد بن حارثة، وأوصي المسلمين بانه إذا أصابه قدر فعليهم جعفر بن أبي طالب، فإن أصاب جعفرراً قدر فعلي الناس عبد الله بن رواحه الأنصاري ثم أوصي رسول الله

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٩.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٣، ص ٢٤١ وما بعدها.

أمراء جيشه: فقال "أوصيكم بتقوي الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، أغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لاتغدروا ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً. (١)

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلي إحدي ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها، فاقبل منهم واكفف عنهم، ثم ادعهم إلي التحول من دارهم إلي دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما علي المهاجرين، إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين، ويجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفئ ولا في الغنيمة شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلي إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، فإن أبو فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكن أجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين للناس، فلا تتعرضوا لهم..... لا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً، ولا تغرقن نخلاً، ولا تقلعن شجراً ولا تهدموا بيتاً".

وشييعهم رسول الله ﷺ وودعهم، وسار جيش المسلمين حتي بلغ معان من أرض الشام، وهناك بلغهم أن هرقل ملك الروم قد نزل أرض مأب وهي أرض البلقاء، في ألف ومائة ألف أخري من نصاري الشام (٢) من لحم وجذام وقبائل قضاة من بهراء وبلي وبلقين وعليهم رجل من بني إراشة من بلي يقال له مالك بن راقلة. فأقام المسلمون في معان ليلتين يفكرون فيما يصنعونه، فأراد بعضهم أن

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ١، ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) هذا الرقم مبالغ فيه للغاية، ولا يعقل أن يصمد ثلاثة آلاف يؤلفون جيش المسلمين أمام مائتي ألف من الروم والعرب المنتصره ولذلك لا نأخذ به، ولكننا نستدل من المبالغة في تضخيم جيش العدو علي أن قوته كانت تفوق قوة المسلمين بمراحل من حيث العدد ومن حيث السلاح أيضاً.

يكتب إلي رسول الله يخبرونه بعدد العدو فيأمرهم إما بالعودة أو يزودهم بأمداد بعينهم علي حرب العدو، فقال عبد الله بن رواحه: "يا قوم، إن الذي تكرهون التي خرجتم تطلبون- يعني الشهادة- وما نقابل الناس بعدد ولا قوة، وما نقاتلهم إلا بهذا الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فهي إحدى الحسينين: إما ظهور وإما شهادة. فوافقه الجميع علي هذا الرأي وأخذهم الحماس، فزحفوا إلي مؤته حيث وافاهم المشركون، واشتبك الفريقان في القتال، واقتتلوا قتالاً شديداً حتي قتل زيد بن حارثة، ثم أخذ جعفر بن عبد المطلب الراية وقاتل بها حتي قطعت يمينه، فأخذ الراية بيسراه فقطعت يسراه، فتلقي الراية في صدره واحتضنها، فقتل كذلك. فأخذ عبد الله بن رواحة الراية، وتردد عن النزول بعض التردد، ثم صمم فقاتل حتي استشهد فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان، ودعا قومه إلي اختيار قائد منهم، فلما اختاروه رفض، فأخذهم خالد بن الوليد، وانحاز بالمسلمين، وعاد بهم إلي المدينة. (١)

كان ذلك أول اشتباك جري بين المسلمين وبين الغساسنة والروم، وتتنصر أهميته في أنه أول تجربة حربية تجتازها الدولة العربية الإسلامية علي مستوى دولي، وإذا كانت موقعة مؤته انتهت بهزيمة جيش المسلمين، فإنما اعتبرها رسول الله جولة تعقبها كرة، فلما عير أهل المدينة أصحاب مؤته بأنهم فروا من المعركة، رد علي اتهام المسلمين بقوله: "بل هم الكرار إن شاء الله".

وبالإضافة إلي أنها كانت اختباراً لقوة المسلمين/ وفرصة للجيش الإسلامي للاحتكاك الدولي في شمال شبه الجزيرة، فقد كان لذلك نتائج أدبية خطيرة إذ فتحت المجال أمام القبائل العربية الضارية في الشمال للدخول في الإسلام. علي أن قريش اعتبرت مؤته هزيمة إن دلت علي شئ فعلي ضعف سلطان المسلمين، وخيل إلي قريش أن هزيمة مؤته بداية لسلسلة من الهزائم، وعندئذ عزموا علي إعادة الأمور إلي مثل ما كانت عليه قبل الحديبية، وذلك بنقض الصلح المذكور.

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٢٢٥-٢٢٧.

ب- فتح مكة:

كانت خزاعة قد دخلت في عهد النبي ﷺ مؤمنها وكافرها إذ كان عبد المطلب وخزاعة حلفاء قديماً ، كما أصبح بنو بكر بن عبد مناة في عقد قريش وعهدا. وكانت بين خزاعة وبكر ثارات قديمة في الجاهلية يرجع سببها إلي اعتداء خزاعة علي حليف لآل الأسود بن رزن قتلوه واستدلوا علي ماله، فثارت بنو بكر بن عبد مناة يومئذ وهم رهط الأسود بن وزن، من أحد بني خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة علي سلمي وكتلوم وذؤيب من بني الأسود بن رزن، فقتلوه ثم ظهر الإسلام واشتغل الناس به، فلما دخلت خزاعة في عهد النبي بعد صلح الحديبية، دخلت بكر بن عبد مناة في عهد قريش في هذا الصلح وغفلة خزاعة وأرادت إدراك ثأر بني الأسود بن رزن، فخرج نوفل بن معاوية الدثلي بمن أطاعة من بني بكر وبيت خزاعة وهم علي ماء لهم يقال له الوثير بأسفل مكة، فاقتتلوا، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح، بل اشترك جماعة من قريش في القتال إلي جانب بني بكر مستخفين، فانهزمت خزاعة إلي الحرم، وعمد قوم نوفل بن معاوية إلي إدراك ثأرهم في خزاعة في داخل الحرم، فقتلوا رجلا من خزاعة يدعي منبه، فاضطرت خزاعة إلي التجاء إلي دار بدنيا بن ورقاء الخزاعي ودار مولي لهم اسمه رافع في داخل مكة وسلاحها علي خزاعة نقضاً للعهد الموقع يوم الحديبية، ولذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي ومعه أحد بني كعب وبديل بن ورقاء وقوم من خزاعة إلي المدينة حتي قدموا علي رسول الله، واستغاثوا به مما أصابهم علي يد بني عبد مناة وقريش، فوعدهم رسول الله بالنصرة. (١)

أما قريش فقد ندمت علي ما قدمته من عون لبني بكر، وأدرك شيوخها أنه لا بد من عمل شيء لتمكين الصلح والزيادة في مدته ، فأوفدوا أبا سفيان بن حرب لهذا الغرض، فخرج أبو سفيان إلي المدينة ليشهد العقد ويزيد في المدة وعندما دخل المدينة عمد إلي مقابلة أبنته أم حبيبة زوج النبي صلي الله عليه وسلم فأساءت

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٨٧.

استقباله، فمضي لمقابلة النبي في المسجد وكلمه، فلم يجبه بكلمة فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر و علي حتي يتوسطوا بينه وبين رسول الله، فأبوا جميعاً ، فعاد إلي مكة يجر أذيال الفشل والهوان. (١)

وعزم رسول الله علي فتح مكة ، فأعد جيشاً كثيفاً من أهل المدينة لم تشهد له الحجاز من قبل عدته عشرة آلاف (٢) ودعا الله أن يأخذ عن قريش بالأخبار بقصد مفاجأتها بالفتح. وخرج رسول الله بجيشه من المدينة في العاشر من رمضان بعد أن استخلف علي المدينة كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري.

وتجمع المصادر علي أن أبا سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزم خرجوا من مكة يتلقون الأخبار ، كما تجمع علي أن العباس بن عبد المطلب، الذي وقف إلي جانب الرسول في بيعة العقبة الثانية والذي كان يوافي النبي ﷺ بأخبار مكة وتحركاتها ضده، خرج مهاجراً وأنه لقي رسول الله في ذي الخليفة، وفي ذلك دلالة علي أن قريش كانت تتوقع مسيرة الرسول ﷺ . والخروج العباسي للقاء النبي مغزيان: الأول أن يصبح مهاجراً قبل أن يفتح رسول الله ﷺ مكة، والثاني أن يأخذ الأمان لقريش.

كذلك لم يكن خروج كلا من أبي سفيان وبديل بن ورقاء معاً مجرد صدفة أو اتفاقاً وإنما ليسهل له بديل الاتصال بالرسول ، كما أن لقاء أبي سفيان بالعباس وهو راكب بغلة النبي لم يكن مجرد صدفة أو محض اتفاق، ومن المعتقد أنه اتفق معه علي هذا اللقاء حتي يجيره العباس أمام المسلمين ويمنعه من التعرض لسيوفهم ، وفي نفس الوقت ليمثل قريش أمام الرسول، ويعلن إسلامه، وعندئذ يؤمن الرسول ﷺ أهل مكة، فلا تفتح عنوة.

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص ٢٣٤.

(٢) اشتركت في تشكيل هذا الجيش جموع من مختلف قبائل العرب: فمن بني سليم ألف رجل وقيل سبعمائة، ومن مزيد ألف رجل وثلاثة، ومن غفار أربعمائة، وطوائف أخرى من قيس وأسد وتميم.

وعندما أسلم أبو سفيان في حضر النبي ، قال العباس: "يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً". فقال له رسول الله ﷺ: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن" وبذلك أصبحت مكة مؤمنة علي دماء أهلها وذريتهم وأموالهم ونسائهم، إلا من قاتل أو استثنى فقط.

ثم عاد أبو سفيان إلي مكة ليلبغ قومه بتأمين رسول الله، لكل من دخل داره أو المسجد الحرام أو دار أبي سفيان. ولكن جماعة من شباب قريش من بينهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهل بن عمرو صمموا على القتال فناوشهم أصحاب خالد القتال، فقتل من المشركين ٣ رجالاً وقيل ٢٣ بينما قتل من المسلمين رجال.

وكان رسول الله ﷺ قد جعل الراية بيد سعد بن عباد، فبلغه أنه قال: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فأمر النبي أن يدفع الراية إلي الزبير، وقيل إلي علي بن أبي طالب، وقيل إلي قيس بن سعد بن عباد. ثم قسم الرسول جيشه إلي فرق بأعلي مكة عند المحصب، وأمر الزبير خالداً قائداً المسيرة أن يدخل من ناحية ذي كداء وهو موضع بأعلي مكة عند المحصب بدخول مكة من جهة الليط بأسفل مكة، أما قلب الجيش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح فقد دخل من ذي طوي وبدخول المسلمين مكة، سقط معقل الوثنية في جزيرة العرب في أيدي المسلمين، وأمر رسول الله أهل مكة حاشا عدة نفر منهم عبد العزي بن خطل وعبد الله ابن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي، ومقيس بن صباب، بعضهم قتل مثل ابن خطل، وبعضهم استأمن رسول الله مثل عبد الله بن سعد، وبعضهم خرج فاراً من مكة مثل عكرمة بن أبي جهل. وعفا رسول الله عن عامة قريش وقال لهم: "ما تظنون؟ قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً: أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت. قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام

(لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)"^(١) ثم طاف رسول الله صلي الله عليه وسلم بالكعبة، وأمر بكسر الصور التي كانت منصوبة داخل الكعبة وخارجها وتحطيم الأصنام التي حول الكعبة وبمكة، وأذن له بلال علي ظهر الكعبة ولم يكتف النبي بذلك بل بعث خالد ابن الوليد إلي العزي وكان بيتاً بنخلة تعظمه قريش وكنانة ومضر، فهدمه، وافتح مكة تحققت المرحلة الأولى الهامة من توحيد الأمة العربية بالإسلام، وخرجت الدولة العربية الإسلامية من نطاق الدولة المدنية إلي نظام الدولة الكبيرة، ولم يمض عام واحد حتي امتد سلطانها إلي جميع بلاد العرب.

دور الاستخبارات في فتح مكة:

ما حدث في فتح مكة أن القوة الضربة للمسلمين كانت تعرف كل صغيرة وكبيرة عن قوة قريش وما يحيط بها من كل الجوانب بجانب أن المسلمين استطاعوا أن يعرفوا من وفد بني خزاعة الذي وصل إلي المدينة في وقت مبكر أمر نقد قريش للهدنة المعقودة بينهما وعن طريق الدراسات النفسية تبين لهم تردد قريش في قراراتها. ^(٢)

الأمر الذي جعلهم يحسبون على الرسالة السرية التي أرسلها حاطب بن أبي بلتعة يريد بها إخبار قريش بتحريك القوة الضاربة للمسلمين بمهاجمتهم، حدث هذا في الوقت الذي لم تستطع فيه قريش الحصول على أي معلومة في أي وقت قبل المعركة حتى وصول قوة المسلمين إلي مشارف مكة.

ولقد حاول أبو سفيان قائد قريش في كثير من الغزوات أن يعرف ميّات المسلمين من ابنته أم حبيبه وزوجة الرسول ﷺ ففشل، وحاول أن يعرف ذلك من قبل

(١) القرآن الكريم، سورة يوسف، آية ٩٣.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف : الدولة الإسلامية الأولى، ص ٢٤١؛ عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٣١.

بعض المسلمين فأخفق، وحاول أن يعرف شيئاً من وفد خزاعة الذي جاء إلى الرسول ﷺ في مهمة سرية فأنكر الوفد معرفة أى شئ.

وهكذا بقيت قريش فى عماية من أمرها حتى وصل جيش المسلمين إلى مكة وحاصرها من كل جوانبها ولم تجد بدأ من التسليم للقوة التى لا تغلب.

ج- غزوة حُنين والطائف:

كانت مكة تحمل لواء المعارضة للإسلام قبل أن يفتتحها رسول الله، فلما فتحت اعتبرت قبيلة هوازن وقبيلة ثقيف في الطائف ذلك ضربة قاضية للوثنية في الجزيرة العربية، وأيقنوا بأن الضربة التالية سيوجهها النبي إليهم ، لارتباط الطائف بمكة في الجاهلية. فعندما بلغ فتح مكة هوازن جمعهم مالك بن عوف النصري واجتمع إليه ثقيف وبنو نصر بن معاوية وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وجماعة من بني هلال بن عامر، وصموا علي محاربة النبي قبل أن يشرع في الزحف عليهم. فخرجوا ومعهم أموالهم وماشيئتهم ونساءهم وأولادهم، ونزلوا بأوطاس، وهناك اعترض عليهم دريد بن الصمة من بني جشم علي اصطحاب النساء والأطفال، ونصح مالكا ابن عوف بتقديم فرسان هوازن لمحاربة المسلمين، فخالفه مالك وخالفته هوازن. ولما علم رسول الله بخروجهم أعد جيشاً من المسلمين، وخرج في أثني عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من مسلمى الفتح. (١)

وما أن وصلت طلائع المسلمين إلي وادي حنين في أول شوال من العام الثامن، وهو واد منحدر من أودية تهامة في الصباح الباكر حيث يختلط ضوء الصباح بالظلام، فوجئوا بكمائى هوازن تترصدهم في جنبتي الوادي، وأحدث هذا الهجوم المفاجئ أثره في إرباك المسلمين، فولي المنهزمون منهم لا يلوي أحد علي أحد فناداهم رسول الله فلم يرجعوا، وثبت مع النبي ﷺ وهو علي بغلته عدد من كبار الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه جعفر. ثم أمر رسول الله العباس أن ينادي الأنصار والمهاجرين، وكان العباس جهير

(١) ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٤٧٨-٤٨٢؛ الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٧٠-٨٧.

الصوت، فسمعه القوم، فكر عدد منهم إلي النبي، استقبلوا هوازن بالقتال، ثم توافد المسلمون، واشتد القتال، وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين، فانهزمت هوازن، واستمر القتل في بني مالك من ثقيف، فقتل منهم يؤمئذ سبعون رجلاً، وفر مالك بن عوف إلي الطائف، بينما لاذت طائفة من هوازن إلى أوطاس وفرت طائفة من الأحلاف ثم ثقيف إلى نخلة فتعقبهم بعض الصحابة وقتلوا بنخلة دريد بن الصمة. ثم بعث الرسول ﷺ إلي من اجتمع من فل هوازن بأوطاس أبا عامر عبيد الأشعري، فقتل أبو عامر بسهم، فتولي أبو موسى الأشعري القيادة وقتل قاتل عمه، واستمر القتل في بني نصر بن معاوية فقتل منهم نحو عشرة من المشركين. (١)

ثم أرجأ رسول الله ﷺ توزيع الغنائم ورد النساء والذرية إلي هوازن إلي حين عودته من الطائف، فقد عزم ﷺ أن يمضي من حنين إلي الطائف مباشرة دون أن يعرج علي مكة، حتي يفتحها. وكان أهل الطائف قد استعدوا للحصار، فرمموا حصنهم وجمعوا فيه الميرة فسلك النبي في طريقه من الجعرانة إلي الطائف علي نخلة اليمانية ثم علي قرن، ثم علي المليح، ثم علي مجرة الرغاء من لية، وكلها من نواحي الطائف، وهدم في طريقه إلي الطائف حصناً ببحرة الرغاء لمالك بن عوف، وأطمأن لرجل من ثقيف.

فلما وصل رسول الله ﷺ بالمسلمين إلي الطائف رمتهم ثقيف بالحجارة والنبال، فأصيب بالنبال جماعة من المسلمين، فنصب رسول الله منجنيقاً علي حصنهم رماهم به، ثم دخل نفر من المسلمين تحت دبابه من جلود البقر ودنوا بها من سور الطائف، فحذفتها ثقيف بسكك الحديد المحماة فأحرقتها، وأصيب من كان تحتها من المسلمين بنبال الرماة. وأقام رسول الله علي حصار الطائف خمس عشرة ليلة ثم رحل عنها إلي الجعرانة حيث رد علي هوازن أبناءهم، وقسم الأموال بين المسلمين، ثم أعطي من نصيبه (الخميس) المؤلفثة قلوبهم منهم: أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية وحكيم بن حزام بن خويلد والحارث بن كلده والحارث بن هشام

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٣٢-١٣٤.

بن المغيرة المخزومي . ثم اعتمر رسول الله من الجعرانة إلي مكة، ورجع إلي المدينة بعد أن استعمل علي مكة عتاب بن أسيد، فأقام الحج بالمسلمين تلك السنة، وهو أول أمير أقام الحج في الإسلام، فدخل المدينة في اليوم الرابع والعشرين من ذى القعدة. (١)

ولم يلبث بنو ثقيف أن أدركوا عبث مساوئهم للرسول، لقلّة إمكاناتهم قياساً إلي إمكانات المسلمين، وخافوا أن يعود النبي ﷺ إليهم ليعاود قتالهم، فأرسلوا إليه وفداً يرأسه بن عمير، فصالحهم الرسول علي أن يسلموا ويقرهم علي ما في أيديهم من الأموال.

دور الاستخبارات في غزوة حنين:

بعد فتح مكة قررت هوازن وسقيف أن تغزو المسلمين قبل أن يغزوهم فأرسل الرسول ﷺ عبد الله بن أبي حدره الأسلمي ليأتيه بالمعلومات اللازمة لإيقاف تحرك هوازن وسقيف.

يقول ابن إسحاق فلما سمع بهم النبي ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدره وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم فانطلق بن أبي حدره فدخل فيهم وأقام حتى سمع وعلم ما قد اجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ وسمع من مالك بن عوف قائد هوازن ثم أتى الرسول ﷺ فأخبره الخبر، ومن خلال هذه المعلومات عرف النبي بنية الأعداء ومكان تجمعهم فقرر مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادرة بيد المسلمين، وقد مكنت يقظة رجال المخابرات وقدرة الجيش على الحركة السريعة من إجهاض تدابير العدو بالعدوان على المدينة.

ولقد أرسل المشركون دوريات استطلاع لمعرفة اتجاه حركة جيش المسلمين، والمواضع التي وصلوا إليها وكانت فائدة هذه الدوريات عظيمة لأنهم أنجزوا احتلال وادي حنين قبل وصول المسلمين إليهم وباغتوا المسلمين حين دخلوا

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٨٨، ٨٩.

فيهم ولولا دوريات استطلاعهم لما استطاعوا معرفة المواضع التي وصلها المسلمون فبنوا خطتهم على ضوء تلك المعلومات وأمكنهم مباغته جيش المسلمين. لم تنجر مقدمة جيش المسلمين هذا الواجب حيث أنها لم تستطع معرفة مواضع المشركين التي احتلوها في وادي حنين واندفعت المقدمة بسرعة مباغته على غير هدى وبصيرة، واندفعت ورائها قوات المسلمين باعتقادها أن اندفاعها هذا آمن وغير خطر.

إن من أهم أسباب هزيمة المسلمين في معركة حنين عدم قيام مقدمتهم بواجبها، فلم تحصل على المعلومات عن مواضع تجمعات العدو ولم تمنع مباغته العدو للقسم الأكبر.

د- غزوة تبوك وتوحيد جزيرة العرب:

تعتبر غزوة تبوك وما يليها من شمال الحجاز مثل أيلة وأذرح ومقنا والحرباء آخر غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه. ففي رجب من العام التاسع للهجرة عزم رسول الله علي تجهيز جيش بقيادته لغزو المناطق الشامية الواقعة علي تخوم الحجاز، منذ أن بلغته الأنباء بقيام صاحب تبوك بحشد جموع كبيرة من الروم ومنتصرة العرب. (١)

فأذن رسول الله بغزو الروم، واتفق أن استنفاه جاء في أوان حر شديد حين طاب أول الثمر، وفي عام جذب، ولهذا السبب قوبل الاستنفاه بفتور من المنافقين وتناقل من بعض الصحابة، وساعد علي ذلك الشعور أن نفرأ من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي عند بئر جاسوم يثبطون الناس عن المضي للغزو فبعث رسول الله طلحة بن عبيد الله في نفر من المسلمين وأمرهم بإحتراق البيت عليهم ، ففعلوا.

ثم خرج رسول الله من المدينة فتخلف عبد الله بن أبي بن سلول مع جماعة من أهل النفاق والريب يتراوح عددهم ما بين السبعين والثمانين، واستمر النبي ﷺ في

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٩٢-٩٣.

مسيرته حتي وصل إلي تبوك، فلم يلق بها كيداً ، وصالحه أهلها علي الجزية. وأقام بها عشرين ليلة، وأتاه إليها وهو بها يحنه بن رؤبة صاحب أيلة، فصالحه علي أن يؤدي عن كل حالم بأرضه ديناراً في السنة، فبلغ ذلك ٣٠٠ دينار. واشترط عليهم أن يقرؤا من يمر بهم من المسلمين. كما قدم عليه وهو بتبوك أهل أذرح فصالحهم علي مائة دينار في كل شهر رجب، وصالح أهل الجرباء علي الجزية، وأهل مقنا اليهود علي ربع أشجارهم وربع سلاحهم وربع ثمارهم. وكتب لأهل جرباء كتاباً نصه: "هذا كتاب من محمد النبي رسول الله، أنهم آمنون بأمان الله أمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم. وكتب لأهل مقنا عهداً نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلي بني حبيبة وأهل مقنا . سلم أنتم. فإنه أنزل علي أنكم راجعون قريبتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون، ولكم ذمة الله وذمة رسوله. فإن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم أتبعتم به، لا شريك لكم في قريبتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله وإنه لا ظلم عليكم ولا عدواً وأن رسول الله ﷺ يجيركم مما يجير منه نفسه، فإن لرسول الله بزيتم ورفيقكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله، أو رسول رسول الله وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عركم، وربع ما اعتزلت نساؤكم. (١)

وأنكم قد برئتم بعد ذلكم، ورفعكم رسول الله ﷺ عن كل جزية وسخرة فإن سمعتم وأطعتم فعلي رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، ومن أئتمر في بني حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له. وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله ﷺ. وكتب علي بن أبي طالب في سنة تسع".

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلي أكيدر بن عبد الملك الكندي بدومة الجندل حتي يضمن بذلك خضوع كل منطقة شمال الحجاز والبادية للدولة العربية

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ١٠٠-١٠٩.

الإسلامية فلا يتمكن أهلها من إعانة الروم إذا ما قدموا إلي بلاد الحجاز من هذه الناحية. ويذكر المؤرخون أن خالد تمكن من أسر أكيدر وقدم به علي رسول الله، فعفا عنه عندما أعلن إسلامه، وصالحه علي الجزية وكتب له ولأهل دومة الجندل كتاباً جاء فيه: " هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلي الإسلام وخلع الأنداد والأصنام ولأهل دومة. إن لنا الضاحية من الضحل، والبور والمعامي وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح والحافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور. ولا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النباتات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم به الصدق والوفاء شهد الله من حضر من المسلمين"، وكان أكيدر قد تنازل للمسلمين عن ألفي بغير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح. (١)

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلي المدينة بعد عشرين ليلة قضاها في تبوك لم يتجاوزها، فوصل إلي المدينة في رمضان سنة تسع من الهجرة.

ولما حان موعد الحج، عهد رسول الله ﷺ إلي أبي بكر بإمارة الحج، وذلك في نهاية العام التاسع، ثم أصدر بيان براءة تضمنتها سورة من سورة القرآن الكريم هي سورة التوبة، وفوض إلي علي بن أبي طالب مهمة قراءتها علي مشهد من جميع الحجاج بمكة، وفي هذا البيان نبذ عهوده التي كان قد عقدها مع القبائل التي وادعها والتي لم تدخل بعد في الإسلام، وألغي كل عقد أبرمه معها، وأمهل هذه القبائل أربعة أشهر لإشهار إسلامها والدخول في الدولة العربية الإسلامية وإلا اعتبروا خارجين علي نظامها ووجب علي المسلمين محاربتهم، وجاء في البيان أن مكة أصبحت بحرماً إسلامية بعد أن برئت الكعبة من الأصنام، وأن الحج أصبح يجري علي الطريقة الإسلامية، وأنه لا يجوز لغير المسلم أن يحج ويقرب من المسجد الحرام، ويتعرض البيان للمناققين فينذرهم بالعقاب. وتبدأ السورة المذكورة بذكر براءة صادرة من الله ورسوله إلي المعاهدين من المشركين، ومعني هذا أن الله

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٣٤-١٣٧.

ووفقاً لهذا البيان المعروف ببراءة يتضح لنا أن موقف النبي ﷺ مع الوثنيين كان يختلف في حالتين: فالمشركون الذين كانوا يرتبطون معه بعهود سابقة تنص علي مدة معينة لم ينقصوها بنكث أو نقص ولم يظاهروا عليه أثناءها أحداً ، توفي إليهم عهودهم إلي مدتهم التي ارتبط النبي بها، علي ألا يسمح بتجديدها لتغير الظروف، وعليهم أن يدخلوا في الإسلام وإلا حل علي المسلمين قتالهم بعد ذلك أما المشركون الآخرون فإنهم يمهلون فترة الأشهر الأربعة الحرم، فإذا ما انسلخت هذه الأشهر حل للمسلمين قتالهم أينما وجدوهم حتي يتوبوا إلي الله ويعتنقوا الإسلام . ويحرم الله تعالي علي هؤلاء المشركين دخول المسجد الحرام والحج مع المسلمين.

(١)

أما فيما يتعلق بالنصاري واليهود أن يعلنوا خضوعهم للدولة العربية الإسلامية عن طريق الجزية يعطونها عن يد وهم صاغرون. أما المنافقون ممن عاهدوا الرسول ولم يستقيموا وأبت قلوبهم أن تتقبل الإسلام فعليهم أن يطهروا أنفسهم من النفاق، ويتوبوا إلي الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن نكثوا إيمانهم فهم كفرة حل قتالهم.

وكان بيان براءة بمثابة إنذار وجهه رسول الله ﷺ إلي المشركين في موسم الحج، وهو الموسم الذي يجتمع فيه كل ممثلي قبائل العرب في بلاد العرب، بعد أن مكن لنفسه ولدولته بالانتصارات التي أحرزتها دولة الرسول في المدينة في

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الصحابة، جدة، ١٩٩٠م، ص ٥١١.

السنين التسعة التي مرت بعد الهجرة، مثل وقعة بدر الكبرى، وغزوة الأحزاب، وفتح مكة، وغزوة تبوك، وغزوة دومة الجندل. وهدف بيان براءة هو ضم جميع قبائل العرب في شبه الجزيرة إلى الدولة العربية الإسلامية عن طريق إعلان تحولها إلى الإسلام وخضوعها لدولة الإسلام وعلي هذا النحو بدأت وفود القبائل العربية تصل تباعاً بعد فترة قصيرة من إذاعة هذا البيان، معلنة خضوعها للإسلام ودخولها في طاعة الدولة العربية وكان رسول الله ﷺ يرسل مع هذه الوفود معلمين مهمتهم تعليم هذه القبائل قواعد الإسلام وفي نفس الوقت تحصيل الصدقات منهم، وبفضل هؤلاء المعلمين دخلت قبائل العرب في الإسلام، ووصل الفائض من مال الصدقات بعد توزيع ما استلزم توزيعه علي فقراء هذه القبائل إلى المدينة.

وهكذا لم يحل العام العاشر للهجرة حتي كانت كل جزيرة العرب دولة عربية إسلامية موحدة، وعرف العام التاسع بعام الوفود، ففيه تواترت وفود العرب تعلن إذعانها للإسلام، وبوادر هذه الوحدة بدأت تظهر بعد عودة رسول الله من غزوة تبوك، فقد ذكر ابن سعد أنه لما رجع رسول الله من تبوك في العام التاسع قدم عليه وفد بني فزارة، وكان يتألف من بضعة عشر رجلاً جاؤوا مقرين بالإسلام، كذلك قدم وفد بني مرة علي رسول الله عقب عودته من تبوك وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، وفي هذا العام وفد إلي رسول الله وفد بني كلاب وكانوا ثلاثة عشر رجلاً ووفد قشير بن كلب بعد غزوة حنين، ووفد ثقيف ووفد بني البكاء ووفد تجيب ووفد بني عذرة ووفد بلي ووفد الدارين، وقدم في سنة عشر للهجرة وفد محارب ووفد خولان ووفد سلامان ووفد غسان ووفد بني الحارث بن كعب ووفد الرهاويين من بني مذحج ووفد بجيلة. وكان أول من أعطي الجزية للنبي من أهل الكتاب أهل نجران النصراني، ثم أهل أيلة وأذرح، وأهل أذرعات في غزوة تبوك، ثم فرضت الجزية في اليمن وهجر علي اليهود والمجوس من أهلها. غير أن الإسلام لم يلبث أن انتشر انتشاراً سريعاً في اليمن وقد رأينا وفودهم تأتي المدينة معلنة دخولها في الإسلام، كما أن البعض الآخر ممن أصروا علي التمسك بدينهم القديم لم يلبثوا بدورهم أن اعتنقوا الإسلام،

ويرجع سبب دخولهم في الإسلام إلي أن النبي أرسل إلي هذه القبائل المحافظة علي أديانها علي بن أبي طالب وخالد ابن الوليد لدعوتهم إلي الإسلام، وأوصاهما بقوله: "أمض ولا تلتفت، إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتي يقاتلوك" أما علي بن أبي طالب فقد اضطر إلي الدفاع عن نفسه عندما تحرش به جماعة من اليمينيين من مزحج فلما تغلب عليهم أجابوا دعوته إلي الإسلام. وأما خالد بن الوليد فقد مضى إلي بني الحارث بن كعب بنجران ودعاهم إلي الإسلام فأجابوه دون قتال، وقدم خالد ومعه وفد منهم لإعلان إسلامهم وكان النبي حريصاً علي إرسال معلمين إلي القبائل بقصد تعليمهم الشريعة الإسلامية وقواعد الإسلام. (١)

وجباة للصدقات فقد عهد الرسول ﷺ إلي عمرو بن حزم بالخروج إلي بني الحارث بن كعب ليعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في الدين ويجبي منهم الصدقات. كما ولي زياد بن ليبيد حضر موت، والمهاجرين أبي أمية بن المغيرة المخزومي صنعاء، وأبا موسى الأشعري زبيد ورمع وعدن والساحل، ومعاذ بن جبل الجندل، وصير إليه القضاء، وقبض جميع الصدقات باليمن، وولي عمرو بن حزم الأنصاري ثم أبا سفيان بن حرب علي نجران. وقد كتب رسول الله إلي زرة بن ذي يزن زعيم حمير باليمن كتاباً يخبره فيه بتعيينه معاذ بن جبل علي الصدقات، ونص الكتاب ما يلي: "أما بعد، فإذا أتاكم رسول معاذ بن جبل وأصحابه فاجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية بأبلغوه ذلك، فإن أمير رسلي معاً، وهو من صالح من قبلي، وإن مالك بن مرارة والرهاوي حدثني أنك قد أسلمت أول حمير وفارقت المشركين، فابشر بخير. وأنا أمركم يا معشر حمير ألا تخونوا ولا تحادوا، فإن رسول الله مولي غنيكم وفقيركم. وإن الصدقة لا تحل لمحمد، ولا لآله، إنما هي زكاة تزكون بها هي لفقراء المسلمين والمؤمنين. وإن مالكم قد بلغ الخبر وحفظ الغيب، وإن معاذاً من صالح أهلنا وذوي ديني، فأمركم به خيراً، فإنه منظور إليهِ والسلام". كذلك كتب إلي الحارث ابن عبد كلال، ونعمي بن عبد كلال، وشرح

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٩٦.

بن عبد كلال، وإلي النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان، كتاباً نصه: "أما بعد، فإن الله قد هداكم بهدأيته إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة من المغانم خمس الله وسهم النبي وصفيه وما كتب الله علي المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء وما سقي بالقرب نصف العشر". (١)

كذلك أرسل النبي ﷺ إلي أزد عمان أبا زيد قيس سكن بن زيد، وقيل ثابت ابن زيد الأنصاري الخزرجي أحد من جمع القرآن علي عهد رسول الله ﷺ ليعلم أهلها الإسلام والقرآن والسنن. وأرسل النبي ﷺ إلي عرب عبد القيس وبكر ابن وائل وتميم بالبحرين العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي ليدعو أهلها إلي الإسلام أو الجزية، وكتب معه إلي أميرها من قبل الفرس ويدعي المنذر بن ساوي وإلي مرزبان هجر واسمه سيخت، ويدعوها إلي الإسلام أو الجزية، فأسلما وأسلم معهما جميع العرب في هاتين المنطقتين وبعض العجم. أما المجوس واليهود والنصاري فقد صالحو العلاء علي الجزية بسبب تمسكهم بأديانهم ، فقال منافقو العرب وقتئذ: "زعم محمد لا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، وقد قبلها من مجوس هجر وهم غير أهل كتاب"، فنزلت الآية الكريمة: " ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿ ١٠٥". المائدة آية ١٠٥.

وبدخول قبائل العرب في الإسلام، وقدم وفودهم إلي المدينة في عامي ٩، ١٠ من الهجرة، تبدأ صفحة جديدة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية ، التي أصبحت تضم جميع قبائل العرب على اختلاف أديانهم بأستثناء منازرة الحيرة

(١) البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص

وغساسنة جلق والجابية، وهؤلاء الغساسنة بوجه خاص كانوا يشكلون خطراً ماثلاً علي الدولة العربية من الجهة الشمالية، وقد أدرك النبي هذه الحقيقة منذ أن اعترض شرحبيل بن عمرو الغساني رسول النبي وقتله، ومنذ أن احتك بهم المسلمون في غزوة موتة، ولذلك فقد عزم النبي ﷺ علي إنفاذ حملة جديدة لتأديبهم وأعد هذه الحملة وجعل علي قيادتها أسامة بن زيد بن حارثة، وكان هدفها غزو مشارف الشام (تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين)، ولكن لم يقدر لهذه الحملة أن تحقق مهمتها في حياة الرسول، وقدر أن يتم ذلك في بداية خلافة أبي بكر.

هـ- حجة الوداع (١٠هـ):

ثم حج النبي ﷺ حجة الوداع في ذي القعدة من العام العاشر ، وشهد انتصار الإسلام علي الوثنية ممثلاً في الحشود الهائلة من الحجاج الذين امتلأت بهم ساحة الحرم ، وشهد النبي كيف ارتفعت كلمة الإسلام في هذا العدد الضخم من الحجاج الذي بلغ ما يقرب من مائة ألف حاج من العرب ليس بينهم مشرك واحد.

ولما أدي النبي ﷺ مناسك الحج علي النظام الإسلامي ، وخطب في المسلمين في عرفات خطبته الأخيرة، وعاد إلي المدينة في ١٤ من ذي الحجة سنة ١١هـ ثم مرض مرضه الذي مات فيه يوم ٢٧ صفر وهو في بيت ميمونة أم المؤمنين ، فأستأذن صلوات الله عليه نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له في ذلك وطال مرضه ﷺ أتتى عشر يوماً وقبله أربعة عشر يوماً ثم قبض يوم الاثنين لاثنتي عشرة من ربيع الأول بعد أن أكمل رسالته، وأتم نعمته علي المسلمين أو كما قال الله تعالي "اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً". (١)

(١) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٣، ص ١٤٨ وما يليها.

الفصل الرابع

عصر الخلفاء الراشدين

(١١-٤٠هـ/٦٣٢-٦٦١م)

السنوات الميلادية	الخلفاء الراشدين	السنوات الهجرية
٦٣٢	أبو بكر الصديق	١١
٦٣٤	عمر بن الخطاب	١٣
٦٤٤	عثمان بن عفان	٢٣
٦٥٦-٦٦١	علي بن أبي طالب	٣٥-٤٠

الفصل الرابع

عصر الخلفاء الراشدين

(١١-٤٠هـ / ٦٣٢-٦٦١م)

مبدأ ونهاية حكم الخلفاء الراشدين:

السنوات الهجرية	الخلفاء الراشدين	السنوات الميلادية
١١	أبو بكر الصديق	٦٣٢
١٣	عمر بن الخطاب	٦٣٤
٢٣	عثمان بن عفان	٦٤٤
٤٠-٣٥	علي بن أبي طالب	٦٥٦-٦٦١

أزمة الحكم بعد وفاة الرسول ﷺ:

كان لشخصية الرسول أثر كبير في نفوس العرب حتى أنهم لم يصدقوا موته عندما علموا به، فلما تحققوا من ذلك، شك فريق منهم في أمر هذا الدين الذي أتى به، وارتد كثير منهم عن الإسلام، لأنه لم يكن قد تمكن من قلوبهم بعد، فأخذ كبار الصحابة يفكرون في أمر المسلمين ليواجهوا الموقف الجديد، ورأوا أنه لا بد للمسلمين من رئيس يتولى شئونهم ويتدبر أمورهم.

وقد اختلفت آراء المسلمين فيمن يتزعمهم وظهرت بينهم روح التعصب القبلي، وأخيراً استقر الرأي على أن يكون للرسول خليفة، يأمر بالعدل وينهى عن المنكر ويؤم الناس في الصلاة. ولكن الصحابة اختلفوا في كيفية اختياره: لأنه لم يؤثر عن الرسول نص صريح يشير فيه إلى مسألة الحكم من بعده كما أن القرآن لم يشر إلى نظام الحكم بعد وفاته.

وكان من أثر ذلك أن ظهر الانقسام بين صفوف المسلمين، واشتدت وطأة هذه الأزمة السياسية، وتسابقت القبائل والبطون ليكون لها الأمر دون غيرها وتكشف ما في الصدور، وتجلت النفس العربية والطبيعة القبلية فكان الأوس والخزرج يخشى كل منهما صاحبه ويخافون المهاجرين، حتى إذا كثرت المناقشات تصدى لحلها بعض زعماء المسلمين من أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح.

الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ (١١-١١٣هـ/٦٣٣-٦٣٤م)

بيعة السقيفة:

ذهب الأنصار إلى سقيفة بنى ساعدة ليختاروا من بينهم خليفة للمسلمين، وقد خطبهم سعد بن عبادة زعيم الخزرج فقال ".... يا معشر الأنصار إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب"، وأوضح لهم أنهم أحق بالخلافة من غيرهم، واتفقت كلمتهم على اختياره، غير أن كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة عندما علموا باجتماع الأنصار أسرعوا إليهم واشتركوا معهم في المناقشة وأقنعوهم بضرورة اختيار الخليفة من قریش بحجة أن العرب لا يدينون إلا للقرشيين، وقد حاول الأنصار أن يقتسموا السلطة بأن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير، ولكن رفض طلبهم ولم يلق قبولا.^(١)

عرض أبو بكر على الحاضرين أن يختاروا واحداً من اثنين هما: عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، ولكن عمر بن الخطاب خشى أن يترك الناس فيختلفوا ويضيع الأثر الذي أحدثه كلام أبي بكر، فقام إلى أبي بكر وبايعه بالخلافة وقال له ألم يأمر النبي ﷺ بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين، فأنت خليفة، ونحن نبايعك فأنت خير منا جميعاً". وقد قال عمر بن الخطاب إنه أشفق من أن يختلف المسلمون، فقال لأبي بكر: "أبسط يدك أبايعك"، فبسط أبو بكر يده، فبايعه عمر ومن بعده المهاجرون والأنصار، وقد أضاف عمر إلى ذلك قوله: "وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا أن فارقنا القوم ولم تكن بيعة، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى أو نخالفهم فيكون فساد".

وبعد أن بايع عمر أبا بكر تبعه الحاضرون في اجتماع السقيفة، وقد ساعد على إتمام هذه البيعة خوف الأوس من أن تكون الخلافة في الخزرج أعداءهم

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ص

القدماء، وهذه البيعة تسمى البيعة الخاصة، وفي اليوم التالي أخذ أبو بكر البيعة في المسجد وتسمى البيعة العامة، وبذلك أصبح خليفة للمسلمين.

كان أبو بكر يسمى في الجاهلية عبد الكعبة لأن الكعبة كانت رمز العبادة في الجاهلية، وسماه الرسول عبد الله، وسمى بالصديق لأنه أول من صدق برسالة الرسول من الرجال. وهو من كبار رجال العرب في الجاهلية، وكان يفصل في بعض القضايا، وأنفق معظم ثروته في نشر الإسلام، وقد أسلم على يده كثير من العرب أشهرهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، وكان أبو بكر رفيق الرسول وساعده الأيمن فتحمل كثيراً من العنت وتعرض لكثير من الأخطار، وكان رفيقه في الغار يوم هاجر من مكة إلى يثرب، وكان الرسول يثق فيه ويستشيريه في خواص الأمور حتى أنه قال في آخر خطبة له "... إني لا أعلم أحداً كان أفضل عندي في الصحبة بدأ منه". (١)

ورغم ذلك فقد تخلف على بن أبي طالب ﷺ في مبايعة أبي بكر، لاعتقاده بأحقية عنه في الخلافة: فهو أول من اعتنق الإسلام من الصبيان، وهو ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة التي ولدت له الحسن والحسين، كما أنه يمتاز بشجاعته وفروسيته. وتأخرت بيعة على لأبي بكر حتى قيل إنها حدثت بعد أربعين يوماً من اختياره خليفة، وقيل إنها وقعت بعد ثلاثة أشهر، وفي رأى آخر أنها تمت بعد ستة شهور. وناصر علياً في موقفه العباس وطلحة والزبير. (٢)

وبعد أن أخذ أبو بكر البيعة في المسجد، خطب الحاضرين خطبته المشهورة فقال: "أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفتم فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي

(١) أحمد الشريف: دولة الرسول في المدينة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٨٨-٨٩.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٢١٨.

حتى أخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل، ولا تشيع فأحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء" أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسول فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

حروب الردة: (١١٠هـ - ١١٣هـ/٦٣٢م - ٦٣٤م).

حروب الردة هي الحروب التي حدثت بعد وفاة رسول الإسلام محمد ﷺ بسبب إرتداد غالبية العرب عن الإسلام، فلم يبق موالياً لحكم أبي بكر سوى القبائل المحيطة بالمدينة بالإضافة إلى سكان المدينة، ومكة، والطائف. لقد قرّر الخليفة أبو بكر الصديق مقاتلة جميع المرتدين ولم يترك احداً منهم رغم توجه بعض الصحابة إليه أن يترك من امتنع عن دفع الزكاة من القبائل. فأرسل الجيوش الإسلامية بقيادة عكرمة بن أبي جهل لمحاربة لقيط بن مالك في دبا^(١) فحاربه حتى قتل في المعركة. ومن ثم خالد بن الوليد لمحاربة مسيلمة الكذاب. وانتصر خالد على مسيلمة في معركة اليمامة التي كانت من أقسى المعارك التي خاضها المسلمون.

تعددت ألوان الردة وانتفضت الجزيرة العربية على أبي بكر ومن معه من صفوة المسلمين ولم يثبت على الإيمان إلا مثلث المدينة ومكة والطائف. عقد أبو بكر أحد عشر لواءً على أحد عشر جيشاً وأمر كل أمير جند باستنفار من مر به من المسلمين من أهل القوة:

١ (دبا الفجيرة: مدينة تاريخية على بحر العرب شمالي إمارة الفجيرة وتابعة لها، اشتهرت في صدر الإسلام أثناء حروب الردة، أراضيها خصبة الأمر الذي أدى إلى ازدهار الزراعة فيها. وقد شهدت ازدهاراً صناعياً وتجارياً بفضل عودة النشاط إلى مينائها وشبكة الطرقات التي تصلها بمختلف نواحي دولة الإمارات.

اللواء الأول: و على رأسه خالد بن الوليد ووجهه إلى طليحة، فإذا فرغ منه صار إلى مالك بن نويرة اليربوعي زعيم بنى يربوع، وتعاون مالك مع سجاح وحارب معها القبائل.

اللواء الثاني: على رأسه عكرمة بن أبي جهل ووجهه إلى مسيلمة الكذاب زعيم قبائل بنى حنيفة.

اللواء الثالث: وعلى رأسه شرحبيل بن حسنة وقد جعله أبو بكر مدداً لعكرمة بعد أن ينتهى المسلمون من أمر مسيلمة فإذا انتهوا منه صار شرحبيل إلى بلاد قضاة ليكون مدداً لعمر بن العاص.

اللواء الرابع: وعلى رأسه المهاجر بن أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسى فى اليمن.

اللواء الخامس: وعلى رأسه سويد بن مقرن ووجهه إلى تهامة.

اللواء السادس: وعلى رأسه العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين.

اللواء السابع: وعلى رأسه حذيفة بن محط ووجهه إلى عمان.

اللواء الثامن: وعلى رأسه عرفجة بن هرثمة ووجهه إلى مهرة. (١)

وقد وجه أبو بكر ثلاثة من الألوية إلى شمال الجزيرة العربية على النحو

التالى:

اللواء الأول: وعلى رأسه عمرو بن العاص لقتال قضاة.

اللواء الثانى: على رأسه معن بن حاجر لقتال بنى سليم ومن انضم إليهم من هوازن.

اللواء الثالث: وعلى رأسه خالد بن سعيد لتتبع المرتدين والخرجين على مشارف الشام. (٢)

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ط١، دار التقوى، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٠٩.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ط١، المدينة المنورة، ١٩٩٤، ص٣٦٠.

مسيلمة بن حبيب الحنفى (مسيلمة الكذاب):

مسلمة بن حبيب الملقب بالكذاب رجل من بني حنيفة، يقال إن اسمه مسلمة وأن المؤرخين المسلمين يذكرونه باسم مسيلمة استحقاراً له كان قد تسمى بالرحمان فكان يقال له رحمان اليمامة، وكان يعمل كثيراً من أعمال الدجل، وادعى النبوة في عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وشهد له أحد أتباعه أنه سمع الرسول يقول: أنه أشرك معه مسيلمة في الأمر، وتابعه كثير من أهل اليمامة، وخاصة من بني حنيفة، وكان يدعي الكرامات، ويقول المسلمون: (فأظهر الله كذبه ولصق به لقب الكذاب، وأراد إظهار كرامات تشبه معجزات النبي، فقد ذكر ابن كثير في البداية أنه بصق في بئر ففاض ماؤها، وفي أخرى فصار ماؤها أجاباً، وسقى بوضوئه نخلا فيبست، وأتى بولدان يبرك عليهم فمسح على رؤوسهم فمنهم من قرع رأسه ومنهم من لثغ لسانه، ودعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحها فعمي. و تزوج من سجاح، مدعية النبوه أيضاً. (١)

قتل في حديقة الموت بمعركة اليمامة أيام خلافة ابي بكر، وقيل إن عمره حينئذ كان يناهز مائة وخمسين سنة، وقيل: إن الذي قتله وحشي بن حرب قاتل حمزة بن عبد المطلب يوم معركة أحد، عندما ادعى "مسيلمة الكذاب" النبوة قال له أتباعه: "إن محمداً يقرأ قرآنًا يأتيه من السماء فاقراً علينا شيئاً مما يأتيك من السماء"، فقال لهم: "يا ضفدع يا ضفدعين .. نُقِّي ما تَنُقِّين .. نصفك في الماء ونصفك في الطين"، فتقرز أتباعه مما سمعوا وعلموا أنه ليس وحي سماء بل هذيان معنوه، وانبرى له من بينهم أحد الأعراب قائلاً: "والله إني لأعلم أنك كذاب، وأعلم أن محمداً صادق، ولكن كذابٌ ربيعة أحبُّ إليَّ من صادقٍ مضر" ..

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ١٣٠.

معركة اليمامة:

لما توفي رسول الله -ﷺ- ارتدت العرب عدا أهل المسجدين مكة والمدينة، وانحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة حتى بلغوا نحواً من أربعين ألفاً، فبعث أبو بكر -رضي الله عنه- خالد بن الوليد إلى قتالهم وحشد معه المسلمين، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم، وأردف الصديق خالداً بسرية لتكون رداءً له من وراءه.

فلما سمع مسيلمة بقدوم خالد عسكر بمكان يقال له عقرباء في طرف اليمامة، والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم، فحشد له أهل اليمامة، وجعل على مجنبتى جيشه المحكم بن الطفيل ونهار الرجال بن عنقوة، وكان الرجال صديقه الذي شهد له كذباً أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول إنه أشرك معه مسيلمة في الأمر، وقرب خالد وقد جعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب وأبا حذيفة، وقد مرت المقدمة بالليل بنحو من أربعين -وقيل ستين- فارساً عليهم مجاعة بن مرارة، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له من بني تميم وبني عامر وهو راجع إلى قومه فأخذوهم، فلما جيء بهم إلى خالد قال لهم: "ماذا تقولون يا بني حنيفة؟"، قالوا: "نقول منا نبي ومنكم نبي"، فقتلهم إلا واحداً اسمه سارية بن عامر، فقال له: "أيها الرجل إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً، أو شراً فاستبق هذا الرجل -يعني مجاعة بن مرارة-"، فاستبقاه خالد مقيداً وجعله في الخيمة مع امرأته، وقال: "استوصي به خيراً".^(١)

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، والعرب على راياتها، فاصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة، وانهمزت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وقتل زيد بن الخطاب الرجال بن عنقوة لعنه الله، ثم تذامر الصحابة بينهم، وقال ثابت بن قيس: "بئس ما عودتم

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ١٩٦.

أقرانكم"، فنادوا من كل جانب، فخلصت إليهم ثلة من المهاجرين والأنصار، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعل الصحابة يتواصلون بينهم ويقولون: "يا أصحاب سورة البقرة بطل السحر اليوم"، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتاً حتى قُتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: "نخشى أن نؤتى من قبلك؟"، فقال: "بئس حامل القرآن أنا إذاً"، وقال زيد بن الخطاب: "أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً"، وقال: "والله لا أتكلم اليوم حتى يهزمهم الله، وألقى الله فأكلمه بحجتي"، فقتل شهيداً -رضي الله عنه- وقال أبو حذيفة: "يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال"، وحملوا عليهم وحمل خالد بن الوليد وجعل يتربص أن يصل إلى مسيلمة فيقتله، ثم وقف بين الصفيين ودعا إلى البراز وقال أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد، وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله.

ودارت رحى المسلمين ثم اقترب من مسيلمة فعرض عليه الرجوع إلى الحق فجعل شيطانه يلوي عنقه لا يقبل من خالد شيء، فانصرف عنه خالد، وميز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وجعل كل بني أب على رأيهم يقاتلون تحتها حتى يعرف الناس من أين يأتون، وصبر الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، وولى الكفار الأدبار، واتبعونهم يقتلونهم حتى ألبسواهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم المحكم بن الطفيل - لعنه الله - بدخولها فدخلوها وفيها مسيلمة الكذاب عدو الله - لعنه الله -.

وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر المحكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، وقال البراء بن مالك: "يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة"، فاحتملوه فوق الدروع، ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من

أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مسيلمة -لعنه الله- وإذا هو واقف في فرجة في جدار كأنه جمل أورق، وهو لا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه يخرج الزبد من شذقيه، فتقدم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم -قاتل حمزة بن عبد المطلب- فرماه بحرته فأصابه، وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجاجة سماك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط، فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل - وقيل أحد وعشرون ألفاً - وقتل من المسلمين ستمائة، وفيهم من سادات الصحابة وأعيان الناس.

وخرج خالد وتبعه مجاعة بن مرارة يرسف في قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرف مسيلمة، فمروا بالرجال بن عنقوة، فقال له خالد: "أهذا هو؟"، قال: "لا والله، هذا خير منه، هذا الرجال بن عنقوة"، ثم مروا برجل أفتس الأنف أصفر فقال: "هذا صاحبكم؟"، قال: "نعم"، قال خالد: "قبحكم الله على اتباعكم هذا".

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، ثم عزم خالد على غزو الحصون، ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار، فخدعه مجاعة بن مرارة فقال إنها ملأى رجالاً ومقاتلة فهلم فصالحني عنها، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد، وقد كلوا من كثرة الحروب والقتال، فصالحه خالد على الذهب والفضة والسلاح وربيع السبي، فلما فرغا فتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان، فقال خالد لمجاعة: "ويحك خدعتني"، قال: "قومي ولم أستطع إلا ما صنعت"، ودعاهم خالد إلى الإسلام، فأسلموا عن آخرهم، ورجعوا إلى الحق، ورد عليهم خالد بعض ما كان أخذ من السبي، وساق الباقيين إلى الصديق، وقد تسرى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بجارية منهم، وهي أم ابنه محمد الذي يقال له محمد بن الحنفية -رحمه الله- وكانت هذه الموقعة في آخر السنة الحادية عشر من الهجرة وأول السنة الثانية عشر من الهجرة النبوية الشريفة^(١).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٣٥٥ وما بعدها.

خالد وطليحة:

كان طليحة من أولئك الذين أدعوا النبوة والتف حوله قومه من بني أسد وأن فلول قبائل عبس وذبيان ومن آزرهم انضمت إليه بعد هزيمه المسلمين لهم فى زى القصة والرغبة، وتابعهم فى هذا الأمر قبائل طى وغطفان وسليم وغيرها. عمل أبو بكر على التغلب على طلحة فكلف عدى بن حاتم الطائى أن يمدى إلى قومه من بني طى وهم غير متقين فريق خارج على الخليفة وينضم إلى طليحه وفريق يحج عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار فنصحهم طى فلقى كلامه منهم موافقة وسألوه أن يتوسط لدى أبى بكر ليمهلهم حتى يسترجعوا من لحق بطليحة من قبيلتهم لئلا يفتك بهم ووعدوا بانضمامهم جميعاً إلى جيش المسلمين^(١). سير أبو بكر خالد بن الوليد فى أربعة آلاف جندى لقتال طليحة ولم يعلن عن سير خالد إلى بذاخة حيث يقيم طليحة وأتباعه وصل خالد إلى بذاخة لمقاتلة طليحة مما جعل طليحة يرسل من عنده من طى لنجدة إخوانهم والدفاع عن بلاده. بعث خالد طليعة من جنده إلى طليحة على رأسها ثابت بن مقرن وعكاشة بن محصن وتمكن عكاشة من قتل حبال أخى طليحة ولكن عكاشة وثابتاً لقى مصرعهما على يد طليحة ورجاله انتصر المسلمون على طليحة فى موقعة بذاخة وفر طليحة إلى بلاد الشام^(٢).

حركة سجاح:

سجاح بنت الحارث بن الأسود من بني عققان من بني يربوع من بني تميم أخوالها من بني تغلب بن وائل بن ربيعة. (المرجع (بنو بكر بن وائل) ص ٢٧٦-٢٧٧) أدعت النبوة بعد وفاة النبي محمد، لم تشر المصادر التاريخية أن الفرس هم الذين حرضوا سجاح للقيام بالدور المذكور كما أنه من الواضح ان مسيلمة كان يخشاها، وأنه تعهد بإعطائها نصف حاصلات اليمامة، وتسلمت منه بالفعل ربع هذه

١ (الطبرى: تاريخه، ج٣، ص ٢٥٣.

٢ (الطبرى: تاريخه، ج٣، ص ٢٥٤.

الحاصلات^(١)، ثم قفلت راجعة إلى العراق أي أنها كانت عبئاً عليه وليست عوناً له، وكانت حركة سجاح شأنها في ذلك شأن غيرها من الكهان رغبت أن تجرب حظها في إدعاء النبوة عليها تتجح في ذلك، ولكن سجاح خذلت من جانب قومها الأولين بنو تميم وعبساً حاولت سجاح توحيدهم وحين يأست من بنى تميم توجهت إلى بنى حنيفة في اليمامة عليها تقنع كاهنها مسيلمة بالانضواء تحت لوائها ولكنها فوجئت بقوة شخصيته، وتزوجت منه^(٢)، ثم أسلمت بعد مقتل مسيلمة، و توفيت عام ٥٥ هـ - ٦٧٥ م. توفيت في البصرة وصلى عليها عدد من الصحابة.

حركة ملك بن نويره:

كان مالك بن نويره عامل الرسول ﷺ على الصدقات في قومه، وبعد وفاة الرسول ﷺ رفض دفع الصدقات مما جعله مرتدّاً عن الإسلام.

ولما ذهب خالد بن الوليد إلى مالك بن نويره الذي قاتل مع سجاح، ارتاب خالد في أمر مالك ومن معه، لما حدثه بعض الجيش بإسلامه وإسلام من معه، فحبسهم خالد في ليلة شديدة البرد، ثم نادى أذفتوا أسراكم وكان معناها في لغة بنى ثعلبة اقتلوا فقتلهم، فلما عرف خالد ما جرى قال: ذلك أمر الله، وعرف عمر فحمل أبو بكر على خالد وقال: اعزله فإن في سيفه رهقاً فأبى ووقف بجانب خالد وعذره في ذلك. (٣)

عوامل انتصار المسلمين في حروب الردة:

١- تسيير جيش أسامة إلى تخوم الروم مما حمل الكثير من القبائل التي كانت على وشك الانتفاض والتراجع وادخل في روعها أن المسلمين لو لم يكونوا على قوة لما سيروا هذا الجيش، كما أن عوده أسامة وجنده سالمين وبصحبتهم

١ (الطبرى: تاريخه، ج٢، ص٢٧٥.

٢ (الطبرى: تاريخه، ج٢، ص٢٧٥، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٢٥٧.

(٣) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ج١، ص١٣٥

؛ أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، ح١، ص١٩٧.

الكثير من الغنائم والأسرى أصاب الكثير من المرتدين بالوهم وملئ قلوبهم بالخوف وعلى الجانب الآخر رفع الروح المعنوية للمسلمين.

٢- نجاح أبي بكر في التصدي لمانعي الزكاة حين أقدموا على مهاجمة المدينة في ظل غياب جيش أسامة ثم تعقيه لهم وهزيمتهم في معركة ذي القصة.

٣- براعة أبي بكر وخطته المحكمة في إعداد الجيوش وتحريكها في كل أنحاء جزيرة العرب، حيث أراد أن يفاجئ المرتدين وحاربهم حتى يشغل كل قبيلة بنفسها فلا تنضم إلى غيرها ولولا ذلك لكان من الممكن أن يتجمع المرتدون في جيش واحد تحت لواء واحد ثم ينقضون على المسلمين دفعة واحدة. (١)

٤- إيقاع خالد بن الوليد الهزيمة بأقوى زعماء المرتدين مما أضعف من شأنهم.

٥- كان المسلم يحارب لحماية العقيدة الإسلامية ويرغب في الاستشهاد من أجل هذه الغاية الكريمة، أما المرتد فكان يحارب من أجل الزكاة أو العصبية القبلية.

أهم نتائج حروب الردة:

١- تثبيت العقيدة التي كانت حيرى بين المتمردين عليها والمدافعين عنها، بعد أن اتضح للناس أنه لا صادق إلا محمد ﷺ وأن من ادعوا النبوة كلهم كاذبون.

٢- أصبح أبو بكر الرجل الأول في الجماعة الإسلامية وأقر الجميع بجدارته في أن يكون خليفة لرسول الله، فتعلقت قلوب المسلمين به والتف حوله جماعات العرب مما كان له أكبر الفضل في تثبيت أركان الدولة الإسلامية الناشئة.

٣- شعر المسلمون بعد ظفرهم في حروب الردة بالثقة في أنفسهم وأحسوا بمقدار القوة التي جنوها من اتحادهم فأدركوا أنهم إن ظلوا كذلك متحدين فلن تغلبهم قوة في الأرض فانطلقوا يفتحون البلاد وينشرون دين الله في الأرض.

(١) رجب عبد الحلیم: الردة في ضوء مفهوم جديد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص ٩٠.

٤- أحس أبو بكر من العرب هذه الروح، فخشى أن يخلد القوم إلى الاستجمام فتنثبت في ظل الراحة بذور التفرقة بالحنين إلى الماضي فيصبح القوم وبأسهم بينهم شديد فوجههم إلى الفتح. (١)

٥- جمع القرآن الكريم فقد تم ترتيب آيات الله في سور على عهد الرسول وتوجيه منه لكن هذه السور لم تجمع في كتاب واحد قبل وفاته، ولما قامت حروب الردة واستشهد فيها كثير من القراء الذين كانوا يحفظون القرآن أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر رضى الله عنهما بضرورة جمع القرآن لأنه كان منقوشاً على سعف النخيل وقطع الأدم (الجلد) وعظام ألواح الغنم والإبل، فأمر بتشكيل لجنة من أفضل القراء الذين حفظوا القرآن على عصر الرسول ﷺ وأسند رئاسة هذه اللجنة إلى زيد بن ثابت أحد كتاب الوحي وقامت اللجنة بمقارنة المكتوب بما يحفظه أعضاؤها وغيرهم ثم دونت القرآن كله في صحف فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها^(٢)، وقد صارت هذه الصحف مصدراً للمصحف الذى أمر الخليفة عثمان بن عفان بكتابة عدة نسخ منه وتوزيعها على جهات الدولة الإسلامية، فتحقق بذلك قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ الْقُرْآنُ كُنُوزًا وَمُبَشِّرَاتٍ لِّقَوْمٍ يُظَاهِرُونَ﴾

حركة الفتح والتوسع:

سير أبو بكر إلى أطراف الشام، الجيش الذى كان النبى قد جهزه قبل وفاته تحت قيادة أسامة بن زيد. وكان عمر بن الخطاب يعارض فى إرسال هذا الجيش لاضطراب أحوال بلاد العرب وصغر سن أسامة، فقال أبو بكر. "تكلتك أمك

(١) إكرام ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ط١، المدينة المنورة، ١٩٩٤، ص ٣٦٠.

٢ () السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٧٧.

٣ () الحجر: آية ٩.

وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله وتأمرنى أن أعزله" ثم أوصى أبو بكر أسامة فقال: " لا تخانوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً... وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله.

وأنفذ أبو بكر - عقب بيعته مباشرة- الجيش الذى كان قد أعده النبي بقيادة زيد بن حارثة، للثأر لما نزل بالمسلمين فى مؤتة ولإرهاب الروم ومنعهم من التفكير فى قتال المسلمين. ونزل أسامة بعسكره فى منطقة البلقاء بعد عشرين يوماً حيث تقع مؤتة، وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء الإسلام وأحرق المدن التى قاومت المسلمين، وبذلك انتقم أسامة لأبيه وللمسلمين. ولما سمع هرقل أبناء هذه الغزوة أرسل جيشاً قوياً عسكر فى البلقاء ولكن المسلمين وعلى رأسهم أبو بكر لم يكونوا قد فكروا فى ذلك الوقت فى فتح الشام. ولما كان أبو بكر يريد أن يشغل العرب بأمر المسلمين فى الأمر، واستقر رأى على ان تستمر حركة الفتح، وأمر أبو بكر بتولية المثنى بن حارثة الشيبانى قائداً، واتبع ذلك بتولية خالد بن الوليد القيادة العامة. (١)

وفى ذلك الوقت، كان العلاء بن الحضرمى يقاتل المرتدين، فانضم إليه المثنى بن حارثة، وسار بقواته شمالاً حتى استولى على القطيف وتركها". واستمر فى سيره حتى وصل إلى مصب دجلة والفرات، وقضى فى أثناء ذلك على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين فى البحرين، وأمعن السير بجيش فى دلتا الفرات، فلقبه هرمرز أحد قواد الفرس، وحدثت بينهما عدة وقائع سمع بها أبو بكر، فسأل عن المثنى وعرف ما عمله فى البحرين أثناء حروب الردة، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد كى يخفف إليه ويعينه على هرمرز، ثم يسير لفتح الحيرة عاصمة العرب اللخمين.

(١) على إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامى العام، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص ٣٥-٣٦.

ذهب خالد بن الوليد إلى دلتا الفرات ولم تكن له خطة مرسومة ولكنه انتصر وتقدم نحو الشمال، وبعث إلى الخليفة بالغنائم، على أن هذه الانتصارات لم تدم طويلاً، إذ أن يزيد بن الثالث آخر ملوك آل ساسان أعد جيشاً كثيفاً من الفرس بقيادة القائد رستم فتقهقرت أمامه جيوش المسلمين إلى أطراف الصحراء بقيادة خالد بن الوليد والتمثى بن حارثة، ولكنها تمكنت من إخضاع القبائل العربية التي كانت تقيم جنوب نهر الفرات، واستولت على الحيرة والأنبار: وظل الحال على ذلك إلى أواخر أيام أبي بكر، فوجه خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين في قتال الروم في الشام وفلسطين.

أما في الشام فقد كان للمسلمين أثناء حرب الردة عدة جيوش على حدود هذا الإقليم بقيادة خالد بن سعيد بن العاص، لحماية تلك الحدود وعندما علم هرقل بأمر هذه الجيوش أعد العدة لطردها، وعلم خالد بن سعيد بذلك، فأرسل إلى أبي بكر يستأذنه في منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام واستشار أبو بكر كبار الصحابة، ودعى الناس لغزو الشام فلبوا الدعوة في حماسة وحمية، تدفعهم قوة الإيمان وعدم المبالاة بالموت.

وسرعان ما أنفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة، وعقد اللواء لأربعة من الأمراء هم: شر حبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق. وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يتعارفوا بعضهم مع بعض، وأن يكونوا مدداً للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة. (١)

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التي جمعها الروم، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام، وانضم الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل وذو القلاع الحميري أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن

(١) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، وعصر الرسول، ط٣، دار القلم، دمشق، ١٩٨٣م، ص

العاص، حتى تجمعت لديه قوة كبيرة وخيل إليه أنه يستطيع أن يقضى على الروم كما قضى خالد بن الوليد على الفرس، ولكنه لم يكن قائداً محنكاً، فإن ماهان قائد جيش الروم استدرجه إلى مكان قريب من وادى الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية، حتى أحاطه به وقطع عليه خط الرجعة واضطره إلى الفرار، والوليد بن عقبة، تاركاً وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذو الكلاع متقهراً. وبذلك فشلت حركة المسلمين الأولى في الشام ورجعت جيوشهم إلى الحدود.

على أن هذه الهزيمة لم تخمد حماسة أبي بكر، فسير هذه الجيوش واستطاعات أن تصل إلى حيث يقيم جيش عكرمة بدون عناء بعد أن قضت على المقاومة التي أبداها حلفاء الروم من عرب الشام. وكان عدد هذه الجيوش والجيش الذي يقوده عمرو بن العاص، حوالي ثلاثين ألفاً، اتخذ كل منها في بادئ الأمر جهة خاصة. ولكن قواد المسلمين عندما رأوا أن هرقل قد سير لمحاربتهم عدة جيوش كثيفة، تبادلوا الرأي، وأشار عليهم عمرو بن العاص بجمع قواتهم، وأرسل إليهم أبو بكر كتاباً يقول فيه "اجتمعوا عسكرياً واحداً والقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره". وعمل المسلمون بهذه المشورة واجتمعت قواتهم كلها على شاطئ اليرموك الأيسر، ولما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر ونزلوا في بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاث جهات في منطقة تسمى (واقوصة)، فعبر المسلمون نهر الأردن على شاطئه الأيمن ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودها تيودريك.

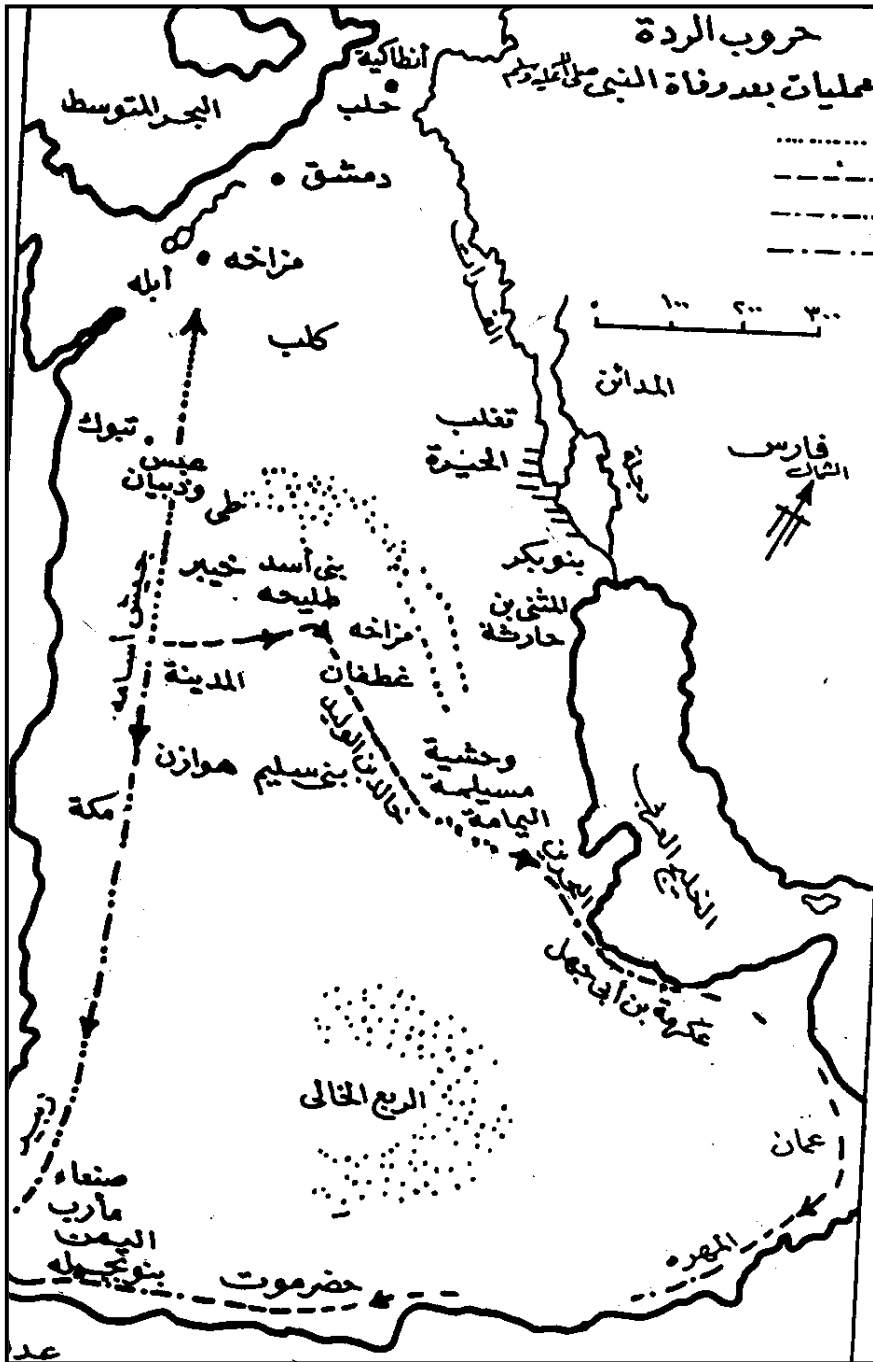
ووقف الجيشان وجهاً لوجه، دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين مما أقلق الخليفة. فأرسل إلى خالد بن الوليد في العراق: أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجعوا وأشجوا فلهاك أبا سليمان النية والخطوة أتمم يتمم الله لك ولا يدخلنا عجباً فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فإن ، الله له المن وهو ولي الجزاء.

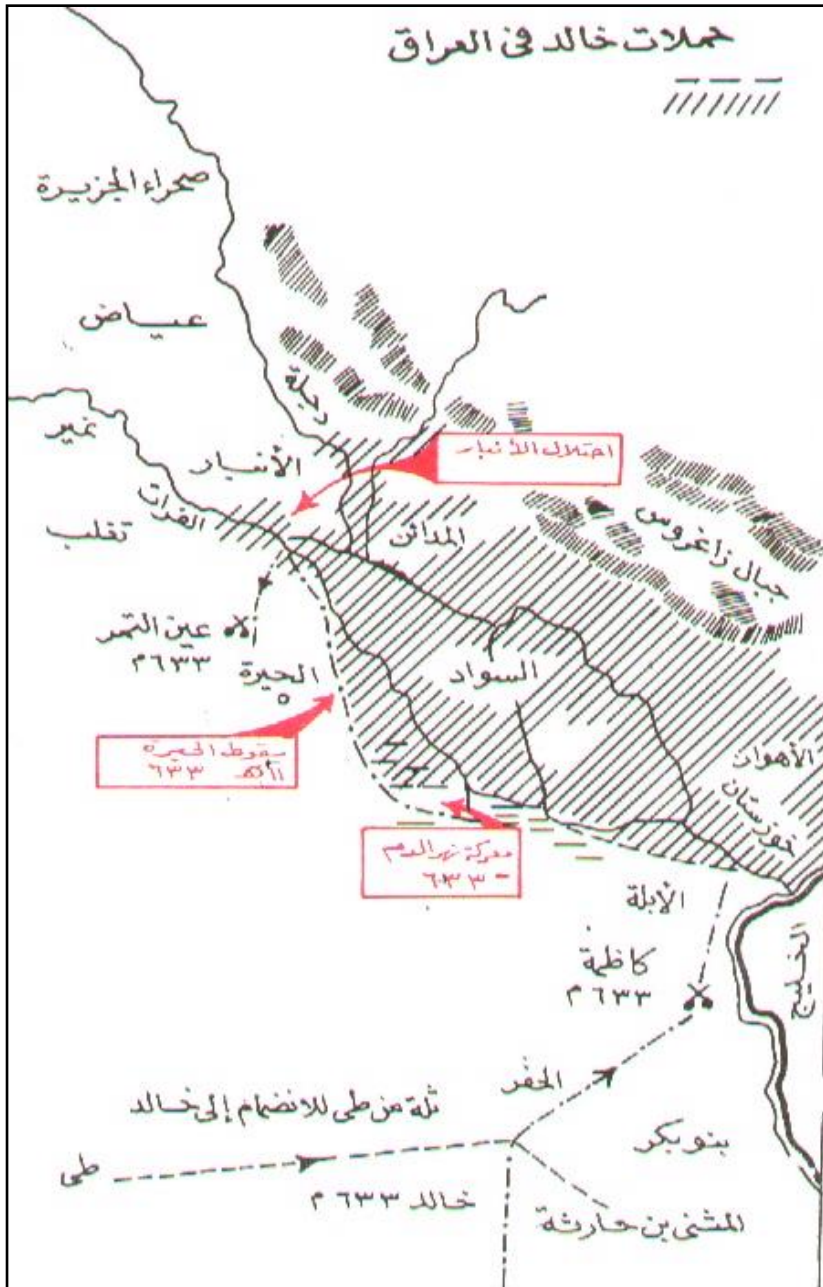
تولى خالد بن الوليد القيادة مكان أبي عبيدة وسار على رأس جيش كبير يتكون من عشرة آلاف جندي، أدرك به المسلمين في اليرموك وقاتل الروم، وصادف مجيئه أن هرقل كان قد عزز جيشه بتعيين ماهان، الذي هزم خالد بن سعيد من قبل، قائداً.

ولما قدم خالد بن الوليد بجيشه إلى الشام وجد المسلمين يقاتلون متساندين، فرتب الجيش وجعل أبا عبيدة بن الجراح في القلب. وعمرو بن العاص على اليمينه ويزيد بن أبي سفيان على الميسرة، ثم دارت رحى القتال، واشتركت النساء مع الرجال لصد هجمات العدو، الذي اضطرهم إلى التقهقر عدة مرات، وبعد أن لحقت الروم الهزيمة، جاء يوم "الواقصة"، وهو اليوم الذي كتب فيه النصر للعرب حيث قتل من جند الروم مائة وعشرون ألفاً.

وفي أثناء قتال العرب في اليرموك، اتاهم نعي أببكر سنة ١٣هـ وتولية عمر بن الخطاب الخلافة، فعزل خالداً عن القيادة وولى مكانه أبا عبيدة.

حروب الردة



خريطة توضح حملات خالد بن الوليد رضي الله عنه في العراق

خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ؓ

(١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)

نسبه:

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن زراح بن عدى بن كعب بن لؤى، أمير المؤمنين، أبو حفص القرشى العدوى الفاروق. ولد عمر بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان من أشرف قريش، وأسند إليه السفارة في الجاهلية. فكان مبعوث قريش إلى القبائل الأخرى في السلم والحرب.

أسلم عمر في السنة السادسة من البعثة النبوية. بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة، وقيل: بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة. ولما أسلم عمر ظهر الإسلام في مكة.

وكان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمامته رحمة، وهو الذي جعل المسلمين يصلوا حول الكعبة. (١)

هاجر عمر بن الخطاب علناً، ولما حان وقت هجرته تقلد سيفه، ومر على أشرف قريش محذرهم من اللحاق به قائلاً: من أراد أن تتكلمه أمه، ويبيت ولده، وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادى".

استخلاف عمر ؓ :

قد يبدو للوهلة الأولى أن استخلاف عمر ؓ يختلف فى أسسه عن اختيار أبى بكر ؓ، وأنه تم عن طريق التعيين لا البيعة، ولكننا إذا نظرنا لم نجد فرق كبير بين الموقفين ولوجدنا فى استخلاف عمر ؓ التزاماً كاملاً بالمبادئ التى تحققت فى الاختيار الأول من تفويض الأمر للأمة والبيعة الخاصة من جانب أهل الحل والعقد ثم البيعة العامة من جانب الأمة.

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ١١٩.

حرص أبو بكر رضي الله عنه على الالتزام بالمبدأ الأول وهو تفويض الأمر للأمة، فلما شعر بدنو أجله حين اشتد عليه المرض رأى أن يرشح للخلافة شخصاً من بعده فوق اختياره على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستدعى كبار الصحابة وقال لهم أنه قد نزل بي ماترون، وقد أطلق الله أيماكم من بيعتي ورد عليكم أمركم فأمروا من أحببتهم... فلما رأى أنهم لم يتفقوا على أحد من المرشحين عرض عليهم أن يشاركهم المسؤولية إن أردوا وقال له ممثلوا الأمة: "يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا" قال: "سأجتهد لكم رأيي واختر لكم خيركم إن شاء الله".

التزم أبو بكر بالمبدأ الثاني وهو أن يصدر الترشيح عن أهل الحل والعقد ووقع اختياره على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يعلن هذا إلا بعد إحالة الرأي مع كبار الصحابة فاجتمع بهم منفردين واحد بعد الآخر حتى يستمع إلى رأيهم دون حرج أو مجاملة، وقد بدأ أبو بكر بعبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرني عن عمر فقال هو والله أفضل من رأيك فيه ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لأنه يرانى رقيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه، واستشار عدد من المهاجرين والأنصار فقالوا كلهم خيراً، ودعا أبو بكر عثمان رضي الله عنه منفرداً فقال له: أكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبي بكر ابن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها... إني استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاسمعوا له وأطيعوا... فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. (١)

ثم أمر أبو بكر رضي الله عنه عثمان رضي الله عنه أن يخرج للناس بهذه الوثيقة ومعه عمر رضي الله عنه فقال عثمان للناس أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ قالوا نعم وقال بعضهم قد علمنا به إنه عمر فأقر الناس بذلك جميعاً.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ١، ص ٣٦٩.

وهكذا وضع أبو بكر سنة جديدة في اختيار الخليفة ذلك لأنه رشح شخصاً ليس من أبناءه ولا من أقربائه وعلق اختياره على رضي جماعة المسلمين.

التنظيمات الإدارية:

احتفظ عمر بن الخطاب بالنظم الإدارية السابقة على الإسلام في البلاد المفتوحة حتى لا تضطرب الأمور وتعم الفوضى، ولكنه استبعد من هذه النظم ما لا يتفق مع تقاليد العرب، فقد أقر نظام الديون الفارسي، وطبق التقسيم البيزنطي للشام إلى أجناد، كما أبقى على نظام الكورة في مصر وهي كلمة يونانية Curia معناها المركز

ولما اتسعت حدود الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب قسم البلاد إلى عدة أقسام إدارية كبيرة ليسهل حكمها والإشراف على موار ثروتها؛ وهي:

- ١- ولاية الأهواز والبحرين.
 - ٢- ولاية التركستان ومكران وكرمان.
 - ٣- ولاية طبرستان.
 - ٤- ولاية خراسان.
 - ٥- بلاد فارس قسمت إلى ثلاث ولايات.
 - ٦- بلاد العراق قسمت إلى قسمين الكوفة والبصرة.
 - ٧- بلاد الشام قسمت إلى قسمين حمص، ودمشق.
 - ٨- ولاية فلسطين.
 - ٩- مصر قسمت إلى ثلاث ولايات مصر السفلى، ومصر العليا، وغربي مصر.
- وتعد الإدارة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب استمرار لما وضع الرسول ﷺ وخليفته أبوبكر الصديق من أسس وتنظيمات في هذا المجال، وكانت الأسس التي قامت عليها الإدارة في الدولة العربية الإسلامية هي:
- ١- أن السيادة في الدولة والمجتمع هي لله تعالى.
 - ٢- كان من واجب الرسول ﷺ والخلفاء من بعده إدارة المجتمع.
 - ٣- مواصلة سياسية الفتوحات الإسلامية على جبهات العراق والشام ومصر.

٤- لا يوجد فاصل بين الوظائف السياسية والإدارية والدينية.

التنظيمات المالية:

١- ديوان العطاء:

حرص الخليفة عمر بن الخطاب على تنظيم شئون الدولة من كافة النواحي، هو أول من دون الدواوين في الإسلام، والديوان كلمة معربة من الفارسية يقصد بها الدفتر أو السجل الذي يدون فيه أسماء الجند وأهل العطاء.

وفكر عمر بن الخطاب في تدوين الدواوين عندما قدم عليه أبو هريرة بمال كثير من البحرين فقال له عمر ماذا جئت به؟ فقال خمسمائة ألف درهم. فاستكثره عمر. فقال له أتدرى ما تقول؟ قال نعم فقال عمر أطيب هو؟ فقال لا أدري فصعد عمر المنبر فحمد الله تعالى واثى عليه ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا. (١)

واستشار عمر بن الخطاب أصحابه في تدوين الدواوين، فقال على بن أبي طالب: تنقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال، فلا تمسك شيئا. وقال عثمان بن عفان: أرى ما لا كثيرا يسع الناس، وإن لم يحصلوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر.

وأشار على الخليفة عمر، الوليد بن هشام بن المغيرة بتجربة البيزنطيين في بلاد الشام، وأن ملوكها يدونوا الدواوين.

وشرع عمر بن الخطاب في عمل الدواوين، ودعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكانوا من نساب قريش. فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، وبدؤوا بقرابة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب. وبدأ بالعباس عم النبي ﷺ فأعطاه خمسة وعشرين ألفا، وقيل: اثني عشر ألفا. ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف، وفرض لمن دخل في الإسلام من بدر إلى صلح الحديبية أربعة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى نهاية حروب الردة ثلاثة آلاف. كما فرض عمر للنساء فجعل للنساء أهل بدر خمسمائة ونساء من بعدهم إلى الحديبية أربعمائة.

(١) حسن إبراهيم حسن وآخرون: النظم الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة، ص ١٥٣-١٥٤.

وكان نظام الديوان قائماً من حيث الترتيب على ثلاثة أسس متتالية:

- ١-أساس النسب والقرباة برسول الله قبيلة بعد قبيلة.
 - ٢-أساس السابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين.
 - ٣-التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد.^(١)
- وأنشأ عمر بن الخطاب بيتاً للمال لحفظ الأموال الفائضة عن حاجة الجند، وتنوعت موارد بيت المال في عهد عمر وهي:

١-الزكاة:

هي ركن من أركان الإسلام الخمس وهي حق يأخذ من الأغنياء ليعطى للفقراء وهي عبادة من ناحية، وواجب اجتماعي من ناحية أخرى.^(٢)

قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (التوبة: ١٠٣)

وحدد الله عز وجل أوجه انفاق الزكاة قوله تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة: ٦٠)

٢-الخراج:

الخراج لغة الغلة، وهي كلمة مشتقة من خرج. وكان يراعى في فرض الخراج جودة المحصول، ونوعه، ورى الأرض.^(٣)

(١) هاشم يحيى الملاح: الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، ص ٣١٩ .

(٢) إبراهيم فؤاد على: الموارد المالية في الإسلام، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٠-٢١.

(٣) قطب إبراهيم محمد: المالية العامة للدولة الإسلامية، دار الشباب ، القاهرة، د.ت، ص١٥٩.

٣- الجزية:

ضريبة رأس فرضت على أهل الذمة من اليهود والنصارى يقول الماوردي: "فيجب على ولي الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب".

وكانت الجزية تحصل مرة واحدة في السنة على حسب الشهور الهلالية، وأغفى من دفعها بعض الفئات غير القادرة كالنساء، والشيوخ، والصبيان، والعبد، والمجانين. (١)

٤- العشور:

كان العشر يحصل من قيمة التجارة التي يأتي بها التجار القادمون من دار الحرب إلى دار الإسلام. ولكن الإمام الشافعي يرى أنه يحق للحاكم أن يأخذ أكثر من العشر عند حاجة البلاد إلى نوع معين من البضائع.

وأول من شرع هذا النظام الخليفة عمر بن الخطاب، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري أن تجاراً من المسلمين يأتون أهل الحرب، فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر فخذ أنت منهم. كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما، وليس فيه دون المائتين شئ فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم فما زاد فبحسابه. (٢)

نظام القضاء:

لما انتشر الإسلام في عهد عمر وارتبط العرب بغيرهم من الأمم دعت الحاجة إلى إدخال نظام تشريعي لفض المنازعات التي تنشأ بين الأفراد من العرب وغيرهم.

واقترض الأمر تعيين قضاة ينوبون عن الخليفة في حل هذه المشاكل تماشياً مع أحكام القرآن والسنة والقياس.

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ١٨٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩١٩م، ص ٤٥٩.

وعين عمر بن الخطاب على قضاء المدينة أبا الدرداء، وعلى الكوفة شريح ابن الحارث وعلى البصرة أبا موسى الأشعري وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة يقول فيه: "القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فأفهم إذا أدلى إليك، وانفذ إذا تبين لك..". (١)

وضع التقويم الهجري:

كان عمر بن الخطاب أول من وضع التقويم الهجري للتاريخ به منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وشرع في ذلك سنة ست عشرة في شهر ربيع الأول. (٢)

الفتوحات الإسلامية في زمن عمر بن الخطاب:

كانت الجيوش الإسلامية مشتبكة في حروب على جبهة الفرس والروم، عندما تولى عمر بن الخطاب مقاليد الخلافة، وحرص على إرسال النجادات من المدينة لتعزيز تلك الجبهات.

١-بلاد فارس:

قدم المثنى بن حارثة الشيباني على المدينة في الليلة التي توفى فيها أبو بكر وطلب منه المدد وأوصى أبو بكر عمر بن الخطاب بالمبادرة بإرسال الجيوش للمثنى.

ودعا عمر بن الخطاب الناس للمشاركة ولكنهم كانوا يكرهون قتال الفرس لشدة شوكتهم وحث المثنى الناس على قتال الفرس وهون عليهم أمر الفرس. وقد جعل الخلافة عمر قادة الجيش إلى أبي عبيد بن مسعود الثقفي لمبادرته بالتطوع للجهاد وأوصاه باستشارة صحابة رسول الله ممن معه في كل الأمور.

وأخذ أبو عبيدة يرغب الناس في الجهاد ودعا كل القبائل التي مر عليها للمشاركة في الجهاد. (١)

(١) حسن إبراهيم حسن وآخرون: النظم الإسلامية، ص ٢٧٦.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٦٩-٥٧٠.

وخاض أبو عبيدة بن مسعود مع الفرس عدة معارك هي:

أ- معركة النمارق:

كانت هذه المعركة عقب وصول أبعبيدة، وأراد الفرس أن يرهبوا أبا عبيدة، فأعدوا كل قواهم الداخلية وعبأوا الجند، ولقوا فيها المسلمين واستعد أبو عبيدة والمثنى بالجيش الإسلامي وكان اللقاء بين المسلمين والفرس في النمارق، وانهزم الفرس في هذا اللقاء.

ب- السقاطية:

عندما انهزم الفرس في النمارق ساروا إلى كسكر، وطاردتهم أبو عبيدة والتقى معهم في السقاطية من نواحي كسكر وتم النصر فيها للمسلمين على الفرس.

ج- باقسياتا:

وصلت النجدات إلى الجيش الفارسي والتقوا مع المسلمين في باقسياتا وحلت الهزيمة بالفرس. (٢)

د- معركة الجسر:

انزعج الفرس من الهزائم التي لحقت بهم على يد المسلمين. وعزموا على حشد قوة كبيرة لملاقاة المسلمين عند موضع يدعى المروحة حيث وقعت معركة الجسر. وكانت قوات الفرس تقف على الجانب الشرقي من نهر الفرات بينما تقف قوات المسلمين على الجانب الغربي. وأقام المسلمون جسرا. وعبروا عليه. وكانت قوات الفرس تتألف من أربعة آلاف ومعهم الفيلة. ودار قتال عنيف، وكاد المسلمون يظفرون بالنصر لولا أن وقع أبو عبيد فبرك عليه الفيل فمات، وكر الفرس على المسلمين، فأسرع رجل من ثقيف يدعى عبد الله بن مرثد الثقفى إلى الجسر فقطع

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٢٩٧.

(٢) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، مكتبة الخانجي، القاهرة،

على المسلمين خط الرجعة، ليحثهم على الصمود وتكبد المسلمون خسائر كبيرة في هذه المعركة.^(١)

و- معركة البويب:

ثقل على عمر أمر هزيمة الجسر، وندب الناس إلى جبهة فارس، وبعث الإمدادات إلى العراق وفي مقدمها جرير بن عبد الله البجلي ومعه أربعة آلاف، وعصمة بن عبد الله الضبي وانضموا إلى المثني بن حارثة في البويب غرب الفرات.

وانضم إليهم أنس بن هلال النمري في حشد عظيم من بنى النمر وهم نصارى ليقاتلوا مع قومهم العرب ضد الفرس.

وبعث الفرس جيشا من اثني عشر ألفا بقيادة مهرا بن مهروية الذي عبر الفرات نحوهم في البويب. وكان المسلمون قد استعدوا لملاقاة الفرس. ودار قتال عنيف بين المسلمين والفرس وتراجع الفرس وطاردتهم المسلمون بهم نحو الجسر فقتل وغرق الكثيرين منهم.

وقد أدت هذه المعركة إلى تثبيت أقدام المسلمين في السواد بن دجلة والفرات فسيطروا على الحيرة، وأخذ المثني بن حارثة يغزو الأنبار حتى وصل شمال تكريت. كما ثبت المسلمون مواقعهم في الأبله حتى سيطروا على إقليم البصرة. وأخذوا يشنون الغارات على الفرس بين الحرة وكسكر.^(٢)

ه- معركة القادسية:

تاريخ هذه المعركة مختلف عليه، فالطبري، وابن الأثير، وابن كثير يجعلونها في المحرم سنة ١٤ هـ وان كان كل من الطبري وابن الأثير يشير إلى احتمال وقوعها في سنة ١٥ هـ وربما في سنة ١٦ هـ، وذكرها البلاذري أنها في سنة ١٦ هـ.

(١) هاشم يحيى الملاح: الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، ص ٣٦٣.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٢٣٦.

أسباب المعركة:

في عام ١٤ هـ جمع يزيد طاقاته ضد المسلمين، فبلغ ذلك المثنى بن حارثة الشيباني فكتب إلى عمر بن الخطاب فأعلن النفير العام للمسلمين أن يدركوا المسلمين في العراق واجتمع الناس بالمدينة المنورة فخرج عمر معهم إلى مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق العراق والناس لا يدرون ما يريد أن يصنع عمر، واستشار عمر الصحابة في قيادته للجيش بنفسه فقرروا أن يبعث على رأس الجيش رجلاً من أصحاب الرسول و يقيم هو ولا يخرج واستشارهم في من يقود الجيش فأشير إليه بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.^(١)

الحرب النفسية في معركة القادسية:**الحوار مع رستم:**

بعث سعد جماعة من السادات منهم: ربعي بن عامر و النعمان بن مقرن، و فرات بن حبان، و حنظلة بن الربيع التميمي، و عطار بن حاجب التميمي، و الأشعث بن قيس، و المغيرة بن شعبة، و عمرو بن معدي كرب، فدخلوا عليه، و قد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحريرية وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، و غير ذلك من الأمتعة الثمينة و قد جلس على سرير من ذهب، و دخل ربعي بن عامر بثياب صفيقة و سيف و ترس و فرس قصيرة، و لم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل و ربطها ببعض تلك الوسائد، و أقبل و عليه سلاحه و درعه و بيضته على رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فحرق عامتها.
فقالوا له: ما جاء بكم؟

(١) هاشم يحيى الملاح: الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، ص ٣٦٦-٣٦٧.

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لتدعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقاتلكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ونتظروا؟

قال: نعم! كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟

قال: لا بل حتى نكتب أهل رأينا رؤساء قومنا.

فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن تؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

فقال: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟

فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، تدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟

فقال: ويلكم لا تتظرون إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصنونون الأحساب.

وبعث سعد أكثر من رسول لحوار رستم، مثل حذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة.

المسير إلى القادسية:

أستدعى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن فولاه الجيش وأمره بالسير ومعه أربعة آلاف ثم أمده بألفي يمني وألفي نجدي وكان

مع المثنى ثمانية آلاف ومات المثنى قبل وصول سعد وتتابعَت الإمدادات حتى صار مع سعد ستة و ثلاثون ألفاً.

كان منهم تسعة وتسعون بدرياً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة فنظم الجيش وجعل على الميمنة عبدالله بن المعتم وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وجعل خليفته إذا استشهد خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عمرو التميمي وسواد بن مالك على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجالة حمال بن مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمي وجعل داعيتهم سلمان الفارسي والكاتب زياد بن أبيه وعلى القضاء بينهم عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي.

أما الفرس فقد أجبر يزدجرد رستم على قيادة الجيش الفارسي بنفسه وأرسل سعد وفداً إلى رستم فيهم: النعمان بن مقرن المزني وبسر بن أبي رهم والمغيرة بن شعبة والمغيرة بن زرارة.

وسار رستم وفي مقدمته (الجالينوس) وجعل في ميمنته (الهرمزان) وعلى الميسرة (مهران بن بهرام) ثم سار رستم حتى وصل الحيرة ثم النجف حتى وصل القادسية ومعه سبعون فيلاً. نعم

القتال:

وعبر الفرس النهر في الصباح ونظموا جيشهم، ونظم سعد جيشه وحثهم على السمع والطاعة لنائبه خالد بن عرفطة لأن سعداً أصابته دامل في فخذه وإليته فكان ينام على وجهه وفي صدره وسادة، ويقود المعركة من فوق قصره، وصلى المسلمون الظهر وكبر سعد التكبير الأولى فاستعدوا، وكبر الثانية فلبسوا عدتهم، وكبر الثالثة فنشط الفرسان، وكبر الرابعة فزحف الجميع، وبدأ القتال والتلاحم.

ولما رأَت خيل المسلمين الفيلة نفرت وركز الفرس ب (١٧) فيلاً على قبيلة بجيلة فكادت تهلك، فأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة فأبلوا بلاء حسناً وردوا عنهم هجمة الفيلة، ولكن الفيلة عادت للفتك بقبيلة أسد، فنادى سعد عاصم بن عمرو التميمي ليصنع شيئاً بالفيلة، فأخذ رجالاً من قومه فقطعوا حبال التوابيت التي توضع على الفيلة فارتفع عواؤها فما بقي لهم فيل إلا أعري وقتل أصحابه ونفس عن قبيلة أسد، واقتتل الفريقان حتى الغروب وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة كانوا ردة للناس وهذا هو اليوم الأول من المعركة ويسمى أرمات وهو الرابع عشر من المحرم.

وفي اليوم الثاني أصبح القوم فوكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم وسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وفي أثناء ذلك طلعت نواصي الخيل قادمة من الشام وكان في مقدمتها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي، وقسم القعقاع جيشه إلى أعشار وهم ألف فارس وانطلق أول عشرة ومعهم القعقاع فلما وصلوا تبعتهم العشرة الثانية وهكذا حتى تكامل وصولهم في المساء، فألقى بهذا الرعب في قلوب الفرس فقد ظنوا أن مائة ألف قد وصلوا من الشام فهبطت همهم ونازل القعقاع (بهمن جاذويه) أول وصوله فقتله ولم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئاً يعجبهم فقد أكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتل الفرس بالفيلة في هذا اليوم لأن توابيتها قد تكسرت بالأمس فاشتغلوا هذا اليوم بإصلاحها وألبس بعض المسلمين إبلهم فهي مجللة مبرقعة وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيل الفرس يتشبهون بها بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرمات فجعلت خيل الفرس تفر منها وقاتلت الفرس حتى انتصف النهار فلما اعتدل النهار تراحفوا من جديد حتى انتصف الليل فكانت ليلة أرمات تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد.

أصبح القوم لليوم الثالث وبين الصفيين من قتلى المسلمين ألقان ومن جريح وميت من الفرس عشرة آلاف، فنقل المسلمون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وأما قتلى الفرس فبين الصفيين لم ينقلوا.

وبات القعقاع لاينام فجعل يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه بالأمس وقال: إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة، ففعلوا ذلك في الصباح فزاد ذلك في هبوط معنويات الفرس.

وابتدأ القتال في الصباح في هذا اليوم الثالث وسمي يوم عمواس، والفرس قد أصلحوا التوابيت فأقبلت الفيلة يحميها الرجالة فنفرت الخيل، ورأى سعد الفيلة عادت لفعلها يوم أرمات فقال لعاصم بن عمرو والقعقاع: اكفياني الفيل الأبيض وقال لحمال والربيل: اكفياني الفيل الأجرب، فأخذ الأولان رمحين وتقدما نحو الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما في عينيه فنفض رأسه وطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فوق لجنبه، وحمل الأخران على الفيل الأجرب فطعنه حمال في عينه فجلس ثم استوى وضربه الربيل فأبان مشفره فأفلت الأجرب جريحاً وولى وألقى نفسه في النهر واتبعته الفيلة وعدت حتى وصلت المدائن، ثم تراحف الجيشان فاجتلدوا وسميت هذه الليلة ليلة الهرير، وفي هذه الليلة حمل القعقاع وأخوه عاصم والجيش على الفرس بعد صلاة العشاء فكان القتال حتى الصباح، وانقطعت الأخبار عن سعد ورستم فلم ينم الناس تلك الليلة وكان القعقاع محور المعركة.

فلما جاءت الظهرية كان أول من زال عن مكانه الفيرزان والهرمزان فانفرج القلب وأرسل الله ريحاً هوت بسرير رستم وعلاه الغبار ووصل القعقاع إلى السرير فلم يجد رستم الذي هرب واستظل تحت بغل فوقه حمله فضرب هلال بن علفة الحمل الذي تحته رستم وهو لايعرف بوجوده فهرب رستم إلى النهر فرمى نفسه ورآه هلال فتبعه وارتمى عليه فأخرجه من النهر ثم قتله ثم صعد طرف السرير وقال: قتلت رستم ورب الكعبة إلي إلي.

فانهارت حينئذ معنويات الفرس فانهزموا وعبروا النهر فتبعهم المسلمون
يخزونهم برماحهم فسقط من الفرس في النهر ألوفاً.

وقتل من المسلمين ليلة الهيرير ويوم القادسية ألفان وخمسماية، ومن
الفرس في الليلة نفسها عشرة آلاف ولحق زهرة بن الحوية التميمي الجالينوس فقتله.
ل-فتح المدائن ١٦هـ:

أرسل الخليفة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بالمسير إلى
المدائن وصل سعد بن أبي وقاص في ذى الحجة ١٥هـ/٦٣٦م، إلى مدينة بهر
سير، وتقع غرب دجلة وتطل على إيوان كسرى في المدائن شرق ثم أرسل سليمان
الفارسي يدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية أو القتال فحاصرها مدة شهرين بعد أن
نصب حولها عشرون منجنيقا.

ولما اشتد الحصار انسحب الفرس من بهر سير وعبروا دجلة نحو المدائن
ولم يمهلهم سعد بن أبي وقاص لتنظيم صفوفهم. ودخل المدائن في نفس شهر
صفر ١٦هـ/٦٣٧م. ولم يجد فيها أحداً بعد أن هرب الفرس إلى حلوان وفي
مقدمتهم ملكهم يزجرد الذي فر بعائلته وما استطاعوا حمله من الأموال والثياب.
(١)

وجنى المسلمين غنائم كثيرة. ونزل سعد القصر الأبيض وجعل إيوان
كسرى مصلى للمسلمين. ووزع الغنائم على المقاتلين فكان نصيب الفارس اثني
عشر ألف درهم. وقسم الدور في المدائن على الجند.

(١) عصام محمد شبارو: الدولة العربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية، بيروت،

م-موقعة جلولاء:

طارد سعد بن أبوقاص الفرس إلى جلولاء وأوقع بهم الهزيمة، وأسر إحدى بنات كسرى وقتل عدداً كبيراً من الفرس. وترتب على فتح جلولاء دخل في الإسلام دهاقين الفلاليج والنهرين وأقرهم عمر بن الخطاب على ما بأيديهم من البلاد ورفع عنهم الجزية، وأرسل سعد بن أبي وقاص إلى عمر ليبشره بأمر الفتح فكتب إليه قف مكانك ولا تتبعهم. (١)

ن-موقعة نهاوند ٢١هـ/٦٤٢م:

دور الاستخبارات قبل معركة نهاوند:

كانت الأخبار قد وصلت إلى عمر بن الخطاب في المدينة باجتماع أهل أصبهان وهمدان والرى وأذربيجان ونهاوند لقتال المسلمين وأقلق ذلك عمر وأخذ يبحث عن قائد لقيادة جيش المسلمين إلى هناك ودخل المسجد فرأى رجلاً يصلى صلاة خاشعة فامتلاً قلبه إعجاباً به وأمتلأت نفسه ثقة فيه، وكان الرجل مفتول الزراعين مرفوع القامة قوى العضلات، فسأل الخليفة عمر من هذا؟، ف قيل له: النعمان بن مقرن فقال: علىّ به فلما مثل الرجل بين يديه قال له عمر: لقد انتدبتك لأمر عظيم قال الرجل: يأمر المؤمنين إن كنت تريدني لجمع الزكاة فإنى لا أصلح لذلك وإن كنت تريدني لقتال العدو فإنى أصلح لذلك، قال عمر: أردتك للجهاد والقتال ثم ولاية إمارة الجيش.

كان اول عمل قام به النعمان قبل السير بجيشه نحو نهاوند وكان على مسافة بضعة وعشرين فرسخاً أن كلف كلاً من طلحة بن خويلد الأسدى وعمرو بن أبى سلمى العزى وعمرو بن معد يكرب الزبيدى بالتقدم أمام الجيش للاستطلاع للطرق الموصلة إلى نهاوند ومعرفة القوة الضاربة للأعداء وأنواع أسلحتهم ومعداتهم فصار ثلاثة مقدار يوم وليلة ثم عادوا يبلغوا القائد أن ليس بينهم وبين نهاوند شئ يعوق تقدمه مع إخباره بموصفات قوة الأعداء، الأمر الذى جعل النعمان يرسم

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج١، ص ١٧٩-١٨٠.

خطة المعركة بناءً على ما وصله من أخبار ومعلومات عن طريق دورية الاستطلاع، وكان النصر المؤزر والفتح الكبير لهذه البلاد. (١)

بعد انتصار المسلمين في جلولاء وسقوط ما حولها من البلاد اضطر يزيدجرد أن يغادر حلوان على إقليم فارس، فافتتح المسلمون حلوان ثم قرميسين في الشمال الشرقي منها، ثم جرت الموقعة الكبرى التي يطلق عليها العرب فتح الفتوح في نهاوند جنوبى همذان سنة ٢١هـ، ودار قتال عنيف بين المسلمين والفرس أسفر اللقاء عن هزيمة الفرس وفتحت أمام المسلمين الطريق إلى مناطق إيران الداخلية. وبلغ من اهتمام المسلمين بهذه الموقعة أن كاد يخرج إليها عمر بنفسه، وكانت هزيمة الفرس إيذاناً بسقوط المقاومة المنظمة كلها وتشتت القوى الفارسية في جهود فردية متفرقة يقوم بها حكام القاطعات. وتابع المسلمون تقدمهم حتى غلبوا على أصفهان ثم أصطخر، ثم تتساقط مدن خراسان في يدى الأحنف بن قيس وقتل يزيدجرد بعد سلسلة من التنقلات في مرو سنة ٣١هـ/٦٥١م.

٢- فتوح الشام:

أ- دمشق (١٤هـ/٦٣٥م):

لما انتصر المسلمون في موقعة اليرموك، قفل هرقل عائداً إلى حمص ليجعلها مقراً لأعماله الحربية فخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر وبعث الخليفة عمر بن الخطاب وأمره بتولية الأمراء على ما استعملهم عليه أبو بكر. فيما عدا عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فإنه ضم خالد إلى أبى عبيدة. وأمر عمرا بمعاونة غيره من القواد حتى تنتقل الحرب إلى فلسطين فيتولى القيادة فيها. وشرع أبو عبيدة في تنفيذ عملياته الحربية للاستيلاء على دمشق فنزل عمرو بن العاص باب الفراديس، وخالد بن الوليد بالباب الشرقي وأبو عبيدة بن

(١) نبيه عاقل وآخرون: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ط٣، دار الكتاب، دمشق،

الجراح بباب الجابية، وشرحبيل بن حسنة بباب توما، وقيس بن هيبيرة بباب الفرج.
(١)

وشد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوماً، ومنعت وصول الإمدادات والمؤن من الدخول للمدينة، ودخل خالد بن الوليد عنوة من الباب الشرقي، وأذعن البيزنطيون لأبي عبيدة بن الجراح بالصلح والتقى مع خالد عند كنيسة المقسلاط ووافق أبو عبيدة على اعتبار أن فتح دمشق تم صلحا.
ب-فتح مدن الشام الشمالية:

سار المسلمون بعد فتح دمشق إلى فحل واستولوا عليها، ثم استولوا على بيسان وطبرية وسار أبو عبيدة إلى حمص سنة ٦٣٦/١٥م وفرض عليها الحصار وطلب الروم الصلح مع أبي عبيدة فصالحهم. ثم سار إلى حماة وخرج الروم يطلبون الصلح من أبي عبيدة فصالحهم على الجزية وفرض على الأرض ضريبة الخراج.

كما فتح أبو عبيدة اللاذقية وجبلة وقنسرين. وواصل أبو عبيدة فتح المدن والقلاع حتى بلغ الفرات وسير قواده في حملات إلى منبج ودلوك ورعبان وبالس، فافتتحوها صلحا، ثم عبرت جيوش المسلمين درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد بيزنطة بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي وهو أول من سلك هذا الدرب من المسلمين. (٢)

ج-فتح بيت المقدس:

سار عمرو بن العاص وشرحبيل إلى بيسان فافتتحتها وصالحا أهل الأردن. واجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين وبيسان وسار عمرو وشرحبيل إلى الأربطون ومن معه وهو بأجنادين. وكان الأربطون من دهاة قادة الروم وحشد جنده

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، ج ١، ص ١٩٩؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام

في الرملة وإيلياء. ولما علم عمر بن الخطاب بذلك قال: رمينا أربطون الروم بأرجلون العرب، وشكل معاوية أهل قيسارية عن عمرة وجعل عمرو كل من علقمة بن حكيم ومسروق العكي على قتال أهل إيلياء ليشغلوا عنه جند الروم. وجعل أبا أيوب المالكي على من بالرملة من الروم. وتدفقت الإمدادات على عمرو بن العاص من المدينة المنورة.

وعزم عمرو بن العاص على قتال الأربطون في أجنادين وأنهزم الأربطون وانسحب إلى إيلياء ونزل عمرو أجنادين. ولما دخل الأربطون إيلياء (بيت المقدس) فتح عمرو غزة ونابلسي واللد وعموس، وبيت جبرين ويافا ومرج العيون. ولما شدد أبو عبيدة بن الجراح الحصار على بيت المقدس طلب أهله منه أن يصلحهم على صلح أهل مدن الشام بشرط أن يحضر الخليفة عمر والنقى الخليفة عمر بأمرائه على جند الشام في الجابية.

وسلم أهل بيت المقدس المدينة إلى الخليفة عمر وصالحهم على الجزية وفي تلك الأثناء كان الأربطون قد فر إلى مصر. (١)

وكتب الخليفة عمر بن الخطاب كتاب الصلح والأمان لأهل بيت المقدس، ويعتبر هذا الكتاب أجمل صورة تاريخية لسياسية التسامح.

د-فتح مدن ساحل الشام الجنوبي:

سار يزيد بن أبي سفيان ومعه أخوه معاوية في فتح سواحل الشام الجنوبية فاستولى على عرقة، وجبيل، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا.

وسار عمرو بن العاص إلى قيسارية لملاقاة قسطنطين هرقل، ولكن هذا الأمير وجد أنه لا جدوى من القتال، فرحل سرا هو وأسرته إلى القسطنطينية. (٢)

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٢١٢.

٣- فتح مصر (١٩-٢١هـ/٦٤٠-٦٤٢م):

لما قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجابية عرض عليه عمرو بن العاص فكرة فتح مصر مبينا له أهميتها كقوة للمسلمين وكثرة أرضها وخيراتها. ولكن عمر رفض هذه الفكرة في مستهل الأمر خشية على المسلمين من التوسع في عدة جبهات ولم تثبت أقدامهم بعد في البلاد التي فتحوها.

وكان فتح مصر أمرا تقتضيه طبيعة الوجود الإسلامي في بلاد الشام، فإن بقاء مصر في يد الروم، يهدد سلطانهم فيها بالزوال، كما أن موقع مصر الجغرافي يساعد الغرب على مواصلة الفتح غربا لضم المغرب والأندلس إلى حوزة الدولة الإسلامية. أضف إلى ذلك أن العرب بفتحهم لمصر يحققون أهم غرض من الفتوح العربية وهو نشر الإسلام في منطقة جديدة من أراضى الإمبراطورية الرومانية.

وبعد اقتناع الخليفة عمر بن الخطاب أن إلى عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر على رأس أربعة آلاف وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل، وشرط عليه أنى مرسل إليك كتاباً، فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو تدخل شيئاً من أرضها فانصرف، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فأمض واستعن بالله واستصره.

واختلفت الروايات حول وصول كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص فقيل إنه وصل وهو في رفح فتخوف أن يفتحه وأن يجد فيه ما يحول دون تحقيق هدفه بدخول مصر. وقيل إنه لم يأخذ الكتاب حتى نزل فيما بين رفح والعريش. ولما علم أنه دخل مصر أمر بفتح الكتاب على جنده.^(١)

(١) على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ط٥، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م،

أ- العريش:

سار عمرو بن العاص في الطريق المحاذي للبحر المتوسط حتى وصل على العريش وفتحها بدون مقاومة من القوات الرومانية.

ب- الفرما:

واصل عمرو زحفه تجاه الفرما واصطدم بحامية رومانية، واستمر القتال بين الفريقين لمدة شهر حتى فتحها.

ج- بلبيس:

مضى عمرو بن العاص إلى بلبيس واشتبك مع المقاومة الموجودة وفتحها بعد حصار دام شهرا.

وكان بها أرمانوسة ابنة المقوقس "قيرس" وأرسلها عمرو بن العاص بأموالهم إلى أبيها معززة مكرمة واكتسب عمرو بن العاص بهذا الموقف محبة القبط. (١)

د- أم دنيين:

زحف عمرو بن العاص إلى قرية أم دنيين (جهة الأزبكية) والتقى مع الروم ودار بين العرب والروم قتالا عنيفا.

وكتب عمرو إلى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب المدد فأمدّه بأربعة آلاف رجل وعليهم أربعة رجال أقوىاء هم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمر، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخد، وقيل خارجة بن حدافة.

ولما وصل هذا المدد إلى عين شمس (هليوبوليس) سار عمرو بن العاص لملاقاته فتقدم لقتاله تيودور ملك الروم في عشرين ألفاً، فوضع له عمرو كميناً في موضع خفى من الجبل الأحمر (شرقي العباسية) وآخر في النيل بالقرب من أم دنيين واشتد القتال خرج كمين العرب من الجبل الأحمر وانقضت على الروم

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق هنرى ماسيه ليدن، ص ٥٦-٥٩.

واختل نظامهم وذهبوا إلى أم دنينين، فقابلتهم قوة العرب التي على النيل فأصبحوا محصورين بين جيوش العرب التي أنزلت هزيمة ساحقة بالروم.

ه- حصن بابلون:

فر الرومان من أم دنينين إلى حصن بابلون أقوى الحصون الرومانية في مصر وكان يعرف هذا الحصن "بقصر الشمع" فحاصره سنة ٥٢٠هـ/٦٤٠م. وطالت مدة الحصار إلى سبعة أشهر.

وطلب المقوقس التفاوض مع عمرو بن العاص. وبعث برسله إلى عمرو الذي عمد إلى إبقائهم عنده يومين، ليشاهدوا حالة الجيش الإسلامي، وبعث عمرو برسله معهم وحدد مطالبة المقوقس وهي الدخول في الإسلام أو الجزية أو القتال. وسأل المقوقس رجاله عن حالة المسلمين فقالوا: "راينا رجالا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة". (١)

ولما سمع المقوقس هذا الكلام رغب في عقد الصلح في أسرع وقت ممكن وأرسل إلى عمرو بن العاص أن يبعث رجالا للتفاوض معهم، ولبى عمرو دعوة المقوقس وأرسل عشرة رجال على رأسهم عبادة بن الصامت.

وجرت المفاوضات بين عبادة بن الصامت والمقوقس في مناقشات طويلة أسفرت في النهاية عن عقد صلح بين المقوقس وعمرو بن العاص نص على:

١- يلتزم الأقباط بدفع دينارين عن كل واحد ويعفى من دفعها الشيوخ والنساء والأطفال.

٢- من نزل من المسلمين على الروم فحق الضيافة ثلاثة أيام مفترضة.

٣- تبقى للروم أرضهم وأموالهم على ما هي عليه، لا يتعرض لهم العرب في شيء منها.

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٧١.

وكتب المقوقس إلى الإمبراطور هرقل بأمر الصلح الذي عقده مع عمرو بن العاص أنكر عليه ملك الروم ذلك. واتهمه بالتقاعس وكره القتال. وكتب إلى قواد الروم الذين مع المقوقس.

وأخر المقوقس عمرو بن العاص برفض هرقل للصلح وأمر قواده من الروم بمواصلة القتال في حين أن المقوقس التزم بعهده ومن أطاعه من الأقباط مع المسلمين. (١)

ولما طال حصار المسلمين لحصن بابليون سعد الزبير بن العوام إلى أعلى الحصن وكبير وظن الروم أن العرب اقتحموا الحصن فولوا هارين ودخل الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن. و-الإسكندرية (٥٢١/٦٤٢م):

لما سقط حصن بابليون في يد عمرو بن العاص سار إلى الإسكندرية وخرج معه جماعة من الأقباط لإصلاح الطرق وإقامة الجسور. وعلمت الروم بخروج عمرو فاستعدوا لملاقاته واصطدم بحاميات رومانية في ترنوط، وكون شريك وسلطيس، والكريون كان النصر حليف عمرو في تلك الأماكن. وصل عمرو بن العاص إلى الإسكندرية وفرض عليها الحصار لمدة أربعة عشر شهرا.

وتحصن الروم بالإسكندرية ودفعوا عنها بكل قوة. ووضع عمرو بن العاص خطة حربية نفذها رجاله بكل بسالة وعلى إثرها سقطت الإسكندرية في يد المسلمين وهرب الروم في البر والبحر وأرسل عمرو بن العاص بخبر فتح الإسكندرية مع معاوية بن حديج إلى الخليفة عمر بن الخطاب أن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة.

ولما تم عمرو بن العاص فتح الإسكندرية ورأى بيوتها هم أن يسكنها وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، فجا جواب الخليفة عمر أن لا أحب أن

(١) على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص ٤٢.

تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم في الشتاء أو الصيف ففعل عمرو بن العاص عائداً إلى الفسطاط وشيد في هذا الموضع المسجد سنة ٢١هـ/٦٤٢م وهو أول مسجد بنى في مصر وعرف بجامع الفتح أو الجامع العتيق. وشيد عمرو بن العاص داراً له بجوار المسجد واختطت قبائل قريش، والأنصار، واسلم، وغفار وجهينة مساكنها. (١)

٤- فتح النوبة:

لما فتح عمرو بن العاص مصر بعث عقبة بن نافع إلى بلاد النوبة. ولقى المسلمون من أهل النوبة قتالاً شديداً فكانوا يرشقونهم بالنبل وكانوا يعرفون برماة الحدق. (٢)

٥- فتح برقة وطرابلس (٢٢-٢٣هـ/٦٤٣-٦٤٤م):

سار عمرو بن العاص إلى برقة على الطريق الساحلى المحاذى للساحل واستولى على برقة سنة ٢٢هـ/٦٤٣م وأذعن أهلها لدفع الجزية ومقدارها ثلاثة عشر ألف دينار.

ورغب عمرو في مواصلة فتوحه فشرع في تجهيز جيشين: أحدهما يسير بجذاء الساحل للاستيلاء على طرابلس والثانى يتجه إلى الداخل للسيطرة على المراكز العمرانية في جوف الصحراء التي تمثل جيوباً للمقاومة يخشى من قطعهم خط الرجعة على المسلمين.

بعث عمرو قائده عقبة بن نافع بجلة إلى فزان ففتحها ثم واصل زحفه جنوباً حتى استولى على زويلة.

أما عمرو بن العاص سار بحملة إلى طرابلس وفرض عليها الحصار سنة ٢٢هـ/٦٤٣م لمدة شهر وسقطت في يد المسلمين ثم بعث عمرو جيشاً لمفاجأة

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٦.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٨٠.

سبرت، وجيشا آخر بقيادة بسر بن أبي أرطأة لفتح ودان سنة ٢٣هـ/٦٤٤م ليقضى على أى محاولة مفاجأة من جانب البربر على المسلمين وليأمن ما تم فتحه.

وأرسل عمرو بن العاص بخبر الفتح إلى الخليفة عمر يستأذنه في مواصلة الفتح: "أن الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزو ويفتحها الله على يديه فعل".^(١)

ولكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض فكرة الاستمرار في الفتح بقوله: "لا إنها لست أفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزها أحد ما بقيت".

وعاد عمرو بن العاص إلى مصر بناء على رغبة الخليفة عمر بعد أن ترك عقبة ابن نافع على ولاية برقة والمناطق الصحراوية يدعوهم للإسلام حيث نجح في كسب ود سكان البلاد من قبائل لواتة ونقزاوة وهوارة فدخلوا في الإسلام وأصبحت برقة قاعدة الجيش الإسلامى في غرب مصر.

استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب:

طعن أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة بن شعبة الخليفة عمر بن الخطاب ثلاث طعنات في جسده أثناء تأديته لصلاة الصبح، وتوفى بعدها بثلاثة أيام.^(٢)

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت، ص ٥٦.

(٢) صابر محمد دياب: تاريخ الدولة الإسلامية فى عصر الراشدين، دار الثقافة، القاهرة،

ال خليفة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م)

شخصية عثمان :

كان عثمان عندما اعتلى عرش الخلافة قد تقدم فى السن تقدماً كبيراً، فقد قيل إنه كان فى ذلك الحين فى السبعين من عمره، وشفع له فى الوصول إلى الخلافة ماضيه المجيد فى سبيل الدعوة الإسلامية، إذ كان أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض.

كان عثمان غنياً أنفق معظم أمواله فى سبيل نشر الدعوة الدينية، شديد الإيمان بصدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم، وقد تزوج ببنتين من بناته، كما كان طيب القلب خالص العقيدة سخياً، وذاع عنه الجود والكرم والبذل للقرىب والبعيد حتى قلده عماله وكثير من أهل عصره فى طريقته واقتدوا بفعله. (١)

ومع ذلك لازمه سوء الحظ فى خلافته، فإنه لم يؤثر عنه مواقف تدل على شجاعته فى الحروب، ولذا كانت خدمته للإسلام بماله لا بسيفه، كما أنه تجرد من قوة الإرادة وبعد النظر والدهاء السياسى وهى مما اتصف به أبو بكر وعمر.

• انتخابه:

اختيار عثمان ؓ :

عندما طعن عمر ؓ على يد أبى لؤلؤة المجوسى قال الناس له: أوصى يا أمير المؤمنين أى استخلف كما فعل أبو بكر الصديق حتى لا يختلف المسلمون من بعده تدبر عمر رغم جراحة النازفة هل يتحمل المسؤولية حياً وميتاً؟ أم يترك الأمة عرضاً للاختلاف (٢) وقال من استخلف لو كان أبو عبيده حياً استخلفته، فإن سئلتى ربي سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً استخلفته فإن سئلتى ربي قلت: سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله، وإن كان معاذ بن جبل حياً لاستخلفته، فإن سألتى ربي قلت: سمعت نبيك يقول

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ١٦٣.

(٢) الطبرى: تاريخ الطبرى، ج٢، ص ٥٨٠-٥٨١.

إن معاذاً أعلم أمتي بالحلال والحرام، ثم قال إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني وإن اترك فقد ترك من هو خير مني ولن يضيع الله دينه فخرجوا، وأخيراً استقر رأيه على أن يجعل مسؤولية الأمة في يدها ويد ممثليها، وفي نفس الوقت يقيها الشقاق والاختلاف وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتوني في حفرتي: فاجمع هؤلاء الرهط في بيت، حتى يختاروا رجلاً منهم، فأمر بتشكيل مجلس شورى يضم ستة من المرشحين هم عثمان وعلى والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، ويحضر معهم ابنه عبد الله على أن يكون رأيه شورياً فقط يلجأ إليه القوم للترجيح وليس له حق الترشيح وبنى عمر اختياره لهم على أنهم الستة الباقيون من العشرة الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة، واعتبر ذلك تزكية لهم ومدعات للثقة فيهم. (١)

وحدد عمر مهمة المجلس ومدة انعقاده ونظام العمل داخله، فجعل لكل واحد من هؤلاء الستة حقين حق الترشيح، وحق الاختيار فعليهم أن يختاروا واحداً من بينهم وأمهاتهم ثلاثة أيام بعد وفاته لايزيدون عنها ووضع الضمانات لحسم الخلاف منها:

- أمر صهيباً أن ينوب عن الخليفة في هذه المدة ويصلى بالناس ويتابع مجلس الشورى.
- إذا خرج أحدهم على رأى الأغلبية فعليه أن يضربه بالسيف.
- إن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فليحكموا عبد الله بن عمر فإن لم يرضوا رأيه فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، ويقتلون الباقيين إن أصروا على الخلاف.
- أمر عمر بانعقاد المجلس عقب وفاته دون انتظار طلحة الذي كان غائباً عن المدينة فإن حضر نظم إليهم وإن تأخر سقط حقه في الترشيح.

(١) ابن الاثير: الكامل، ج ٣، ص ٣٥

- ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ولا أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين على وعثمان.
 - إن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف.
 - إن اتفقا أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسهما.
 - ونهى كل واحد منهم إن صار خليفة عن تفضيل الأقارب وحملهم على رقاب الناس وأوصى من يصير خليفة من بعده بالأنصار خيراً وبالعرب.
- تداول أهل الشورى الرأي:**

استأذن عبد الرحمن بن عوف من معه فى الخروج من الشورى وترك حقه فى الخلافة ليرى رأى الناس والأمراء والوفود بالمدينة وعاهد أهل الشورى على الإنصاف والحياد وعاهدوه على الرضى وقالوا لقد قال فيه رسول الله ﷺ: "أمين فى السماء وأمين فى الأرض" طاف عبد الرحمن على الناس وخلقى بكل واحد من أهل الشورى وطال النقاش داخل المجلس حتى طلعت شمس اليوم الثالث دون أن يصل المجتمعون إلى قرار، فاقترح أن يتنازل أحدهم عن حقه فى الترشيح وأن يكون له الحق فى الاختيار: أيكم يخلع نفسه ويتقلدها، على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد، فقال أنا أخلع نفسى، فوافق الباقرن على ذلك فأصبح الاختيار موكلاً إليه وأخذ عليه باقى الأعضاء عهداً ألا يتبع الهوى ولا يخص ذا رحم ولا يألو الأمة.

وخطى الخطوة الثانية لتيسير المهمة فتنازل الزبير وسعد عن حقهما فى الترشيح بعد أن أحسا بضئالة فرصتهما وأصبح الاختيار محصوراً فى عثمان وعلى رضى الله عنهما.

وقبل أن يحزم عبد الرحمن الأمر استشار الناس فوجد ميلاً عاماً نحو عثمان ﷺ ولعل ذلك لأن الناس كانوا يتطلعون إلى لين عثمان ﷺ وتسامحه بعد أن ضاق الكثير منهم بالقيود التى فرضها عليهم عمر ﷺ .

ومن خلال هذه المشاورات بقى على عبد الرحمن بن عوف أن يجد السند القوى الذى يقنع به عامة المسلمين حتى يأيدوا هذا الترشيح ولا يختلفوا عليه فأعد

سؤالاً واحداً ليووجهه إلى المرشحين على الملأ وهو سؤال يدل على درايته بطبيعة الشخصيتين فهو يعلم اعتداد على ﷺ برأيه واجتهاده وحرصه على استقلال سياسته ومنهجه، ويعلم مدى إعجاب الجماعة الإسلامية بسيرة أبي بكر ﷺ وعمر وحبها لهما، ولذا كان سؤاله: "هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟"، وكانت إجابة على المتوقعة أعمل بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ وأرجوا أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، لأنه لا يريد أن يعد بما لا يستطيع أن يفى به ولا أن يقيد نفسه بقواعد محددة في ظروف متجددة، بينما كانت إجابة عثمان اللهم نعم فبايعه عبد الرحمن بن عوف وتزاحم الناس على بيعته وفيهم على ﷺ الذي شق الصفوف إلى عثمان وبايعه ﷺ محافظة على وحدة الأمة فسكت من كان يتحزب له وكان عثمان ﷺ في السبعين من عمره تقريباً.

وهكذا تمتبيعة عثمان ﷺ بالشورى الحرة المحصورة في نطاق ضيق وهو الستة فكانت وسطاً بين السقيفة وترشيح شخص واحد مثل عمر ﷺ.

وجهت بعض الانتقادات لطريقة ترشيح أو مبايعه عثمان فالبعض وجه نقداً للمجلس لأنه كان مقصوراً على المرشحين الستة وكان الأفضل أن يكثر فيه المستشارون، وأن تحديد فترة عمله بثلاثة أيام ليست بكافية وكان الأفضل أن ينفسح الوقت للاختيار. (١)

ولكننا نرى أن عمر ﷺ كان أقرب للأمور وأبصر وكان حرصه الأول أن يحسم الخلاف ويمنع بوادر الفتنة، ولو وسع نطاق الشورى لتعددت الآراء والأهواء وقد أحس المرشحون برغم عددهم المحدود بهذا الخطر فضيقوا النطاق أكثر مما فعل عمر وجعلوا أمرهم إلى واحد منهم فقط مما يؤكد ملائمة الاتجاه الذي صار فيه عمر للظروف التي كانوا فيها.

أما تحديد الفترة الزمنية بثلاثة أيام فهي مدة كافية جداً لأن أشخاص المرشحين ليست مجهولة لأحد من المسلمين وليس بلاؤهم ومكانتهم في حاجة إلى دراسة، ولو

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٥٨٣.

امتد الزمن لأنفسح مجال الشقاق بدليل أن بواده ظهرت صبيحة اليوم الرابع عندما اجتمع المسلمون في المسجد وكثر الجدل حتى صاح سعد بن أبي وقاص يتعجل عبد الرحمن بن عوف بنتيجة الترشيح: "أفرغ قبل أن يفتتن الناس". وإذا نظرنا إلى أسلوب اختيار عثمان برغم اختلافه الشكلي، وجدنا المبادئ التي التقت عليها الأمة في اختيار سلفيه قد توفرت فيه، فالترشيح تم عن طريق أهل الحل والعقد، (مجلس الستة) الذين اختارهم عمر وفيما رجع إليهم عبد الرحمن بن عوف خارج المجلس، ثم أعطت الأمة بيعة عامة في المسجد، وبإيع أهل المدينة عثمان ﷺ ولم يتخلف منهم أحد. (١)

اتساع الدولة العربية زمن الخليفة عثمان ﷺ:

كان ميدان الفتوح الإسلامية في زمن عثمان في الشرق والغرب من الجزيرة العربية. ففي الشرق خرجت فارس بعد مقتل عمر على السيادة الإسلامية وهم الفرس باسترجاع ملكهم بقيادة يزيدجرد بن شهريار آخر الملوك الساسانيين، فعهد عثمان إلى عبد الله بن عامر عامله على البصرة لقمع هذه الثورة، ففضى عبد الله على الفتنة في فارس ثم تابع سيره إلى خراسان وفتحها بعد أن ترك لجنده أمر إعادة سلطان الدولة في كرمان وسجستان:

وفي أثناء هذه الحروب طورد يزيدجرد وتوفى وقيل إنه قتل سنة ٣١ هـ على يد بعض الفرس المسيحيين، وبموته انتهت سلسلة ملوك الدولة الساسانية في فارس. (٢)

وفي عهد عثمان بن عفان فتح سعيد بن العاص طبرستان، وقيل إن جيش المسلمين كان يضم الحسن والحسين ابني علي. وكذلك طلب ملك جرجان الصلح من سعيد بن العاص، وتعهد بأن يدفع له مائتي ألف درهم كل عام. وعبر الأحنف

(١) ابن الأثير : الكامل، ج٣، ص٣٦.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ج١، ص٢٣٤.

بن قيس نهر جيحون فصالحه أهالي بلاد ما وراء النهر، ثم توغل في طخارستان وفتحها مدينة بعد أخرى حتى أرغم أهلها على مصالحته.

وكانت الشام في عهد عثمان مقسمة بين الأمراء المسلمين، وكان معاوية يحكم جزءاً كبيراً منها وعرف بحسن السياسة والتدبير، وتمكن من جمع الشام كلها تحت حكمه وأصبح أشبه بملك مستقل، فقد مكث أميراً عليها مدة طويلة بلغت العشرين عاماً، وصار له في قلوب أهل الشام مكانة سامية كان لها أكبر الأثر في تعزيدهم له عندما عزله على ورفض معاوية أن يطيع ذلك الأمر.

وفي مصر عزل عثمان واليها عمرو بن العاص وولى عليها أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وكانت مصر إذ ذاك مهددة من الدولة البيزنطية، ومع ذلك فقد غزا ابن أبي السرح الإقليم المسمى إفريقية لتأمين حدود مصر الغربية.

كانت الدولة العربية حتى وفاة عمر دولة برية وليست بحرية: فكانت جيوشها تحارب براً، ولم نسمع إلى ذلك الوقت بواقعة بحرية أو بإنشاء أسطول، ولكن في عهد عثمان ابتدأت الدولة الإسلامية في تكوين قوة بحرية كبيرة. ويقال إن معاوية استأذن عمر في إنشاء أسطول يغزو به الروم في البحر، وذلك لأن معاوية وجد أن أساطيل الروم لا تبرح تهدد شواطئ الشام، إلا أن عمر امتنع عن ذلك لخوفه على المسلمين من ركوب البحر، ولكن الضرورة كانت ماسة لإنشاء أسطول، إذ أصبح العرب أمام البيزنطيين وجهاً لوجه، فلما جاءت خلافة عثمان عرض عليه معاوية الفكرة من جديد، فأذن له عثمان على شرط ألا يجبر مسلماً على ركوب البحر، فجد معاوية في إنشاء أسطول جعل رجاله من العرب اليمنيين، وأمر على الأسطول الإسلامي عبد الله بن قيس الحارثي فكان أول أمراء البحر، وقد حارب معاوية بهذا الأسطول البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية في آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتي قبرص ورودس وفتح كثيراً من الحصون،

وصار إلى أرمينية الصغرى حتى وصل إلى فاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى بلغ تفليس. (١)

وفي سنة ٣٤هـ حدث بين العرب في مصر بقيادة عبد الله بن أبي السرح وبين قسطنطين ملك الروم، موقعة بحرية هامة في البحر الأبيض المتوسط، تعرف بموقعة ذات الصواري بالقرب من مدينة الإسكندرية حين حاول الروم استرجاع مصر، وكان النصر فيها للعرب، وسميت بذلك الاسم لكثرة عدد السفن التي اشتركت في المعركة، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأسطول العربي يقوم بدور هام في التاريخ الإسلامي.

وكان عمرو بن العاص قد غزا بلاد النوبة، فلما جاء ابن أبي السرح إلى مصر وتولى أمرها، وجه نظره نحو الجنوب فغزا بلاد النوبة من جديد وواصل سيره حتى بلغ دنقله، ولكنه لم يتمكن من فتحها، رغم ما بذله من جهود في القتال، وكان ذلك سنة ٣١هـ، فاضطر إلى مهادنة أهلها وعقد الصلح معهم، وكان هذا الصلح أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة: فقد نصت على أن ترسل بلاد النوبة الرقيق إلى مصر، على أن تصدر مصر إليها الحبوب والعدس.

مقتل عثمان والأحداث التي أدت إليه:

إذا قارنا بين حال المسلمين في زمن النبي وأبي بكر رضي الله عنهما وعمر وحالهم في زمن عثمان، نجد هناك فرقاً شاسعاً: ففي الزمن الأول كان المسلمون فقراء لم يفتنهم المال والعقار وامتلاك العبيد، أما في زمن عثمان فقد نشأ من تدفق الأموال على بلاد العرب بعد استقرار النفوذ العربي في الأقاليم المفتوحة أن تغيرت حالة العرب الاجتماعية تغيراً ملحوظاً. كذلك تغيرت شخصية الخليفة، فهناك فرق كبير بين شخصية النبي وأبي بكر رضي الله عنهما وعمر وبين شخصية عثمان: فالنبي صلى الله عليه وسلم كانت له مكانة خاصة ممتازة كما كان زعيماً سياسياً قديراً على تصريف أمور الدولة وحكم أصحابه من بعده حكماً حازماً. وعرف أبو بكر وعمر بالعدل المقرون بالشدة،

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٣.

ولكن عثمان من سوء حظه أنه حكم الدولة العربية بعد أن تغيرت أحوالها واتسعت املاكها وكثرت أموالها وزادت مطامع رجالها، ولذلك لم يكن موفقاً في حكمه توفيق النبي وخلفائه الأوائل من بعده. ويمكن إرجاع الفتنة التي أودت بعثمان إلى الأسباب الآتية:

١- اعتراض الصحابة على سياسة عثمان:

غضب كثير من الصحابة على عثمان؛ لاشتراطه في جباية الأموال وإغداقها على أقاربه وإسراف ولاته في سفك الدماء، وكان أبو ذر الغفاري من أشد الصحابة سخطاً عليه، فأخذ يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء، ودعا إلى عدم كنز الأموال، وإلى صرف الفائض من أموال الأغنياء على الفقراء. ممثلاً بقوله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) (التوبة: ٣٤-٣٥).

وقد غضب عثمان على أبي ذر الغفاري، فأرسله إلى معاوية بالشام، ولكن معاوية خاف على ولايته من دعوة أبي ذر، وخاصة أن ابن سبأ حينما وفد إلى الشام حرض أبا ذر على معاوية؛ فسيره معاوية إلى المدينة لما وجد فيه معارضة لسياسته، فلما دخلها أبو ذر وجد المجتمعات تعقد بها للتأمر على عثمان فنادى في المجتمعين: بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكور، وأخيراً نفاه عثمان إلى الريزة حيث مات سنة ٣١هـ. (١)

وكان عبد الرحمن بن عوف، وهو ممن بايعوا عثمان بالخلافة، من بين الغاضبين على عثمان، وأخذ في بادئ الأمر ينصحه، فلما ضاق ذرعاً بسياسته قاطعه وابتعد عنه. لم يرض على بن أبي طالب عن عثمان واعترض علناً على سياسته وتصرفاته وأكثر من نصحه بدون جدوى، حتى ساءت العلاقات بينهما،

(١) ابن العربي: العواصم من القواصم، حققه محب الدين الخطيب، المكتبة العلمية، بيروت،

وتدخل العباس بن عبد المطلب للتوفيق بين الرجلين ولكنه لم ينجح في مسعاه. وغضب كذلك عمار بن ياسر على عثمان وناله منه أذى كثير بسبب معارضته له، وهدد بالنفي فذهب إلى مصر وانضم هناك إلى المعارضين. وكان من بين الذين غضبوا أيضاً على عثمان بسبب تصرفاته، عبد الله بن مسعود وطلحة بن عبيد الله الذي قبل إنه كان من بين الذين حاصروا عثمان في داره.

كان هؤلاء المعارضون من كبار الصحابة الذين لم تتجاوز معارضتهم حد النصح. ولا شك أن موقفهم من عثمان، كان بسبب ما رأوه من تكبئه الطريق السوى الذي سلكه الرسول وأبو بكر وعمر.

الحالة في الأمصار:

١- في المدينة:

لم تكن المصلحة العامة وحدها هي التي دعت إلى الثورة على عثمان: حيث أن كبار الصحابة جميعاً كانوا خلال معالجتهم للحالة في الأمصار يعتبرون أنفسهم حماة للمصلحة العامة، يمثلون النظم والتقاليد التي سار عليها النبي وأبو بكر وعمر. وأنتجت معارضة هؤلاء ظهور روح الثورة في المدينة، وهي بلدة كانت في حاجة ماسة إلى العون المادى والمدد العسكرى ولذلك عمد أهل المدينة إلى الاتصال بالمسلمين في الأمصار، وخاصة البصرة والكوفة والفسطاط، فيما عدا بلاد الشام التي لم تثر على عثمان بفضل سياسة معاوية.

٢- في الكوفة والبصرة :

ابتدأت الفتنة في الكوفة في سنة ٣٤هـ، وكان والى الكوفة سعد بن أبى وقاص قد عزله عثمان، وولى مكانه الوليد، ثم عزله وولى سعيد بن أبى العاص الذى اشتدت فى عهده الحالة فى الكوفة حتى اضطر إلى الخروج إلى المدينة ليطلع الخليفة على حقيقة الحال، فانتهز أهل الكوفة فرصة غيابه ومنعوه من دخولها عند عودته إليها: وهنا يتضح ضعف عثمان، فقد رضى بعزل سعيد وولى مكانه أباً موسى الأشعري، وهو رجل ضعيف لم يستطع كبح الثوار. وكانت الحالة

البصرة مثلها في الكوفة، غير أن الثورة في الكوفة كانت أشد منها في البصرة لكثرة عدد الجند بها. (١)

٣- في الفسطاط:

أما الفسطاط، فإن عثمان لما تولى الخلافة: عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فخر بذلك صداقة عمرو وهو رجل من أدهى رجال عصره، فقد خرج من مصر بعد عزله وسار إلى المدينة ناقماً على عثمان، فلما اشتد الحال في المدينة ذهب إلى فلسطين ولكن حنقه على عثمان كان في ازدياد.

وفي مصر كان على رأس الثوار المصريين رجلاً من كبار المحرضين على عثمان هما: محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة، فقد حقد ابن أبي حذيفة على عثمان لأنه كان يأمل أن يوليه بعض أمور المسلمين، ولكنه رفض وظهر مسلكه العدائي لعثمان عندما شجر الخلاف بينه وبين ابن أبي السرح في واقعة ذات الصواري سنة ٣٤هـ، وابتدأت الثورة في مصر على الخليفة في أثناء الغزوة التي انتهت بتلك الواقعة، فقد خرج المصريون ومعهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وانضم إليهما فريق ممن على رأيهما، ويظهر أنهما سخطا على عبد الله بن أبي السرح لأنه استأثر بالأموال والخزائن وعاونه الخليفة على ذلك. ولما وضعت الحرب أوزارها رجع ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر إلى الفسطاط، حيث انضموا إلى ابن سبأ.

وهكذا نجح ابن سبأ في مصر في تأليب الناس على عثمان، وانضم إليه كثير من ذوى النفوذ والسلطان، ولذا كانت معارضة الأقاليم لحكم الخليفة أقوى من معارضة المدينة.

١- سياسة عثمان في تولية الولاة:

ثالثاً : مشكلة الثورة التي قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٧٨.

لم تكد تمضى سنوات قليلة على فتح مصر حتى حدثت الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه على أثر تضافر عوامل مختلفة أدت إلى وقوع هذه الفتنة.

تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة (٢٣ . ٣٥ هـ / ٦٤٣ . ٦٥٥ م) بعد موت الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وسار عثمان رضي الله عنه على نهج سلفه في أعمال الفتوحات الإسلامية ، ولم تكن تمضى سنوات قليلة على خلاته حتى حدثت الفتنة التي انتهت بمقتله على أثر تضافر عوامل مختلفة أدت إلى وقوع هذه الفتنة كان من أهمها :-

وجدت حالة من التذمر في الدولة الإسلامية مجالا فسيحا في خلافة عثمان وذلك بعد أن بدأت تتوقف الفتوحات الكبرى ، بجانب لين الخليفة وتسامحه ، وبدأت حركة التذمر تسرى في الولايات الإسلامية المختلفة ضد الخليفة ، ولم تمض ست سنوات على حكمه حتى ترأس هذه الحركة رجل يهودي من أهل صنعاء أسلم زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهو عبد الله بن سبأ ، وكان يعرف بابن السوداء ، ويبدو أن ابن سبأ كان من الذين أسلموا ليضلوا الناس عن الإسلام ويكيدوا لهذا الدين.

بدأ ابن السوداء دعوته بالحجاز ، ثم البصرة والكوفة والشام ، ولكنه لم ينجح في الحجاز أو الشام ، كما أنه طرد من البصرة والكوفة، فجا إلى مصر ووجد بها مجالا لنشر تعاليمه ودعايته ، وإعلان الثورة ضد الخليفة^(١).

وخرج ابن السوداء للناس بنغمة جديدة غير التي جاءهم بها في الشام ، فألف حزبا بها واتخذة شيعة له ، وكان مما يخاطب به أهل مصر الآتي:

قال العجيب: من يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمد لا يرجع، وقد قال الله عز وجل: "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد"^(٢)

(١) سيدة كاشف: عصر الولاة ، ص ٧٢.

(٢) سورة القصص: آية ٨٥.

١. فوضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها وقبلها بعض الناس من ضعاف الإيمان
٢. روج بين شيعته نظرية الحق الإلهي التي أخذها عن الفرس ، واستند إلى أن علياً عليه السلام هو الخليفة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه يستمد الحكم من الله.
٣. قال إن لكل نبي وصيا ، وعلي عليه السلام وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، ونادى بأحقية علي عليه السلام بالخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن عثمان عليه السلام قد اغتصب الخلافة من وصى الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولابد أن ابن سبأ كان شخصية قوية جذابة جعلته يؤثر على العامة ، بل استطاع أن يجذب إليه كبار الصحابة مثل عمار بن ياسر ، الذي كان عثمان عليه السلام قد أوفده إلى مصر ليوقف على حقيقة الثورة بها ، فبقى عمار بمصر ولم يعد للمدينة^(١) ، وقد ساعد ابن السوداء في رواج أفكاره عدة أمور منها:

١. تبرم أهل مصر على عثمان عليه السلام وعامله عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وانضمام كل من محمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أبي بكر الصديق إليه ، فنجحت سياسته.

٢. أن المصريين كانوا أنصارا لعلي بن أبي طالب عليه السلام .
 ٣. انشغال عبد الله بن سعد بن أبي سرح في حروبه الخارجية في إفريقية والنوبة ضد الروم في معركة ذات الصواري سنة ٣٤هـ/٦٥٤م^(٢).
- على أن بعض المستشرقين مثل: فلهوزن وغيره شككوا في دور ابن سبأ في الفتنة التي حدثت ضد الخليفة عثمان عليه السلام ، ومن العجيب أن هؤلاء بنو شكوكهم على بعض الروايات الضعيفة التي كتبت حديثاً، ويسوق مستشرق آخر وهو الإيطالي "كايتاني" اعتبارات أخرى للتشكيك في دور ابن سبأ بأنه يشك في وجود ذاته ويذهب إلى أنه مجرد أسطورة واستند في ذلك أنه لم يرد له ذكر في المصادر المتقدمة على تاريخ الطبري، استحالة حدوث ذلك النوع من المؤامرات في عصر الراشدين

١ () سيدة كاشف: عصر الولاة ، ص ٧٣.

(٢) الكندي: ولاة مصر ص ٣٦، ٣٧ ، سيدة كاشف: عصر الولاة ، ص ٧٣.

وأن التوقيت الطبيعي لهذا النوع من المؤامرات هو العصر العباسي، كما نفى الأسباب الدينية المحركة للفتنة وأرجع ذلك إلى أسباب إدارية واقتصادية.

ومن الملاحظ ان المستشرقين ليسوا على حق في هذه الآراء لأن أخبار

ابن سبأ قد وردت في العديد من المصادر منها:

١- ابن أبي عاصم: كتاب السنة، ج٢، ص٤٧٦.

٢- الكاشي: كتاب الرجال، ص٩٨.

٣- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١، ص٧.

٤- ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، ج١، ص٢٣.

إن قول المستشرقين بأن العصر العباسي هو الوقت المناسب لمثل هذه الأحداث قول غير صحيح، لأن ما لقيه النبي ﷺ من المؤامرات والمكائد في العهدين المكي والمدني من قبل المشركين والمنافقين واليهود أعظم بكثير مما حدث في

عصر الراشدين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ أَخْبَرُوا النَّبِيَّ بِالْحَقِّ أَن يَخْرُجَ إِلَىٰ أَرْضِهِمْ مُبِينًا فَلَمَّا أَتَاهَا نُكِرَ لَهُمْ فَمَا لَمْ يَكُن لَهَا بِيَعْلَمُونَ﴾ (١).

أما نفى الأسباب الدينية المحركة للفتنة وإرجاع ذلك لأسباب سياسية وإدارية واقتصادية فإن هدف المستشرقين هو استبعاد الدور اليهودي في الفتنة وهذا أمر بعيد عن الصواب لأن اليهود مازالوا يكيّدون للإسلام والمسلمين من عصر

الرسول ﷺ حتى اليوم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ أَخْبَرُوا النَّبِيَّ بِالْحَقِّ أَن يَخْرُجَ إِلَىٰ أَرْضِهِمْ مُبِينًا فَلَمَّا أَتَاهَا نُكِرَ لَهُمْ فَمَا لَمْ يَكُن لَهَا بِيَعْلَمُونَ﴾ (١).

(١) الأنفال: آية ٣٠.

نزلت في وقت لم يكن النبي ﷺ قد اصطدم بعد باليهود مثلاً حدث عندما هاجر إلى المدينة وتآمر هؤلاء عليه وأظهروا عداوتهم لدعوته.

أم بالنسبة لعبد الله بن سبأ فهو ليس شخصية أسطورية، بدليل أن كتب الرجال والجرح والتعديل فصلت فيه القول بما لا يدع للشك ليس في معرفة عينه بل وفي عرفة حالة وأخباره فعلى سبيل المثال قال الذهبي في ميزان الاعتدال ج٢، ص٤٢٦ عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة ضال مضل، وقال ابن حجر لسان الميزان، ج٣، ص٢٨٩ عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة هذا بجانب ما ذكرته كتب التاريخ والعقيدة.

كما أن النقاء وفود كل من البصرة والكوفة ومصر في وقت واحد بالمدينة المنورة وقيامهم بمحاصرة بيت الخليفة لا يمكن أن يحدث بمجرد الصدفة ولا بد له من تدبير مسبق، وقد قام بهذا التدبير أشخاص مغرضون وسواءً كان عبد الله بن سبأ شخصية حقيقية أو أسطورية فهذا لا يهمنا في كثير أو قليل ويجب أن ننظر إليه على أنه رمز لرأس كبير من رؤوس الفتنة التي دبرت مقتل الخليفة عثمان ؓ . إن محور الكلام في الروايات المتعلقة بالفتنة يدور حول يد خفية كانت وراء هذه الفتنة تحركها فالروايات المفصلة للحادثة تجمع على قضية هامة هي وجود اليد الخفية.

وجهت بعض الاتهامات باشتراك الصحابة المذكورين أو اشتراك بعضهم في هذا الأمر فهل يعقل أن طلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاص وعمار بن ياسر مشتركين في إضرام الفتنة وهم الذين شددوا على الخليفة على بن أبي طالب في المطالبة بدم عثمان.

وقد أقبل إلى المدينة سنة ٣٥هـ وفد من العرب المقيمين في مصر وجموع من عرب البصرة والكوفة وقد ناقش هؤلاء الخليفة عثمان ؓ في بعض المواقف

والقرارات التي اتخذها بناءً على اجتهاده ثم انصرفوا عن المدينة راجعين إلى أمصارهم، وخاصة بعد أن يئسوا من مساندة أهل المدينة لهم فضلاً عن ردود الخليفة المقنعة على طلباتهم.

وهناك قصة الكتاب الذي قيل بأن وفد مصر وجده وهو في طريقه إلى مصر مع غلام للخليفة يأمر فيه عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى مصر بأن ينكل بقيادة هذا الوفد الذي عاد من عند الخليفة، مما حملهم على العودة إلى المدينة ومحاصرة الخليفة في داره حيث انتهى الأمر بقتله.

وهذا الكتاب المزعوم يعتبره البعض من المآخذ على الخليفة عثمان رضي الله عنه لأنه في زعمهم تظاهر بالاستجابة لمطالب وفد مصر ووعدهم بتحقيق ما يرضيهم، ثم ما لبث أن سير كتاباً مختوماً بخاتمه إلى وإلى مصر يأمره بالتكيل بقياده هذا الوفد.

على أن هناك أدلة واضحة تثبت أن هذا الكتاب مزور، وأنه لم يصدر عن الخليفة عثمان رضي الله عنه ولا عن كاتبه مروان بن الحكم منها:

- أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لم يكن موجوداً بمصر وقت قفول الوفد بالرجوع إلى المدينة، إذ كان في طريقه إلى المدينة.
- أن محمد بن أبي حذيفة الذي تزعم الفتنة في مصر ضد الخليفة عثمان رضي الله عنه كان قد تغلب عليها وقت ذلك، وكان كل من الخليفة ومروان يعلم بذلك، وكان محمد بن أبي حذيفة قد رفض الخليفة عثمان رضي الله عنه أن يوليه إحدى الولايات لعدم كفاءته رغم أنه ابن عم الخليفة ^(١).

وقد تحدث ابن عبد ربه عن مسألة تزوير الكتب في ذلك الوقت فقال: "لما قدم القواد (قواد الفتنة) قالوا لعلي رضي الله عنه: قم معنا إلى هذا الرجل (عثمان رضي الله عنه)، قال: لا

(١) الطبرى: تاريخه، ج٤، ص٣٧٨.

والله ولا والله لا أقوم معكم، قالوا فلما كتبت إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتاباً قط فنظر القوم بعضهم إلى بعض وخرج على ﷺ من المدينة^(١).

ومما يدل على تزوير هذا الكتاب والادعاء بأن الخليفة كتبه إلى واليه على مصر أن وفدى البصرة والكوفة التي كانت متابعدة في الشرق عادت كلها إلى المدينة في وقت واحد مع أن الكتاب المزعوم اكتشفته طائفة واحدة فقط هي القافلة المتجهة إلى مصر.

وأينما كان الأمر فمسرحية الكتاب المزور مثلت في الطريق الغربي الذي كان المصريون فيه وحدهم وكان الراكب المستأجر لعمل هذا الكتاب يتعرض لقافلة المصريين ثم يفارقها مبتعداً عنها ويكرر ذلك المرة بعد المرة ليثير شبهتهم فيه، وكان المفروض لو كان صادقاً أن يختفى عن عيون رجال القافلة ولكنه لما ظهر لهم المرة بعد الأخرى قالوا له: ما لك؟ قال أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر أن يصلب قادة الوفد ويقطع أيديهم وأرجلهم فصدقوه ولم يعلموا أن الكتاب من تزوير الأشطر مالك النخعي وحكيم ابن جبلة زعيمي وفدى البصرة والكوفة اللذان تخلفا في المدينة ولم يخرجوا مع وفديهما حين تحرك في اتجاه البصرة والكوفة مقتنعين برد الخليفة، وقد ابتكر هذان الرجلان وسيلة لإعادة الوفود الثلاثة إلى المدينة مرة أخرى لتجديد الفتنة فكان هذا الكتاب المزور هو الوسيلة المبتكرة لتحقيق ذلك^(٢).

فلما عادت قوافل الوفود الثلاثة إلى المدينة وصلت كلها في وقت واحد كأنما كانوا على موعد، ولا عجب في ذلك لأن الذين استأجروا الراكب الأسود ليمثل دور حامل الكتاب أمام قافلة الوفد المصري استأجروا ركباً آخر خرج من المدينة على قافلة البصرة والكوفة ناحية الشرق، وذلك ليخبرهم بأن إخوانهم المتجهين حول

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٤، ص٢٩٢.

(٢) الطبرى: تاريخه، ج٤، ص٢٧٠.

مصر اكتشفوا كتاباً بعث به عثمان رضي الله عنه إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح في مصر للتكامل بقيادة الوفد المصري.

ولما عادت الوفود إلى المدينة قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتهم مراحل من الطريق ثم طويتم نحن؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة (يشير إلى تخلف الأشر وحكيم في المدينة وأنهما وراء تدبير ذلك الكتاب المزور"، فأجابه القوم قائلين: "ضعه على ما شئت، لا حاجة لنا إلى هذا الرجل (عثمان) فليعتزلونا"^(١).

وعندما رجع والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح من حروبه رجع إلى الخليفة، لأن الخليفة قد دعا الولاة جميعاً أن يحضروا مؤتمراً بالمدينة، وترك ابن أبي سرح نائباً عنه في مصر هو عقبة بن عامر الجهني، وفي ظل هذه الظروف اندلعت الثورة في مصر، واغتصب حكم مصر محمد بن أبي حذيفة، وأعلن الثورة والعصيان على الخليفة عثمان رضي الله عنه، وطرد عقبة بن عامر الجهني نائب الوالي في مصر، ولم يستطع عبد الله بن سعد دخول مصر^(٢).

وخرجت جماعة من المنحرفين على عثمان رضي الله عنه من مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة، كما توالى الثوار بظاهر المدينة، وراودوا عثمان رضي الله عنه على أن يصلح من أمره أو يعتزل، وكانوا قد وجهوا إليه اللوم في عدة أمور منها الآتي:

١. كان الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه شديد الحب لقرابته، فاستغل ذلك البعض وتمكنت العصبية القبلية من السيطرة على المواقع السياسية والمناصب الكبيرة كالآتي:

- أصبحت الشام خالصة لمعاوية بن أبي سفيان.
- في مصر ولي عثمان رضي الله عنه أخاه في الرضاع عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

(١) الطبري: تاريخه، ج٤، ص ٣٥١.

(٢) القلقشندى: صبح، ج٤، ص ٣٨٦.

- فى الكوفة جعل أحد أفراد أسرته وهو الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان له ماض بغيض فنفر منه أهلها .
- فى البصرة ولى عليها ابن خاله عبد الله بن عامر ، وكان حسن السيرة فهدأت أحوال البصرة .
- فى المدينة كان الخليفة قد أسند أموره إلى وزير من أهله هو ابن عمه مروان بن الحكم .

ولنا تعليق على تولية عثمان رضي الله عنه أقربائه فإنه استند إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم استعان بقريش ، وليس صحيحاً أن عثمان رضي الله عنه أطلق يد أقاربه الذين ولاهم على ولاية الدولة بسبب كبر سنة وأن هؤلاء كانوا يقطعون فى الأمور دون الرجوع إليه مما أثار سخط الناس عليهم وعلى الخليفة لأن هؤلاء الولاة من ذوى قرباه كانوا جميعاً أكفاء وكانوا عند حسن ظنه ، حيث قام كل منهم بواجبه فى أداء الأمانة الملقاه على عاتقه ، والدليل على ذلك أن معاوية بن أبى سفيان وهو من أقربهم إلى عثمان وأقواهم جميعاً لم يضرب بأى أمر للخليفة عرض الحائط ولم يقطع أمراً دون الرجوع إليه فعلاً سبيل المثال عندما أراد معاوية أن ينشأ أول أسطول إسلامى طلب الإذن من الخليفة بذلك فأذن له شريطة أن يبدأ بنفسه وزوجته عند ركوبه البحر ، وأن يكون العمل به تطوعاً وليس إجباراً وقد التزم معاوية بذلك ، كما أن معاوية أراد تحصين المدن الساحلية وتشجيع المقاتلة على البقاء فيها بمنحهم إقطاعات فاستأذن الخليفة فى ذلك فأذن له ^(١) .

ولو صح أن معاوية مثلاً كان يقطع الأمر دون رجوع للخليفة وأن عثمان تعرض بسبب ذلك لسخط الناس لطالب أهل الشام بعزل واليهم .

٢ . اتباع عثمان رضي الله عنه فى حياته الخاصة منهجا مغايراً لسلفيه واستمر على حياة اللين ، والتمتع بالطيبات .

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢١١ .

٣. اتجه إلى التوسعة على أقاربه ، وأغدق عليهم الأموال ، فاتهمه البعض بأنه ينقلهم من بيت المال.
٤. أن عثمان رضي الله عنه حمى الحمى (اتخذالمراعى) فثار عليه المعارضون مدعين أنه اتخذها لنفسه وأقربائه ، فأوضح لهم أنه اتخذها لأبل المسلمين التابعة لبيت المال.
٥. أمر بتوحيد القراءات ، فحصل الناس على مصحف واحد وأحرق ما دون ذلك من مصاحف ، فعارضه البعض بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أجاز عدة قراءات للقرآن.
٦. نفيه لأبى ذر الغفارى إلى الربذة ، وإن لم يفعل عثمان رضي الله عنه ذلك ، فقد كان أبو ذر زاهدا ، وكان يجمع عمال عثمان ويقرأ عليهم :

﴿...﴾

واستند عثمان رضي الله عنه على قول ابن عمر: "أن ما أديت زكاته ليس بكنز" ، وكان أبو ذر يحملهم على الزهد والتقشف ، وكان لا يتحمل ذلك إلا بعض الناس ، فكتب عثمان إلى أبى ذر أن يأتي المدينة ، فلما قدم اجتمع إليه الناس، فطلب أبو ذر الأذن له بالخروج من المدينة، فقال لعثمان رضي الله عنه : " أريد الربذة " ، فقال: "أفعل" ، وزوده الخليفة ببضع وعشرين من الإبل فاعطاه مملوكين فذهب أبو ذر إلى الربذة ، فاعتزل ، وسكنها حتى توفي بعد عامين فى سنة ٣٢ هجرية، ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته .

حيث كان ينادى: "يامعشر الأغنياء واسو الفقراء" ومن الطبيعى أن تجد دعوة أبى ذر هذه تأييداً عظيماً من جانب الفقراء ، لأنها صدى وتعبير حقيقى عما يجيش فى صدورهم فتحمسوا لها وتابعوا عليها وأوجبوا على الأغنياء هذه المشاركة .

(١) سورة التوبة : من الآية ٣٤.

٧. امتناعه عن قتل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قتل الهرمزان وحفيده بسبب اتهامهما بقتل أبيه عمر رضي الله عنه، فطالب المسلمون بالقصاص منه ، فقال عثمان رضي الله عنه : "يقتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم" ، فدفعت دية المقتولين من ماله، فغضب بعض المسلمين ، ورأوا أن في ذلك تعطيلاً لحد من حدود الله. (١)

وهناك العديد من الأمور التي وجه فيها المعارضون اللوم على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي أخذ يرضى معارضيه بعزل عماله على الكوفة ومصر والبصرة أكثر من مرة (٢) ، وبدلاً من أن يظهر الخليفة قوة وحزماً أمام عرب الأمصار ضعف ولجأ إلى مفاوضتهم ووعدهم بإصلاح الأخطاء ، واعترف بأنه زل (٣) ، مما جعل أغلبهم يعود إلى الأمصار ، ولكنهم عادوا مرة أخرى كما ذكرنا.

ضرب المشاغبون الحصار على الخليفة وشددوا الحصار عليه وأساءوا معاملته، وبلغ علياً رضي الله عنه أن عثمان رضي الله عنه يراد قتله ، فقال للحسن والحسين "أذهباً بسيفكما حتى تقوموا على باب عثمان ، فلا تدعوا أحداً يصل إليه" ، وبعث عدد من الصحابة أبناءهم للدفاع عن الخليفة عثمان رضي الله عنه (٤) ، وطلب الثوار من الخليفة أن يعتزل ولكنه رفض وقال: "لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله" (٥).

وكان محمد بن أبي حذيفة قد أرسل حوالي ستمائة رجل مسلح إلى المدينة كان من بينهم محمد بن أبي بكر الصديق ، ولما علم الثوار بأن الخليفة كتب إلى معاوية وعماله في الأمصار يستتجدهم شددوا الحصار عليه وبعد أن دام الحصار أكثر من عشرين يوماً، اقتحموا بيت الخليفة وقتلوه ، وذلك في اليوم الثامن عشرة من شهر ذي الحجة سنة ٣٥ هـ، وأثناء قتله كان جالساً في محرابه يقرأ القرآن ،

(١) أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم ، ص ١١٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج ٣ ص ٤٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ، ج ٣ ص ٨٢.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل ، ج ٣ ، ص ٨٥.

فسال دمه على المصحف في حجره^(١) ، فقامت زوجته نائلة لتتلقى عنه الضرب بيدها ، فأصاب السيف يدها فقطع إصبعين من أصابعها ، وأرسلت إلى معاوية بقميصه المخضب بالدم وأصابعها لتحريضه على الأخذ بثأر الخليفة المقتول ، فكان معاوية يعلقهما على منبر الشام ليرق الناس بذلك ودفن الخليفة عثمان رحمه الله قريبا من البقيع ، وكان ذلك سنة ٣٥هـ/٦٥٥م.^(٢) وقد وصفت السيدة عائشة رضی الله عنها قتلته بأنهم من الغوغاء الذين اقتحموا عليه الحرمات الثلاث: حرمة البلد الحرام، حرمة الشهر الحرام، حرمة الخلافة^(٣)

وهكذا كان للمعارضين في مصر دور بارز ومؤثر في الفتنة التي وجدت في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه ، حيث تمكن عبد الله بن سبأ من نشر أفكاره بين بعض الأهالي من مصر ولاقته دعوته قبولا ، حتى خرجوا واشتركوا مع الوفود المعارضة من الأمصار الإسلامية ، وانتهى الأمر بمقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ، ويذكر أن الذي قتله رجل من مصر يقال له حمار^(٤).

لا شك أن هذه القتلة البشعة للخليفة عثمان رضي الله عنه وهو شيخ وقور صدمة عنيفة تواجه كل باحث في التاريخ الإسلامي فعلى الرغم من أن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل قبله إلا أن مقتل عمر لم يكن صدمة في تاريخ العقيدة الإسلامية لأن قتله غلام دخيل ومن ورائه عصابة تدين بغير دينه وتكره منه ما عمله لهذا الدين، أما تلك القتلة البشعة التي انتهت بها حياة الخليفة الثالث فشئ غير هذا، إذ لم يمض الجيل الأول ويقتل خليفة المسلمين هذه القتلة فماذا إذا صنعت هذه العقيد بنفوس المحكومين وماذا تغير من فتكات الجاهلية بعد جهاد المؤمنين وإيمان الكافرين؟.

(١) ابن طباطبا: الفخرى ، ص ٩٨.

٢ () ابن طباطبا: الفخرى ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، سيدة كاشف: عصر الولاية ، ص ٧٥.

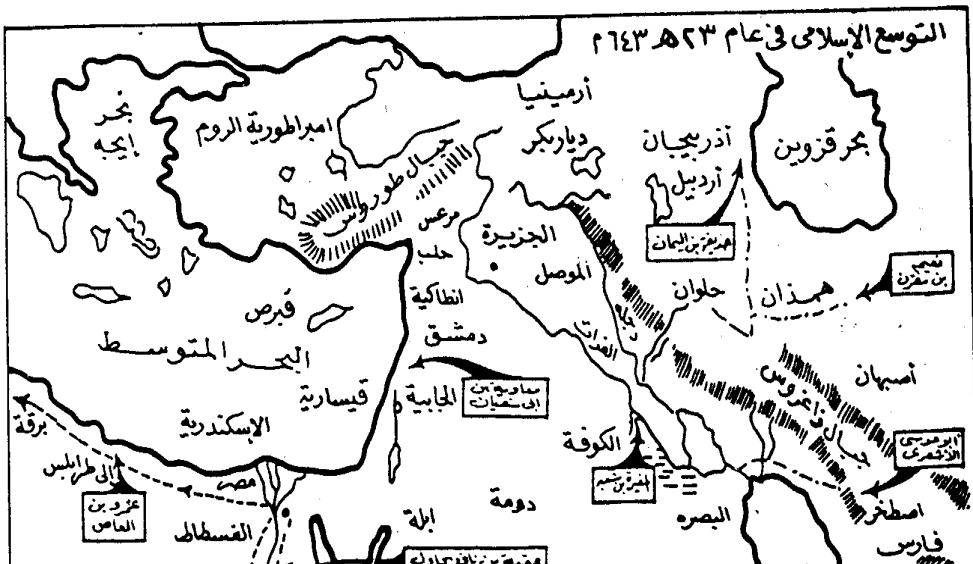
(٣) الطبري: تاريخه، ج ٤، ص ٣٦٥.

٤ () السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٤.

من المهم ألا ننظر إلى هذا الحادث على أنه ثورة شبيهة بتلك الثورات التي أطاحت بكثير من رؤساء الدول، لأن مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه لا يعدو أن يكون حادثة محلية تمت على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء الذين وقعوا تحت تأثير المغرضين، ومن البديهي أنه ما كان ليقتل لو كانت داره محروسة بحراسة مثل التي كان يقيم فيها ولاة الأمور.

وعلى الرغم من ذلك كان ما يقرب من سبعمائة من المهاجرين والأنصار فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ومروان وأبو هريره وخلق من مواليه ولو تركهم لمنعوه لكنه قال: "أقسم على من لي عليه حق أن يكف يده وينطلق إلى منزله ولا شك أن الخليفة عثمان رضي الله عنه اختار أهون الشرين فأثر التضحية بنفسه على توسيع دائرة الفتنة وسفك دماء المسلمين، وبذلك افتدى الخليفة عثمان رضي الله عنه دماء أمته بدمه الزكي^(١)، فنسأل الله تعالى أن يعلى مقامه في دار الخلود.

خريطة توضح التوسع الإسلامي في عام ٥٢٣هـ/٦٤٣م



خلافة سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام (٣٥-٤٠ هـ / ٦٥٦-٦٦١ م).

نسبه:

علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. كنيته أبو الحسن، وأبو تراب كناه بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. (١)

مولده:

ولد علي بن أبي طالب عليه السلام قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، وقيل إحدى وعشرين سنة. ونشأ في بيت النبوة وتربى تحت رعاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال، فاقترح النبي صلى الله عليه وآله وسلم على عمه العباس الذي كان من أثرياء بني هاشم أن يشتركا في تخفيف العبء عن أبي طالب بأن يتكفل كل منهما بتربية واحد من بنيه، فكان علي من نصيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجعفر بن أبي طالب من نصيب عمه العباس.

إسلامه:

كان علي أول من أسلم من الصبيان. ولم يعبد الأوثان قط منذ صغره.

جهاده في الإسلام:

على أحد العلماء الريانيين، والمشهورين، والزهاد المذكورين، وأحد من جمع القرآن وعرضه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. (٢)

بات في فراش الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الليلة التي هاجر فيها حتى يؤدي عنه أمانة الودائع والوصايا التي كانت لأهل مكة وشهد على مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم جميع الغزوات فيما عدا غزوة تبوك التي استخلفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة.

وروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خمسمائة وستة وثمانين حديثا. وعلى أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى.

بيعة علي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة:

(١) ابن كثير: الكامل، ج٧، ص٢٤٩.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٨٥.

بويع على بن أبي طالب بالخلافة في اليوم التالي لاستشهاد عثمان بن عفان. حيث وفد إليه أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا عليا فقالوا له: إنه لا بد للناس من إمام فرد قائلاً: لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به فقالوا: ما نختار غيرك وترددوا إليه مراراً وكان إصرارهم على اختيار علي يستند إلى سابقته في الإسلام وحسن بلائه وقرابته للرسول ﷺ.

ولما وجد على إجماع الصحابة على بيعته طلب أن تكون في المسجد فبايعه الناس وأولهم طلحة بن عبيد الله والزبير وقيل إنهما بايعا كارهين ثم بايعت الأنصار. (١)

ولقد وافق على على تحمل هذه المسئولية خشية من تفرق كلمة الأمة برغم عظم المهمة التي عبر عنها على بقوله: "دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول فقالوا: ننشدك الله ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى لإسلام ألا ترى الفتنة ألا تخاف الله؟ فقال: قد أحببتكم واعلموا أني إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم ألا أني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه.

خطبة البيعة:

كانت أول خطبة خطبها على بن أبي طالب ﷺ حين استخلف: "حمد الله واتنى عليه ثم قال: إن الله أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل دم امرئ

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج ٢، ص ٦٩٧.

مسلم إلا بما يجب بأدوار أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإن ما خلفكم الساعة تحذوكم فخفوا تلحقوا فإنما ينتظر بالناس أخراهم".^(١)

لما تمت البيعة لعلى بن أبي طالب عليه السلام واجه مشكلتين أولهما قضية مقتل عثمان، والأخرى عزل الولاة السابقين.

قضية مقتل عثمان بن عفان:

طلب بعض الصحابة من الخليفة على القصاص من الذين اشتركوا في قتل الخليفة عثمان فطلب منهم إعطائه بعض الوقت: "إنى لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟".

وكان الخليفة على يقدر حقيقة الظرف الذي تمر به الدولة الإسلامية من تفرق الأمة وكل فرقة ترى رأياً غير الأخرى وكان يتمنى أن يحقق في قضية مقتل الخليفة عثمان بعد أن تستقر الأمور وتتخذ الحقوق.^(٢)

كما أنه صرح بأنه لا يعرف القتلة "والله لوددت أن بنى أمية رضوا لنفلنا هم خمسين رجلا من بنى هاشم يحلفون: ما قتلنا عثمان، ولا نعلم له قاتلا".

ولم يكن على يجهل أن القصاص مسئولية الحاكم ولكن ممن يقتص والأيدى التي نفذت الجريمة لا يعرف لها صاحب والثوار بالآلاف يملئون المدينة وخلفهم آلاف أخرى فى الأمصار يقولون: " نحن مع على عليه السلام إذا لم يقتص من إخواننا، وعندما طالبه بعض الصحابة بإقامة الحد قال لهم: " كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ويرون ولا نراهم ويسمعوننا ولا نسمعهم، وقد صارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعاً للقدرة على شئ؟ قالوا لا، فقال لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ١٠٠.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز فى الحياة السياسية فى القرنين الأول والثانى للهجرة، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت، ص ٣٤٩.

فالمطلب مشروع، ولكن الطريق إلى تنفيذه لا يعرفه أحد، وقد عرف خصوم عليؑ كيف ينفذون إليه من هذه الثغرة ولول صدق أصحاب المطالبة بدم عثمانؑ لتعاونوا مع عليؑ وبينوا له سبيل القصاص أو حددوا له أسماء القتلة. (١)

وما كان علي من المشاركين ولا المحرضين، وقال عنه ابن سيرين ما علمت أن علياً اتهم بدم عثمان حتى بويع فلما بويع اتهمه الناس، وظهور الاتهام بعد البيعة يشير إلى أنه حجة مختلقة تختفي خلفها المآرب والأطماع. كان معاوية قد تربى على حب الزعامة منذ طفولته حتى أبدى أحد العرب إعجابه به وقال حراً بهذا أن يسود قومه ولكن أمه كانت تعده لأكثر من ذلك فقالت: تكلته أمه إن لم يسُد إلا قومه، وشق معاوية طريقه في الإسلام نحو الصفوف الأولى فكان من كتاب الوحي ومن قادة الفتوحات وصارت له إمارة دمشق ثم الشام كلها. (٢)

بين علي ومعاوية:

بعث الخليفة علي إلى معاوية كتاباً مع سبره الجهنى يأمره بأخذ بيعة أهل الشام، فلم يجبه معاوية بشيء. ولما مضى الشهر الثالث من مقتل عثمان دعا معاوية قبيصة العبسي بكتاب معاوية مختوماً عنوانه من معاوية إلى علي وأخبر قبيصة العبسي أهل المدينة بمعارضة معاوية. (٣)

ولما دخل قبيصة العبسي على علي ففض الكتاب فلم يجد فيه كتاباً فقال للرسول: ما ورائك؟ قال: أمن أنا قال نعم قال: تركت ورائي قوما لا يرضون إلا بالقود قال: ممن؟ قال: من خيط رقبتك وتركت ستين ألف شيخ تبكي تحت قميص

(١) إكرام ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة في عصر الخلافة الراشدة، ط١، المدينة المنورة، ١٩٩٤م، ص ٤٠٣.

(٢) الطبري: تاريخ، ج٢، ص ٧٠٢.

(٣) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج١، ص ١٤٧-١٤٨.

عثمان وهو منصوب على منبر دمشق قال أمني يطلبون دم عثمان ألسن موتوروا كتره عثمان؟ اللهم أنى أبرأ إليك من دم عثمان.

وفى الواقع أن معاوية لم يكن ينكر فضل على واستخلافه. لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة أولاً، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان، وتبنى معاوية نداء القصاص من قتلة عثمان وجعله شرطاً لازماً يسبق تقديم البيعة لعلى، وقد أصر معاوية على هذا الشرط برغم أنه يعلم أن الظروف الراهنة التي تمر بها المدينة يومذاك لن تمكن الخليفة على من تنفيذ هذا الشرط.

عزم على بن أبى طالب ﷺ على السير إلى معاوية ليدخل فى البيعة ومعه أهل الشام فيما دخل فيه المسلمون من البيعة حتى ولو أدى الأمر إلى القتال وكان هذا هو ما استقر عليه رأى على ووافقته معظم رجاله، فشرع فى تجهيز جيشاً واستخلف على المدينة قثم بن العباس، وكتب إلى عماله فى الأمصار ينوب الناس للمشاركة فى الحملة على الشام، لجمع كلمة الأمة وبينما كان على يستعد للمسير إلى الشام أتاه خبر خروج السيدة عائشة وطلحة والزبير بأهل مكة إلى البصرة. (١)

خروج السيدة عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة:

خرجت السيدة عائشة إلى مكة أثناء حصار عثمان، وكانت تنكر على الخليفة عثمان سيرة ولاته على الرعية فى مختلف الأمصار. وعلمت بخبر استشهاد الخلفة عثمان وهى بسرف فى طريق عودتها إلى المدينة فحزنت وقالت لقد قتل عثمان مظلوماً والله لأطلبين بدمه. فعادت إلى مكة واجتمع حولها الناس، وبنو أمية، وقدم عليهم عبد الله ابن عامر من البصرة بمال كثير، ويعلى بن أمية من اليمن ومعه ستمائة بغير وستمائة ألف درهم انضم إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير اللذين قدما من المدينة واستأذنا علياً بحجة أنهما يريدان العمرة.

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٠٤، الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٤.

سارت السيدة عائشة وطلحة والزبير بهذا الحشد الذي قدر بثلاثة آلاف إلى البصرة.

وكان الحزن يخيم على قلوب قادة المعارضة، برغم مطالبتهم بإنفاذ الحكم الشرعى يقوى موقفهم إلا أن غموض المستقبل وما قد ينطوى عليه من ضياع الوحدة بين المسلمين وسفك دمائهم يبعث فيهم إحساسا أليما وأحيانا ترددا واضحا لكنهم مضوا إلى أقدارهم بنفوس مثقلة بالهموم.

ولم يكن من رأى أم سلمة زوج الرسول (ﷺ) أن تمضى عائشة في هذا السبيل فأرسلت إليها كتابا طويلا تحثها إلى العدول عن الخروج. واثناء مسيرة السيدة عائشة في الطريق إلى البصرة وصلوا إلى موضع الحوآب حيث نبحتهم كلابه. فقالت السيدة عائشة: أى ماء هذا فليل هذا ماء الحوآب. فعزمت على العودة وقالت: أنى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول لنسائه ليت شعرى أيتكن ينبجها كلاب الحوآب. وأخبرها عبد الله بن الزبير أن هذا الموضع ليس ماء الحوآب وأقنعها بذلك.

لما اقترب ركب السيدة عائشة من البصرة بعث إليهم رجلا يدعى عمران بن حصين يسألها عن سبب قدومها إلى البصرة فأخبرته بالقصاص لقتلة عثمان وتمكن جيش السيدة عائشة من التغلب على البصرة وواليتها عثمان بن حنيف، وساندتهم قبائل البصرة. وقد ألقى القبض على الوالى ثم أطلق سراحه ليلتحق بعلى واتجهوا إلى بيت المال ودار الرزق فأعترضهم حكيم ابن جبلة العبدى -أحد الثوار المشاركين في حصار الدار بالمدينة، ومعه سبعمائة من قومه- وجرت بينهم معركة قتل فيها جبلة وسبعون من قومه. (١)

موقعة الجمل (جمادى الآخرة ٣٦هـ/٦٥٦م):

لما بلغ عليا مسير السيدة عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة سار على راس جيش مكون من أربعة آلاف من أهل المدينة. واستخلف تمام بن العباس على

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٠٥، الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٦.

المدينة. وقثم بن العباس على مكة. وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين ولما قدم الخليفة على إلى الربذة سأله ابن لرفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين أى شئ تريد. وأين تذهب بنا؟ فقال: ما الذي نريد وينيوى فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه. فقال: فإن لم يجيبونا إليه قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصر. قال: فإن لم يرضوا. قال: ندعهم ما تركونا. قال: فإن لم يتركونا قال: منعنا منهم.

ولما وصل على بن أبى طالب ﷺ إلى البصرة بعث القعقاع بن عمرو وسيطا بين الطرفين واتقيا على الصلح وخطب على في الناس. وقال إلا وأنى راحل غدا فارتحلوا فحين رأى ابن سبأ وأعوانه اتقاق الناس قال لأصحابه أن تصالح على وعائشة على دماننا وأن عزكم في خلطة الناس فخالطوهم وإذا التقى الناس غدا فابدأوا القتال، ولا تتركوا الناس مجالا للتفاهم. (١)

وبدأ اتباع ابن سبأ القتال كل من في جهته فظن كل من الفريقين أن صاحبه قد نقض عهده ونشب القتال.

وهزم اتباع السيدة عائشة وطلحة والزبير، وكانت السيدة عائشة راكبة على جملها وقطعت على خطام الجمل أيد كثيرة. ولما كثر القتل على خطام الجمل. أمر على بن أبى طالب ﷺ بعقر الجمل فضربه رجل وسقط على الأرض، وبقت السيدة عائشة في هودجها إلى الليل.

وقتل من الفريقين خلق كثير، ورمى مروان بن الحكم طلحة بسهم قتله وكلاهما كانا مع السيدة عائشة أخذا بثأر عثمان منه حيث اتهم بمعاونة من قتل عثمان. (٢)

وانسحب الزبير من ميدان القتال وتبعه عمرو بن جرموز فقتله بوادى

السباع.

(١) أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، ج ١، ص ٢١٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ١٢١، الطبرى: تاريخ الأمم، ج ٣، ص ٣٣.

وأمر على مناديا يحث أتباعه ألا يتتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح، كما أمر بحمل هودج السيدة عائشة وأن يضرب أخاها محمد بن أبي بكر عليه قبة ولما جن الليل انزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي.

وقسم على الغنائم على جنده فأصاب كل رجل منهم خمسمائة درهم، ولم يخمس أموال مقاتلي السيدة عائشة يقول الطبري: "فقال قوم يومئذ: ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟ فقال على: القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا، ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر، وإن لكم في خمسة لغنى".

ويشير الدكتور أكرم ضياء العمرى إلى أن الطرفين أدركا خسارتها، وحلت مراجعة النفس محل الغضب، وفتت الندم قلوبهم. وذابت نفوسهم حسرة على ما حدث حيث التقى المسلمان بسيفيهما في فتنة داخلية اتضحت معالمها، ولم يتمكنوا من تجنبها، فمضوا لا يغالبون أقدارهم حتى انجلت عن صرع من خيرة المسلمين من الطرفين، دون إنجاز لصالح دنياهم أو دينهم.

ولقد أسفا على ما حدث كل من على بن أبي طالب عليه السلام والسيدة عائشة، فقد قال على عندما اشتد القتال إلى ابنه الحسن: "يا حسن لو ددت أنى مت قبل هذا بعشرين حجة - أو سنة". (١)

وعبرت السيدة عائشة عن حسرتها: "وددت إن كنت غضبا رطبا ولم أسر مسيرى هذا"

وتقدم محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر إلى هودج السيدة عائشة فحملاه وأمر على بتجهيزها لتعود إلى المدينة معززة مكرمة وخرج يودعها بنفسه فقالت: والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون ما بين المرأة وأحمائها، وأنه

(١) أمين القضاة وآخرون: محاضرات فى التاريخ الإسلامى، ط٢، دار عمار، الأردن، ١٩٩٢م،

على معتبتي من الأخيار، وقال على: أيها الناس صدقت والله وبرت ما كان بيني وبينها إلا ذلك وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.
وكانت هذه الواقعة هي المرة الأولى التي يشهر فيها المسلم سيفه في وجه أخيه، وتتحول السيوف التي طالما تعانقت في سبيل الله إلى صدور المسلمين ونحورهم.

وإننا لا نندهش أن يقابل على بن أبي طالب ﷺ موقف السيدة عائشة بالعفو والإحسان، وبزورها في البيت الذي نزلت فيه، ويوفد أولاده ليشيعوها، ويودعها بنفسه ولقد حمدت السيدة عائشة هذا الموقف لعلى بن أبي طالب ﷺ.
وفي حقيقة الأمر لم يكن هناك مبرر لخروج طلحة والزبير والسيدة عائشة، مادام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم الحدود. ولا سيما بعد أن وعدهم على بالنظر في أمر قتلة عثمان، والبحث عنهم والقصاص منهم عندما تستقر الأمور وتهدأ الفتنة.

واستعمل على بن البصرة عبد الله بن عباس، وسار إلى الكوفة فنزلها، وانتظم له الأمر بالعراق ومصر واليمن والحجاز وفارس وخراسان، ولم يبق خارجاً عنه سوى الشام التي تحت إمرة معاوية بن أبي سفيان.
وترجع الخصومة بين على ﷺ ومعاوية لأسباب منها:

- أن معاوية كان يتهم علياً ﷺ بشيء من دم عثمان ﷺ ، ويرى نفسه ولي دم عثمان.
- أن علياً أوى قتلة عثمان ﷺ في جيشه بدلاً من أن يقيم عليهم الحد.
- أن علياً تسرع في عزله عن الشام ، وهذا أمر شديد على معاوية الذي اعتاد الحكم والرياسة زمناً طويلاً^(١) ، هذا بجانب أن علياً بدأ بأمرين ترجع إليهما الحروب التي وقعت في عهده وهما:

١ () أبو زيد شلبي: الخلفاء الراشدون ، ص ١٩٧.

١. أنه لم ينتظر حتى يبايعه أهل الأمصار ظناً منه أن مبايعة أهل المدينة والثوار كافية في جعل أهل الأمصار يعترفون بخلافته.
٢. قام باسترداد الإقطاعات التي كان عثمان رضي الله عنه قد منحها لبعض أقاربه ، إلى بيت المال ، مما زاد حنق أولئك الذين كانوا قد استقادوا في عهد عثمان رضي الله عنه عليه.

وعلى الرغم من انتهاء هذه المعركة بانتصار على رضي الله عنه على معارضيه إلا أن المشاكل لم تنته بذلك حيث امتدت المعارضة وبلغت ذروتها حينما رفض معاوية أمير الشام بقوة وبإصرار الرضوخ لأمر الخليفة بعزله عن ولاية الشام ، بجانب إصراره على المطالبة بمحاكمة قتلة عثمان رضي الله عنه (١).

ولذا كان لا مفر من اشتباك الفريقين ليحقق كل منهما مطالبه ، وكانت المواجهة أشد بأساً لأن الخصم كان أكثر دهاء وقوة وهو معاوية بن أبي سفيان الذي تمرس بالسياسة ودروبها وبلاد الشام تحت يديه بجندها المطيع وثرائها الوفير بجانب بعدها عن مركز الخلافة، وقد عرف كيف يجتذب القلوب بالعطاء ويكتسب الحروب بالدهاء فاكتسب إلى جانبه عمرو بن العاص مقابل وعد بتوليته مصر ، وآوى إليه أبناء بيته الذين عزلهم على أو طليتهم سيوف الثوار ، كما رحب بعبيد الله بن عمر الذي خاف أن يطبق عليه على رضي الله عنه الحد في مقتل الهرمزان ، وبعقيل بن أبي طالب أخى على الذي رفض الخليفة أن ينقله من مال المسلمين فأغدق معاوية عليه وأرضاه.

ويجب ألا ننساق للرأى القائل إن معاوية كان أدهى من على رضي الله عنه في كسب الأنصار ، فمعاوية نفسه يقول: "كنت أحب قريش منه لأنى كنت أعطيهم وكان يمنعهم، وكان على رضي الله عنه يقول لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة ولا تفرقهم عنى وحشة لأنى محق والله مع المحق وما أكره الموت على الحق".

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ٣ ص ٢٠٣ ، عبد العزيز الدورى: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٦٠.

بدأ على بطرق أبواب السلم، فاختار ثلاثة من رجاله ليسافروا إلى معاوية ويدعوه إلى الطاعة هم بشير بن عمرو بن محسن، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبس بن ربيعي التميمي، فلم يجدوا منه إلا الرفض فلم يكن من الصدام بد، واستمر الفريقان على المناوشة طوال شهر ذي الحجة سنة ٣٦هـ فلما أقبل المحرم تهادن وتجددت السفارات، ولكن الطريق كان يبدو مسدوداً تماماً واتخذ الحوار سور التهديد فقال سفير على ﷺ: انتهى يا معاوية لا يصيبك الله وأصحابك بيوم الجمل فرد معاوية: كأنك جئت مهدداً ولم تأتي مصلحاً، إنى ابن حرب ما يقع على بالشنام وإنك لمن المجالين على ابن عفان وإنى لأرجو أن تقول ممن يقتل الله عز وجل.

ومع بداية صفر سنة ٣٧هـ/٦٥٧م كانت لغة اللسان قد توقفت وبدأ لغة السنان وفي الثامن منه اشتبك الفريقان في جولة حاسمة عرفت بموقعة صفين سنة ٣٧هـ/٦٥٧م^(١)، واستمرت ثلاثة أيام كان أولها لأهل الشام ولكن الميزان ما لبث أن تحول إلى جانب على ﷺ وبدأت بوادر النصر في اليوم الثالث حتى فكر معاوية في الفرار، وكاد النصر أن يتم لعلي ﷺ لولا مطالبة أتباع معاوية بتحكيم كتاب الله ، حيث رفعوا المصاحف على أسنة الرماح ، وقالوا: هذا كتاب الله بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ من لثغور العراق بعد أهل العراق، وكان الذي أشار بذلك عمرو بن العاص الذي تمكن معاوية أن يستميله إليه ، وكان عمرو قد اشترط على معاوية أن تكون له ولاية مصر نظير مساعدته له ضد على ﷺ ، فقبل معاوية^(٢).

وكان عمرو على علم بطبيعة تكوين جيش علي ونفسيته وحاله ، حيث كان يتكون من الحفاظ وبقية السلف الصالح من المؤمنين ، فكان معه من أهل بدر

(١) اليعقوبي: تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ، المسعودي: التنبيه والإشراف ، ص ٢٥٦ ، السيوطي:

تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٥ .

٢ () اليعقوبي: تاريخه ، ج ٢ ص ١٨٨ .

سبعون رجلاً ، وممن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل ، ومن سائر المهاجرين والأنصار أربعمائة رجل ، وكل هؤلاء كانوا يتقبلون مبدأ التحكيم:

التحكيم ونتائجه:

جدد على بن أبي طالب عليه السلام محاولاته لإقناع معاوية للدخول في طاعته مستغلاً النصر الذي حققه على معارضيه في معركة الجمل التي قتل فيها كل من طلحة والزبير ، ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل لتمسك كل طرف منهما بموقفه، وقد أدى هذا إلى تصادم أهل العراق بزعامة على مع أهل الشام بزعامة معاوية في موقعة صفين إلا أن الأمر انتهى بالاتفاق فيما بينهما على التحكيم.

لم يكن معاوية أول من طلب التحكيم، فقد سبقه إلى ذلك على في حرب الجمل ولكن هدف على كان واضحاً لأنه طلب التحكيم قبل إنشأ القتال، أما معاوية فقد طلبه عندما رأى دفة القتال تجرى في غير صالحة. (١)

ولم يكن على عليه السلام غافلاً عن هذه الحيلة فقال لأصحابه امضوا على حاكم وصدقكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وأنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وكانوا شر رجال... ما رفعوها إلا خديعة ودهاء ومكيدة، فقالوا ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله.

ولكن على عليه السلام كان مدفوعاً إلى النتيجة التي صار إليها ولم يكن له خيار في تجنب هذا المصير.

كان مدفوعاً إليه بطبيعة تكوين جيشه الذي يضم عدداً كبيراً من الصحابة والقراء الذين لا يسعهم أن يرفضوا كتاب الله إذا دعوا إليه، وقال احدهم وهو مسعر بن فدك التميمي أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه و إلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفان وكان جيشه يضم أشتاتاً متفرقين جاءوا من بلدان متعددة، ولكل طائفة زعيم ولكل زعيم رأى ولم يتح له من الوقت ما يمكنه أن

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ٢١٩.

يسوسهم على طاعته، وفي ذلك يقول معاوية: "كان في أخبث جند وأشدّه خلافاً على وكنت في أطوع جند وأقله خلافاً على".

كانت الحالة النفسية لجند عليؑ قد وصلت إلى درجة سيئة بسبب طول القتال والثورة على النفس لأن فيهم هذه المرة فريق من أهل البصرة الذين وقفوا ضده بالأمس، فلم تتعقد قلوبهم على طاعة خالصة له، ومنهم أهل الكوفة الذين تحنطهم الحرب واضطروا إلى رفع السيوف في وجه إخوانهم يوم الجمل وما هم يشربون ويلاتها في صفين، وقال أحد زعمائهم: "إن هذه الحرب قد أكلتنا وأذهبت الرجال والرأي والموادعة." (١)

وكان في جيشه من يُشكُّ في خيانتة وتواطئه وهو الأشعث بن قيس كان من المرتدين بعد وفاة الرسولﷺ وولاه عليؑ على أذربيجان ثم عزله لأنه احتجز نفسه من فيئها، فكان يبدي إصراراً غريباً على قبول التحكيم.

ووجد عليؑ نفسه مهدداً بانقسام في جنده، فاستجاب مكرهاً لدعوة التحكيم وأرسل إلى قائدة الأشر الذي كان يتقدم باليمينه نحو النصر يأمره بوقف القتال. وكما أكره عليؑ أكره أيضاً على اختيار الحكم الذي يمثله، وأصر الأشعث بن قيس وقومه اليمانية على اختيار أبي موسى الأشعري، ولم يكن على راضياً عن اختياره، لأنه كان يُخذّل أهل الكوفة عن نصرته في حرب الجمل ويدعوهم ألا يرفعوا السيوف في وجه مسلمين مثلهم، فقال لهم عليؑ: "قد عصيتموني أول الأمر في تعصوني الآن، فأصروا على اختيارهم، فقال لهم أبيتهم إلا أبا موسى قالوا: نعم، قال: فاصنعوا ما بدا لكم." (٢)

ولا نكون منصفين إذا حملنا علياًؑ مسؤولية هذا التمرد فإن الخلافة لم يكن لها جندها الخاص ولا جيش يدافع عنها بل كان المجاهدون في الأنصار والثغور منذ عهد عثمانؓ ولم يكن أمام عليؑ سوى أن يستنفر من استطاع، وليس له

(١) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ١٥١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٢١٩.

بدم عثمان رضي الله عنه لأنه ولى دمه. يقول الغزالي: وقد ظن معاوية أن تأخير أمر قتلة عثمان مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك^(١).

والرواية المشهورة أن عمراً خدع أبا موسى الأشعري فجعله يعلن خلع على رضي الله عنه ثم أعلن هو تثبيت معاوية فأثار بذلك حفيظة أبا موسى فتبادلا الشتائم وانفش الاجتماع وبناء على هذه الرواية يقول عمرو قد لجأ إلى مغالطة ماكرة، وهى انه جعل كلاً من الحكمين يصدر قراره منفرداً وكان من المنتظر أن يكون قراريهما واحداً، و إلا ففيما اجتماعيهما إذاً؟ وأنه ثبت معاوية فعلى أى شئ تثبته؟ إن معاوية لم يكن خليفة، ولم يزعم لنفسه هذا الحق بعد، ولا تتم الخلافة بقرار من الحكم ولكن ببيعة من الأمر وممثليها، ولكن عمراً أراد لذلك ان يثير شريكه في التحكيم وتنتهى الأمر إلى لا شئ. ويروى المسعودى الموضوع بسورة أخرى ويقول: "وجدت في وجه آخر من الروايات أنهما اتفقا على خلع على رضي الله عنه ومعاوية وأن يجعلوا الأمر بعد ذلك شورى يختار الناس رجلاً يصلح لها، وإذا صحت هذه الرواية يكون عمرو قد نجح في اتخاذ قرار على أساس المغالطة نفسها لأن معاوية لم يكن خليفة وبذلك تعود الخسارة كلها على رضي الله عنه ويكون قد عزل وحدة^(٢).

موقف عمرو بن العاص في عملية التحكيم:

فى اعتقادنا أنه لم يحدث أى خداع من جانب عمرو بن العاص لأبى موسى الأشعري وأنهما لم يتبادلا الشتائم على النحو الوارد في إحدى روايات التحكيم، فالحكمان اجتمعا ولم يتفقا على شئ وافترقا دون أن يوجه أحدهما أى شتائم للآخر حيث أن معاوية الذي كان نائبه في التحكيم عمرو لم يكن خليفة وقت ذاك وتثبيت عمرو بن العاص وحده له لايجعله خليفة إذ يلزمه موافقة الحكمين ولا يعقل أن يلجأ عمرو إلا خداع لا يفيد صاحبة معاوية في شئ علماً بأن معاوية لم يدع الخلافة وقت ذاك، فالثابت ان خلافته لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن

١ () الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص١٠٢.

٢ () المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص٥٩٥.

على، وقد تمت مبايعة الحسن لمعاوية سنة ٤١ هـ وهو عام الجماعة الأول، ومن ذلك اليوم فقط سمي معاوية أمير المؤمنين.

إن هذه الرواية توهم بان هناك خليفتين أو أميرين للمؤمنين وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعهما معاً وأن أبا موسى خلع الخليفتين تنفيذاً للاتفاق أما عمرو فقد خلع أحدهما وأبقى الآخر خليفة خلافاً للاتفاق وهذا كله كذب وافق وافطراء.

موقف عمرو في عملية رفع المصاحف على أسنة الرماح في صفين:

تصف رواية أوردها الطبرى فكرة رفع المصاحف على أسنة الرماح في صفين بأنها خديعة شيطانية لجأ إليها عمرو بن العاص لإحداث الواقعة بين أفراد جيش على ﷺ وإنقاذ جيش معاوية من الهزيمة^(١).

وذكر مؤرخ ثقة هو خليفة بن خياط أحد شيوخ البخارى يروى قصة رفع المصاحف في صفين دون أن يشير لا تلميحاً ولا تصريحاً إلا أنها كانت من قبيل الخداع^(٢).

والحق أنه لما اشتد القتال بالطرفين لم يكن الفرار ممكناً من جانب أى منهما لأن كل طرف كان مؤمن بصحة موقفه، كما أن استمرار القتال كان يعنى المزيد من الفناء والهلاك، لذلك اقترحت فكرة رفع المصاحف على أسنة الرماح والدعوة إلى تحكيم كتاب الله تعالى.

ولم تكن هذه أول مرة تطرح فيه الدعوة إلى تحكيم كتاب الله بين المتحاربين المسلمين، فقد أورد ابن عساكر في ترجمته لطلحة بن عبيد الله أن السيدة عائشة قالت لكعب بن سور الأزدى وهو أول قاضٍ عينه عمر بن الخطاب ﷺ على البصرة، "خل ياكعب عن البعير، وتقدم بكتاب الله فادعهم إليه" ودفعت إليه مصحفاً وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجرى الصلح بين الطرفين فاستقبلهم كعب

١ () الطبرى: تاريخه، ج٥، ص٤٨.

٢ () خليفة بن خياط: تاريخه، ص١٤٩.

بالمصحف، وعلى من خلفهم يزعهم ويأبون إلا إقداماً فلما دعاهم كعب رشقوه رشقاً واحداً فقتلوه.

ومن الواضح أن رفع المصاحف على أسنة الرماح في صفين لم تكن غير وسيلة للتعبير عما كان يشعر به الكثيرون في قراره أنفسهم من ميل للصلح، أي أن عمرو بن العاص لم يفعل غير التعبير عن فكرة كان يشاركه فيها الكثير.

ويشير الدينوري إلى هذه الحقيقة بقوله: لم يكن على ﷺ وحده يحاول تحاشي حرب مهلكة يتطاحن فيها المؤمنون وأعضاء القبيلة الواحدة بل الأقارب والآباء والأبناء، وربما كان هذا هو السبب في مضي وقت طويل قبل أن يبدأ القتال الحقيقي وأنهم لجأوا بعد أن أعيتهم الحيل إلى عقد هدنة استمرت طوال شهر المحرم^(١).

روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن رواية ثقات أنه لم استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتل، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى على ﷺ بمصحف فادعه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك. فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله فقال على ﷺ: " نعم أن أولى بذلك بيننا وبينكم كتاب الله، وهذا يتفق مع طبيعة على ﷺ إذ من المستبعد أن يرفض على ﷺ التحكيم والصلح ويكره حقن الدماء وهو الذي كان يرسل العديد من الوفود إلى خصومه قبل الاشتباك معهم وقد فعل ذلك قبل معركة صفين وفي أثنائها.

وفي نهاية الأمر كان القتال بين على ﷺ ومعاوية ﷺ لأن علياً كان يأخذ على معاوية أن شق عصا الطاعة ولم يبايعه مثل سائر الولاة في الدولة الإسلامية بينما كان معاوية يتهم الخليفة بالتواطؤ مع الثوار على قتل ابن عمه عثمان ﷺ، ولأنه لم يقتص منهم وأوى الكثير منهم في جيشه.

١ () الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٨٤.

الموقف بعد التحكيم ونهاية حياة الإمام عليؑ:

وقد اتفق الطرفان على اختيار حكم لكل فريق كما اشترطا على القائدين المتنازعين أن يقبلا نتيجة التحكيم ، ووقع اختيار أهل الشام أتباع معاوية على عمرو بن العاص ، ووقع اختيار أهل العراق على أبو موسى الأشعري ، واجتمع الحكمان بين العراق والشام في دومة الجندل سنة ٣٨هـ/٦٥٨م^(١) ، واتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية وترك الأمر شورى للمسلمين يختاروا ما يشاءون ، فتقدم أبا موسى الأشعري وخلع عليا ، ثم صعد عمرو وثبت معاوية ، ورضيت جماعة معاوية بقرار التحكيم ، ورفضته جماعة عليؑ الذي أصبح في نظر أهل الشام والخوارج خليفة غير شرعي ، فاكتسب معاوية بهذا القرار قوة إلى قوته ، وازداد عليؑ ضعف على ضعفه باستفحال أمر الخلاف داخل أتباعه^(٢).

بدأ أهل الشام حركة مبايعة معاوية بالخلافة ، ولكن معاوية لم يتعجل ذلك حتى لا يظهر أمام العامة وأمام المخدوعين من أتباع عليؑ بمظهر من كان يسعى إلى الخلافة ، فنذر رفض طاعة الخليفة عليؑ .

عاد الحال على ما كان عليه قبل صفين وضعف مركز عليؑ ، وحقق معاوية مكاسب عديدة حيث أنه كان أميراً على إحدى ولايات الدولة الإسلامية ، وعمل معاوية على إضعاف مركز عليؑ بضم مصر إليه ، وإثارة الاضطرابات ضد عليؑ في كل أرجاء الخلافة .

أعلن محمد بن حذيفة ولاءه لعلي بن أبي طالبؑ وبدأ يحارب معارضي الخليفة حيث أعلنت القبائل العربية في مصر التابعة لعثمان بن عفانؑ الأخذ

١ () اليعقوبي: تاريخه ، ج٢ ص ١٩٠ .

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ، ج٤ ، ص ٧٨ ، البلاذري: فتوح البلدان ، ص ٥ ، ابن الأثير:

بالتأثر من قتلته وكان زعيمها معاوية بن حديج ، ودارت معركتان بين محمد بن حذيفة ، وشيعة عثمان ؓ في الإسكندرية وخربنا انهزم فيها محمد بن حذيفة^(١) .

وقد شجع انتصار شيعة عثمان ؓ على والى مصر محمد بن حذيفة . معاوية على ضم مصر لجانبه ، فأرسل عمرو بن العاص ، فقاد عمرو جيشا سنة ٣٦هـ/٦٥٦م ، ودخل مصر ووصل بالقرب من الفسطاط في منطقة عين شمس فتصدى له محمد بن حذيفة ، ودارت المفاوضات بينهما وانتهى الأمر بحصول عمرو على رهائن من محمد بن حذيفة ، وكان ابن حذيفة ضمن هذه الرهائن وقتل مع الرهائن في ذي الحجة سنة ٣٦هـ/٦٥٦م^(٢) .

بعد مقتل محمد بن أبي حذيفة أرسل الخليفة علي ؓ قيس بن سعد بن عبادة واليا على مصر سنة ٣٧هـ/٦٥٧م ، إلا أن معاوية أخذ يدس له الدسائس حيث تمكن قيس من كسب ود معارضي الخليفة علي ؓ وأكرمهم وأحسن إليهم، وترتب على ذلك تحول موقف المعارضين بالانصياع لأوامر قيس ، فأحس معاوية بالخطر فبدأ يكيد لقيس عند الخليفة علي ؓ .

ويذكر الكندي حديث معاوية عن كيده قيسا والقضاء عليه ، فقال : أن معاوية قال لأهل الشام: "لا تسبوا قيسا ، ولا تدعوا إلى غزوه . أي محاربتة . فإن قيسا لنا شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته ، ألا ترون ماذا يفعل بأخوانكم بخربنا؟! يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم"^(٣) ، فسمع بذلك عيون علي ؓ بالعراق والشام، فاتهم علي قيسا ، وبعث يأمره بقتال شيعة عثمان بخربنا ، فرفض قيس ، فعزله علي وهكذا تخلص معاوية من قيس بالدهاء والمكايدة^(٤) .

(١) الكندي: ولاية مصر ، ص ٤٢ ، أبو المحاسن: النجوم ، ج ١ ص ٩٤-٩٨ .

(٢) الكندي: ولاية مصر ، ص ٤٣ .

(٣) الكندي : ولاية مصر ، ص ١٩ .

(٤) البيهقي: تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، الكندي: ولاية مصر ، ص ١٦ .

بعد عزل قيس أرسل علي عليه السلام الأشر النخعي واليا على مصر فصار إليها حتى نزل القلزم ، وهناك لم ينج من كيد معاوية حيث دس له سما أثناء نزوله منزل أحد رجال مدينة القلزم ، فمات مسموما ودفن بها^(١).

وفى رمضان سنة ٦٥٧/هـ ٣٧م أرسل علي عليه السلام محمد بن أبي بكر واليا على مصر ، فبدأ محمد ولايته بمعادة شيعة عثمان عليه السلام ، إذ اضطهدهم وخرّب ديارهم ثم سمح لهم بالنزوح من مصر واللاحق بمعاوية في بلاد الشام ، مما أشعل نار الحرب بينه وبينهم ، وكان على رأسهم معاوية بن حديج ، وسانده في تلك الفترة عمرو بن العاص من قبل معاوية، والتقى الطرفان في منطقة المسناه بالقرب من القسوط^(٢) في شهر صفر سنة ٦٥٨/هـ ٣٨م ، وانتهت المعركة بهزيمة محمد بن أبي بكر ومقتله^(٣).

وبمقتل محمد بن أبي بكر تمكن معاوية من القضاء على أتباع الخليفة علي عليه السلام بمصر ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر ولاية تابعة لمعاوية ، إذ ولى عليها عمرو بن العاص مكافأة له على وقوفه بجانبه في صراعه ضد الخليفة علي عليه السلام.

وهكذا كان لمصر دور بارز في الصراع الذي نشب بين الخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام والأمير معاوية بن أبي سفيان ، إذ تجلّى ذلك في موقف شيعة عثمان عليه السلام المعارضين لسياسة ولاة علي عليه السلام سوى قيس بن سعد بن عبادة ، الذي نجح في كسب ودهم ، ولكنه لم ينج من مكيدة معاوية التي انتهت بعزله.

وكانت مطالب العثمانية كشوكة في جانب ولاة علي عليه السلام ، حيث حاربوا محمد بن أبي بكر الذي أساء معاملتهم ، وكان مقتله على أيديهم ، وقد رجح هذا الموقف

١ () الكندي: ولاة مصر ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ، ج ٢ ص ٣٢٢.

٢ () السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة ، ج ٢ ص ٣٢٢.

٣ () الكندي: الولاية ، ص ٥٢ ، أبو المحاسن: النجوم ، ج ٢ ص ١٠٩.

كفة الأمير معاوية في صراعه مع الخليفة علي عليه السلام ، إذا صارت مصر ولاية أموية فيما بعد.

مقتل الخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام:

وهكذا كانت الأمور والأحداث تتلاحق إذ ازداد موقف معاوية قوة وازداد نفوذه خارج الشام بينما انحصر أمر الإمام علي وتقلصت أطراف بلاده مما جعل أصحابه يتهيئون للقتال والقضاء على الخطر المائل أمامهم، وبينما هم يتجهزون إذ بمؤامرة يدبرها الخوارج لقتل كل من علي ومعاوية وعمرو بن العاص إلا أن الشخصين الذين كلفا بقتل معاوية وعمرو فشلا في مهمتهما بينما نجح عبد الرحمن بن ملجم المرادي في قتل الخليفة علي عليه السلام وذلك أثناء صلاة الفجر بمسجد الكوفة^(١)، وقد حرص الإمام وهو يلفظ أنفاسه الأخيره أن يوصى ابنه الحسن بقوله: انظر يا حسن إذ أنا مت من ضربتي هذه فأضرب القاتل ضربة بضربة، ولا تمثلن بالرجل، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور"^(٢).

وقد هم علي بالتحقيق في مقتل عثمان، وبدا بأقرب المتهمين وهو محمد بن أبي بكر، ولم يتركه إلا بعد أن شهدت امرأة عثمان بأنه لم يقتل. وكان جديرا بعد ذلك أن يجرى في تقصى الأمر والوصول إلى القتلة وإجراء حكم القانون، ولكن الأمور تغيرت بخروج الخارجين عليه.

وكأنما أراد منافسو علي أن تبقى قضية مقتل عثمان بلا حل فتكون مثارا للجدل وموضعا للإحراج.

وكان أصحاب المصلحة في إبقاء القضية عند هذه الحدود هم طلحة والزبير ومعاوية.

(١) ابن طباطبا: الفخرى، ص ٧٢.

(٢) إبراهيم الإبياري: معاوية، ص ٢٢٩.

مساعى الصلح بين على ومعاوية:

ولقد تبادلت الرسائل بين على ومعاوية من أجل التسوية بينهما. فبعث على بشير بن عمرو بن محسن، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي لدعوة معاوية إلى الطاعة والدخول في الجماعة لتوحيد شمل الأمة. ولكن الحل السلمي يتعثر كلما عرض معاوية قضية مقتل الخليفة عثمان ويمعن في هذا الأمر. وكان من الحرى عليه أن يتعاون مع الخليفة على وينضم تحت لوائه بدلا من المراوغة وإلصاق التهم على الخليفة على ورميه بأنه آوى قتلة عثمان.

وحدثت مناوشات خفيفة بين خيالة أهل العراق وأهل الشام، وكانوا يقتتلون ثم ينصرفون.

ولما أهل شهر المحرم سنة ٣٧هـ/٦٥٧م توادعا على ومعاوية على ترك الحرب فيه إلى انقضائه طمعا في الصلح وترددت بينهما الرسل ولكن لم يكتب لها النجاح.

وهكذا فشلت المساعي السلمية في تقريب هوة الخلاف، ولم يبق أمام الفريقين سوى اللجوء إلى القوة. (١)

بدء المعركة:

ولما دخل شهر صفر سنة ٣٦هـ/٦٥٦م نشب القتال، وكانت بينهم وقعتات كثيرة بصفين. بلغت تسعين وقعة. وكانت مدة إقامتهم بصفين مائة وعشرة يوم. وقتل من أهل الشام خمسة وأربعين ألفا. ومن أهل العراق خمسة وعشرين ألفا. وأمر على بن أبي طالب ﷺ جنده أن لا يقاتلوهم حتى يبدءوا بالقتال وأن لا يقتلوا مدبرا ولا يأخذوا شيئا من أموالهم وأن لا يكشفوا عورة.

وانتدب على اثني عشر ألفا وحمل بهم على جند معاوية واختلت صفوفهم. ودعا على معاوية لمبارزته، قائلاً: فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور، فقال

(١) الطبري: تاريخ الأمم، ج٣، ص ٧٩.

عمري: أنصفك ابن عمك، فقال معاوية: ما أنصف إنك تعلم أنه لم يبرز أحد إلا قتله، فقال عمرو: وما يحسن بك مبارزته، فقال معاوية طمعت في الأمر بعدى".
(١)

التحكيم:

ولما كثر القتلى في جند الشام فكر عمرو ومعاوية في وسيلة لوقف سير القتال فلجئوا إلى حقيقة تغير مجرى المعركة، فقالوا: "هلم نرفع المصاحف على الرماح ونقول هذا كتاب الله بينا وبينكم، ففعلوا ذلك" واثرت هذه الخدعة على أهل العراق وطالوا على بالاستجابة إلى كتاب الله، امضوا على حقكم وصدقكم في قتالهم وإن هذه خدعة دبرها عمرو ومعاوية وأنا أعلم بهم منكم، فقالوا: لا تمنعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى، فقال على إنى إنما قاتلتهم لدينوا بحكم كتاب الله. ولقد وضعت هذه الحيلة على بن أبي طالب عليه السلام في موقف حرج، فإن قبل بتحكيم كتاب الله فإن جماعة من جنده يفترون عنه، وإن واصل الحرب والقتال رغم المصاحف المرفوعة يكفره أصحابه، وفي كلتا الحالتين يتحول الموقف لصالح معاوية.

ولم يصع رجال على لنصحه لهم بمواصلة القتال، وإنما طالبوه بالكف عن استمرار القتال وعلى رأس هذا الفريق طائفة القراء بجيش على. ولما كفوا عن القتل سألوا معاوية عن سبب رفع المصاحف وتعين حكما من أهل العراق وآخر من أهل الشام للعمل بما في كتاب الله. وكان على بن أبي طالب عليه السلام يدرك أبعاد المؤامرة عندما طالبه الأشعث ابن قيس وهو من أكبر الخوارج باختيار أبو موسى الأشعري. فقال على: قد عصيتموني في أول الأمر، فلا تعصوني الآن لا أرى أن أولى أبا موسى، وكان على يرى أن أبا موسى ليس بثقة لأنه خذل الناس عن على لعدة أشهر، ولكن ابن

(١) أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، ج ١، ص ٢١٨.

عباس أولى منه، فأصروا على التمسك بأبي موسى الأشعري برغم عدم رضا على بن أبي طالب عليه السلام عنه. (١)

وأخرج معاوية عمرو بن العاص واجتمع الحكمان عند على وكتب بحضوره كتاب القضية (التحكيم) للنزول على حكم الله وكتابه في الثالث عشر من صفر سنة ٣٧هـ/٦٥٧م، على أن يوافق على معاوية موضع الحكمين بدومة الجندل فإن لم يتمكن من الاجتماع يؤجل إلى العام المقبل بأذرح. ومما لا ريب فيه أن قبول على التحكيم أول وهن أصاب مركزه كخليفة للمسلمين، وقد ترتب على ذلك ظهور حركة الخوارج.

ولقد عارض طائفة من جيش على التحكيم وعرفوا باسم الخوارج، وكان شعارهم: "لا حكم إلا لله" ورفضوا دخول الكوفة مع على وعسكروا في منطقة حروراء؛ وعرفوا باسم الحرورية. وبعث على بن عباس لهم وقارعهم بالحجة بالحجة. فعاد قوم منهم إلى رشدهم.

وتمسك نفرٌ منهم برأيهم وساروا إلى النهروان وقتلوا كل من اعترضهم. كما قتلوا الصحابي عبد الله بن خباب.

وسار على بن أبي طالب عليه السلام على رأس جيش لتأديب الخوارج والتقى معهم سنة ٣٧هـ/٦٥٧م بالنهروان. وأسفر اللقاء عن قتلهم جميعاً ولم ينجوا منهم سوى نفر قليل.

واجتمع الحكمان وبعد مشاورات استقر رأيهم على عزل على ومعاوية وأن يجعل الأمر شورى بين المسلمين. وتقدم أبو موسى الأشعري ليخبر الناس بما اتفقوا عليه فقال: أيها الناس إنا لم نر أصلاً لأمر هذه الأمة من أمر قد اجتمع عليه رأيي ورأي عمرو وهو أن نخلع على ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا. وإنى قد خلعت على ومعاوية. وأقبل عمرو ثم قال: إن هذا

(١) أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، ج ١، ص ٢٢٠.

قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه واثبت صاحبي. فرد عليه أبو موسى بأن ذلك خيانة لما اتفق عليه.

ولما دخلت سنة ٣٨هـ/٦٥٨م بعث معاوية جيشا بقيادة عمرو بن العاص للمسير إلى مصر وانتزاعها من علي. وكتب واليها من قبله محمد بن أبي بكر يستنجد بعلي فأرسل إليه الأشر. فلما وصل الأشر إلى القلزم سقاه رجل عسلا مسموما فمات منه.

وسار عمرو بن العاص إلى مصر واشتبك مع محمد بن أبي بكر وهزمه وتفرق عن محمد أصحابه ثم فر هاربا إلى خربتا فقبض عليه وقتله معاوية بن حديج. وتمكن عمرو بن العاص من أخذ بيعة أهل مصر لمعاوية.

وأخذ معاوية يشن سراياه للغارة على أعمال علي، فبعث النعمان بن بشير الأنصاري إلى عين التمر، وبعث سفيان بن عوف إلى هيت والأنبار والمدائن، وسير عبد الله بن مسعدة الفزاري إلى الحجاز فجهز إليه على خيلا فالتقوا بتيماء هزم عبد الله بن مسعدة فعاد إلى الشام. (١)

وفى سنة ٤٠هـ/٦٦٠م بعث معاوية بسر بن وطأة بجيش استولى على الحجاز واليمن.

استشهاد علي بن أبي طالب ؑ:

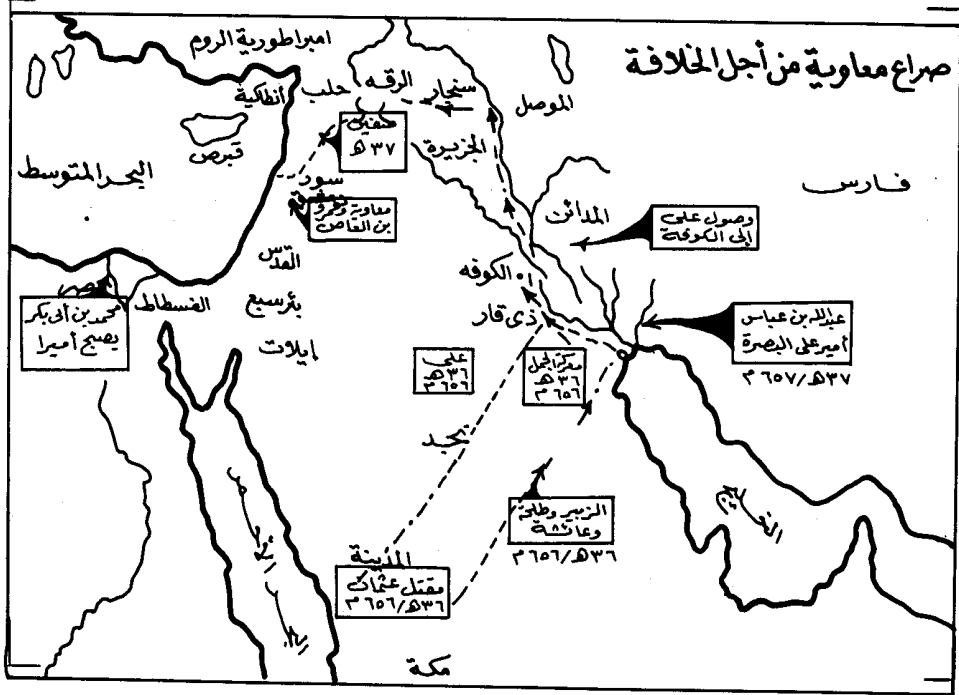
اجتمع ثلاثة من الخوارج هم عبد الرحمن بن ملجم المرادي، وعمرو ابن بكر التميمي، والبرك بن عبد الله التميمي، وتذكروا أخوانهم المقتولين في موقعة النهروان، ودبروا فيما بعد بينهم خطة للتخلص من علي ومعاوية وعمرو فتوجه عبد الرحمن بن ملجم إلى علي، والبرك بن عبد الله إلى معاوية، وعمرو بن بكر إلى عمرو بن العاص. وتعاهدوا أن لا يفر أحد منهم من صاحبه الذي توجه إليه، وحملوا معهم سيوفا مسمومة واتفقوا على تنفيذ جريمتهم في السابع عشر من رمضان سنة ٤٠هـ/٦٦٠م.

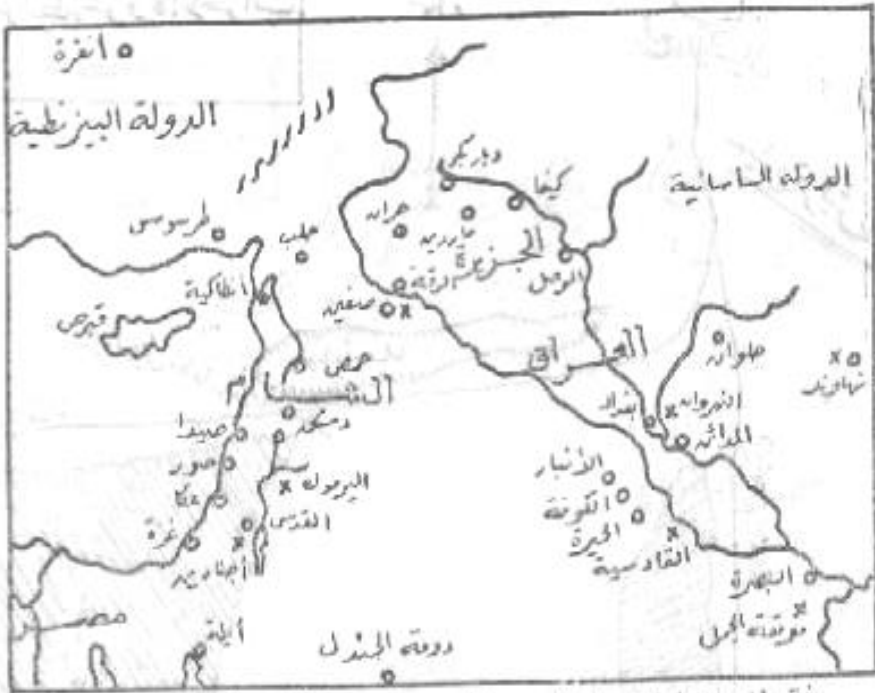
(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٢١.

ولم تتجح خطة الخوارج إلا في مقتل على الذي ترصده عبد الرحمن ابن ملجم أثناء خروجه لصلاة الصبح فطعنه عدة طعنات نافذة. أما البرك فوثب على معاوية وجذبه بالسيف ولكنه نجا. وأما عمرو بن بكر فإنه ترصد عمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج عمرو للصلاة وكان قد أمر خارجه ابن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس فشد عليه عمرو بمن بكر وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله فأخذه الناس واتوا به عمرا. فقال من هذا قالوا: عمرا فقال: أى من قتلت، قالوا: خارجة، فقال عمرو: أردت عمرا وأراد الله خارجه وعقب وفاة على بن أبى طالب عليه السلام بايع الناس ابنه الحسن. (١)

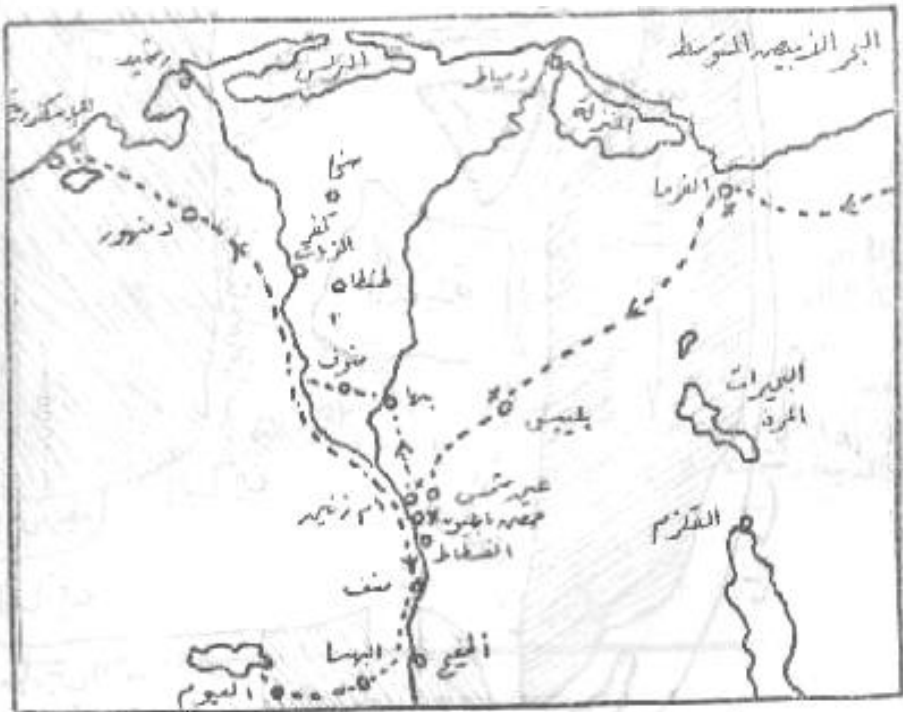
(١) أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، ج ١، ٢٢٦؛ ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج ١،

خريطة توضح الصراع بين علي ومعاوية





فتح العرب لبلاد العراق والشام في عهد الخلفاء الراشدين



فتح العرب لمصر في عهد الخلفاء الراشدين

الفصل الخامس

عصر الخلفاء الأمويين

(٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٦٨٠م)

١ - خلفاء الدولة الأموية.

السنوات الميلادية	السنوات الهجرية	
٦٦١	٤١	١- معاوية بن أبي سفيان
٦٨٠	٦٠	٢- يزيد بن معاوية
٦٨٣	٦٤	٣- معاوية بن يزيد
٦٨٣	٦٤	٤- مروان بن عبد الحكم
٦٨٥	٦٥	٥- عبد الملك بن مروان
٧٠٥	٨٦	٦- الوليد بن عبد الملك
٧١٥	٩٦	٧- سليمان بن عبد الملك
٧١٧	٩٩	٨- عمر بن عبد العزيز
٧٢٠	١٠١	٩- يزيد بن عبد الملك
٧٢٤	١٠٥	١٠- هشام بن عبد الملك
٧٤٣	١٢٥	١١- الوليد بن يزيد
٧٤٤	١٢٦	١٢- يزيد بن الوليد
٧٤٤	١٢٦	١٣- إبراهيم بن الوليد

الفصل الخامس

الخلفاء الأمويون

السنوات الميلادية	السنوات الهجرية	
٦٦١	٤١	١- معاوية بن أبي سفيان
٦٨٠	٦٠	٢- يزيد بن معاوية
٦٨٣	٦٤	٣- معاوية بن يزيد
٦٨٣	٦٤	٤- مروان بن عبد الحكم
٦٨٥	٦٥	٥- عبد الملك بن مروان
٧٠٥	٨٦	٦- الوليد بن عبد الملك
٧١٥	٩٦	٧- سليمان بن عبد الملك
٧١٧	٩٩	٨- عمر بن عبد العزيز
٧٢٠	١٠١	٩- يزيد بن عبد الملك
٧٢٤	١٠٥	١٠- هشام بن عبد الملك
٧٤٣	١٢٥	١١- الوليد بن يزيد
٧٤٤	١٢٦	١٢- يزيد بن الوليد
٧٤٤	١٢٦	١٣- إبراهيم بن الوليد
٧٥٠-٧٤٤	١٣٢-١٢٧	١٤- مروان بن محمد

تنسب الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان أمية هذا سيداً من سادات قريش في الجاهلية (١). وذكر بعض المؤرخين أن العلاقة بين بنى هاشم وبنى أمية لم تكن على ما يرام قبل ظهور الإسلام، ولما صارت النبوة في بنى هاشم أعلنت رسالة النبي ﷺ من مكانتهم فرجحت بذلك كفتهم على كافة أبناء عمهم بنى أمية، واستمر العداء بين الفريقين في الإسلام. (٢)

وفي حقيقة الأمر فإن العداوة بين بنى هاشم وبنى عبد شمس لم تكن قديمة ولا دموية منذ ميلادهما بل هي نشأت بعد ذلك لأسباب قبلية وأخرى سياسية بل إننا نجد رجال بنى عبد شمس في جملة المعتدلين في عداوة النبي ﷺ.

وعندما كانت قريش تستعد للخروج لمعركة بدر كان من أبطنهم في ذلك الحارث بن عامر وأميه بن خلف وعتبة وشيبة أبناء ربيعة.

ولم يكن أبو سفيان بن حرب أحد أعداء الإسلام من قريش وكان في أمره معتدلاً مع النبي ﷺ وأمة الإسلام بعد الهجرة وخاصة بعد هزيمة الأحزاب أيام الخندق فإن الرجل أقتنع بأن لا قبل لقريش بمحمد ﷺ والإسلام.

ولم يكن لأبي سفيان أثر في مفاوضات الحديبية، ولكنه يعود إلى الظهور قبيل فتح مكة حيث خرج إلى الرسول ﷺ بتجديد صلح الحديبية بعد انقطاعه ولم يكن لأبي سفيان يد في ذلك الانقطاع ولم يوفق في تجديد العهد، ورأى عزيمة الرسول ﷺ على دخول مكة.

قام بناء على نصيحة من علي بن أبي طالب ﷺ بالإجارة لنفسه بين الناس ورسول الله لم يرفض هذه الإجارة وإن لم يقرها فأصبحت سارية تشمله وتشمل قريش

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ط ٣، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٩م،

ص ٢٩.

(٢) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة،

د.ت، ص ٥٤.

ومكة وكافأ الرسول ﷺ أبا سفيان على صنيعه بأن جعل له كرامة ظاهرية وهي قوله "ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن". (١)

وكانت بداية الكراهية بين بنى أمية وعلى بن أبي طالب ﷺ أثناء موقعة بدر وما بعدها بسبب ما قتل وجرح في ذلك اليوم فقد قتل وحده أربعاً من بنى عبد شمس .

ونستطيع أن نلمس حقدهم عليه لما حل بعمه حمزة بن عبد المطلب. كانت الخلافة في عهد أبي بكر الصديق وعمر والسنوات الأولى من حكم عثمان إمامة ورياسة شورية، ولكنه منذ منتصف خلافة عثمان وعلى الأخص في بلاد الشام عندما سخطت الأمة على عثمان وأرادت عزله استمسك بها وتشعر في أثناء النزاع بين عثمان ومخالفيه بأن قومه بنى أمية كانوا من خلفه-ظاهرياً-وعندما قتل وقام بالأمر على بن أبي طالب لم يكونوا مستعدين للتخلي عما بلغوه من القوة والجاه والمال منذ أيام عمر. وعندما أصر على بن أبي طالب ﷺ على عزلهم بدأت المعركة والخصومة الحقيقية التي تحولت نتيجة لذلك إلى خصومة سياسية ونزاعاً على سلطان ومال وجاه. (٢)

وانحصرت الخلافة في فرعين لبنى أمية هما فرع حرب بن أمية، وفرع أبي العاص بن أمية، وأكثر الخلفاء من الفرع الثانى، أما الفرع الأول فليس منه إلا معاوية وابنه يزيد وحفيده معاوية الثانى.

(١) المقرئى: كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم، حققه حسين مؤنس، دار

المعارف القاهرة، د.ت، ص ٥-٨.

(٢) المقرئى: كتاب النزاع والتخاصم، ص ٨-١٠.

١- معاوية بن أبي سفيان: (٤١-٦٦١/هـ-٦٨٠م):

معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، مؤسس الدولة الأموية، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار؛ يكنى أبا عبد الرحمن وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس أسلم معاوية يوم فتح مكة سنة ٦٢٩/هـ٨م، وتعلم الكتابة والحساب فجعله الرسول ﷺ من كتاب الوحي.

وفى خلافة أبو بكر الصديق (١١-١٣/هـ-٦٣٢-٦٣٤م) ولى معاوية قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فكان على مقدمته فى فتح صيدا وعرقه وجبيل وبيروت. (١)

ولما تولى عمر بن الخطاب (١٣-٢٣/هـ-٦٣٤-٦٤٤م) جعله والياً على الأردن، ورأى فيه حزماً وعلماً فولاه دمشق بعد وفاة أميرها يزيد. وفى خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥/هـ-٦٤٤-٦٥٦) أسند إلى معاوية معظم الديار الشامية، وجعل ولاية أمصارها تابعين له.

وكانت ولاية معاوية على الشام عشرين سنة ولقد وصل معاوية إلى الخلافة عقب الأحداث التى تمخضت عن مقتل الخليفة عثمان، فمنذ أن حدثت الثورة التى أنتهت بقتل عثمان، برزت أهواء جديدة لم يكن المسلمون من قبل يفكرون فيها ولا يسعون إليها وتمزقت وحدة الجماعة الإسلامية إلى فرق سياسية مختلفة فيما بينهم فى شئون الحكم والسياسة.

ولما بويع على بالمدينة امتنع معاوية متذرعاً بتهاون على فى أمر قتله عثمان وإيوائه قتلته فى جيشه وعدم القصاص منهم وبإياعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة على مما أحدث الخلاف والشقاق بين أهل العراق وأهل الشام.

(١) أبو الفدا: التبر المسبوك فى تاريخ الملوك، تقديم وتحقيق محمد زينهم محمد على، ط١،

مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٣٣.

ويرى أحد الباحثين أن معاوية لم يكن من السهل عليه التنازل عن حكم الشام أياً كان الخليفة الذى تولى بعد عثمان، مهما كان السبب الذى ينهى حكم عثمان مقتولاً أو مات ميتة عادية. (١)

وعندما فرغ الخليفة على بن أبى طالب رضي الله عنه من قتال طلحة والزبير وعائشة فى موقعة الجمل عاد إلى الكوفة ليتأهب لحرب معاوية الذى أمتنع عن البيعة، وأخذت السفارات ترسب بين الطرفين لمحاولة الوصول إلى حل لحقن الدماء، ولكنها فشلت والتقى الفريقان فى شهر ذى الحجة سنة ٣٦هـ / ٦٥٦م فى صفين على الحدود بين العراق والشام.

وكانت دفة المعركة تسير فى صالح الخليفة على بن أبى طالب رضي الله عنه حيث لحقت خسائر فادحة بجيش معاوية، ولجأ معاوية إلى الخدعة حيث أمر جنده برفع المصاحف ونادى أهل الشام يقول "هذا كتاب الله بيننا وبينكم" وكان عمرو بن العاص وراء هذه الخدعة لبيث الفرقة فى جيش على حيث كان بهم عدد كبير من القراء، فلما رأوا المصاحف وسمعوا التحكيم إلى القرآن كفوا عن القتال وأضطر على لقبول التحكيم.

وساء موقف على بعد صفين فكان الخوارج فى العراق يحاربونه حرباً شديدة وكان أهل البصرة متراخين عن نصرته، وكان أهل الكوفة معه بأهوائهم، لكنهم لم يكونوا معه بكل قواهم وكان بينهم بعض المحايدىين وبعض المائلين إلى عثمان ولحق بعضهم بمعاوية ومما زاد من تقاوم الأمر أن بعض الولايات امتنعت عن دفع الخراج وصدقات المال كالبحرين وتمردت بعض الولايات الفارسية.

ونجحت خطة الخوارج فى اغتيال الخليفة على بن أبى طالب رضي الله عنه فى السابع عشر من رمضان سنة ٤٠هـ / ٦٦٠م ونجا معاوية وعمرو بن العاص، وبذلك صفا الجو إلى معاوية. وبعد مقتل على بايع أهل العراق ابنه الحسن بالخلافة، ومكث

(١) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى، ج ٢، ص ٣٤.

بعد أبيه شهرين وقيل أربعة أشهر، وأدرك الحسن أن استمساكه بالخلافة والاستمرار في الصراع مع معاوية لا جدوى منه لأنه لا يزيد إلى إراقة الدماء.

ولما بلغ معاوية قتل على تجهز وقدم على جيشه عبد الله بن عامر بن كريز وسار إلى عين التمر ونزل الأنبار يريد المدائن، وبلغ ذلك الحسن وهو بالكوفة فسار نحو المدائن لمحاربة عبد الله بن عامر، فلما انتهى إلى سباط رأى أن أهل العراق قد يؤسوا من الحرب، فقال لهم "أيها الناس إنى قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة وإنى أرى ناظر لكم كمنظري لنفسى، وإنى أرى رأياً فلا تردوا على رأيي أن الذى تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة، وارى أكثركم قد نكل عن الحرب وفشل عن القتال".

ولما سمع الناس ما قاله الحسن ثاروا عليه وانتزعوا مصلاة من تحته ونهبوا ثيابه فرحل الحسن إلى المدائن فكن له أحد الخوارج ويدعى الجراح بن قبيصة وطعن الحسن فى فخذه ومضى مثخناً حتى دخل المدائن وتم علاجه حتى برئ.

وأقبل معاوية ونزل الأنبار وبها قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى من قبل الحسن فحاصره معاوية، ولما رأى الحسن تخاذل أصحابه أرسل إلى عبد الله بن عامر بشرروطه فى الصلح ليسلم الأمر إلى معاوية وهى:

١- أن يجعل للحسن خراج الأهواز.

٢- أن يؤمن الأسود والأحمر ويحتمل ما يكون من هفواتهم.

٣- ألا يأخذ أحداً من أهل العراق؟.

٤- يحمل إلى الحسن بن على فى كل عام ألفى درهم.

٥- أن يفضل بنى هاشم فى العطاء والصلوات على بنى عبد شمس. (١)

ولما وافق معاوية على هذه الشروط كتب الحسن إلى قيس بن سعد بالصلح وأمره بتسليم الأمر لمعاوية والعودة إلى المدائن فلما وصل كتاب الحسن

(١) الدينورى: الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، ط١،

إلى قيس قال للجند "أيها الناس اختاروا أحد الأمرين القتال بلا إمام أو الدخول في طاعة معاوية فاختاروا الدخول في طاعة معاوية...".

سار الحسن من المدائن إلى الكوفة والتقى مع معاوية وبايعه وخطب في الكوفة بقوله "أيها الناس أن الله هداكم بأولنا وحقن دمائكم بآخرنا وقد سالمت معاوية وإن إدري لعله لفتنة لكم ومتاع إلى حين".

ولما سلم الحسن الأمر إلى معاوية سنة ٤١هـ/٦٦١م عرف هذا العام بعام الجماعة لإجماع الأمة بعد الفرقة على إمام واحد ودخل معاوية الكوفة وبايعه أهلها بالخلافة وعاد الحسن والحسين إلى المدينة.

وترتب على هذا الصراع الذي دام نحو ست سنوات انتقال الخلافة من الكوفة إلى دمشق، وكان لهذا الانتقال وقع أليم في نفوس أهل العراق، فقد نزل شأن بلادهم بعد أن كانت لهم الدولة فصارت مصراً من الأمصار، ولذلك كانت أعنف الثورات على الأمويين تأتي من جانب أهل العراق وانتخب معاوية ولاته لحكم العراق من أمكر رجاله كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه.

كان زياد بن أبيه يلي فارس من قبل الخليفة على بن أبي طالب عليه السلام، وكان من أشهر المخلصين له، ولما قتل على حدثت فجوة بين زياد ومعاوية وانتهى الأمر بالصلح بينهم والحق زياد بنسب أبي سفيان، وتحول إخلاص زياد إلى معاوية دفعة واحدة وأضاف إليه معاوية خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان وخطب زياد في أهل البصرة الخطبة المعروفة بالبتراء وعامل أهلها بعنف شديد، يقول ابن الأثير "وكان زياد أول من شدد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية وجرّد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة...".

وكان المغيرة بن شعبة على ولاية الكوفة، ولما توفى المغيرة، ضم معاوية الكوفة إلى زياد وهو أول من جمع له الكوفة والبصرة معاً، وكان زياد يقيم في الكوفة ستة أشهر وبالْبصرة ستة أشهر.

أما ولاية مصر فكانت من نصيب عمرو بن العاص جعلها معاوية طعمة أو مكافأة له للمساعدات الجليلة التي قدمها لمعاوية يوم صفين وفي قضية التحكيم، ومن المعروف أن عمرو بن العاص حكم مصر عشر سنين منها أربع سنين في خلافة عمر بن الخطاب وفي عهد عثمان بن عفان سنتين وفي عهد معاوية سنتين وثلاثة أشهر، وكان عمرو أحد دهاة العرب البارزين وتوفى ليلة عيد الفطر سنة ٤٣هـ/٦٦٣م. (١)

كما أسند معاوية ولاية المدينة إلى مروان بن الحكم ثم عزله وعين سعيد بن العاص، وعلى مكة خالد بن سعيد.

وأعاد معاوية تنظيم أمور الدولة في الداخل فاتخذ الحرس وعمل ديوانى الخاتم والبريد واحسن إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم وعلى الأخص بنو هاشم الذين كان بعضهم يعتقد أنه افضل منه بالخلافة.

أما عن سياسة معاوية على الصعيد الخارجى فقد استأنف موجة الفتوح الإسلامية التى توقفت منذ عهد عثمان بن عفان فى فارس والمغرب وهادن البيزنطيين وحرص على نشر الإسلام فى البلاد المفتوحة حيث نقل عدد كبير من الأسر العربية خراسان وغيرها.

ومن أهم الأمور التى استحدثها معاوية هو محاولته جعل الحكم فى الدولة العربية وراثياً وهذا شئ جديد بالنسبة إلى العرب والإسلام فقد كانت الرياسة عند العرب تورث داخل نطاق القبيلة أو العشيرة وكان من الأمور المقررة أن يعين الأمير من يخلفه بعد وفاته ولكن الشئ الذى لم يكن موجوداً هو البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة.

ويبدو أن معاوية قصد من وراء توريث يزيد الخلافة القضاء على افتراق كلمة الأمة الإسلامية ووقوع الفتنة وأن يضع حلاً للمسألة التى تركها النبى ﷺ دون حل، وهى إيجاد سلطة دائمة للإسلام.

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٢٢.

كان المغيرة بن شعبه أول من أشار على معاوية بن أبي سفيان ببيعة يزيد بولاية العهد، لما عزله معاوية عن ولاية الكوفة فأعاده معاوية إلى الكوفة ليأخذ البيعة ليزيد.

وفى سنة ٥٩هـ/٦٧٨م وفدت على معاوية وفود الأمصار من العراق والشام لمبايعة يزيد وأرسل معاوية إلى مروان بن الحكم وإلى المدينة ليأخذ البيعة من أهلها ومن المعروف أن أهل الحجاز عارضوا هذه البيعة بشدة ومن أبرز الثائرين أبناء الصحابة وهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر فسار معاوية إلى الحجاز ولما دنا من المدينة لم يحظ بترحابهم ورحلوا إلى مكة ثم وفد عليهم معاوية واتبع معهم سياسة الود واللين فلم تحز رضاهم، فلجأ معاوية إلى أخذ البيعة بحد السيف والإجبار فبايعوا تحت التهديد. وعاد معاوية إلى الشام واشتد به المرض وتوفى فى شهر رجب سنة ٦٠هـ/٦٧٩م. (١)

ولما مرض معاوية دعا ابنه يزيد فقال "يا بنى، إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء، وذلت لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد وإنى لأتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلا أربعة نفر من قريش الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً وعظيماً، وأما أن ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ليس له همة إلا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعة إربا إرباً". (٢)



٢- يزيد بن معاوية (٦٠-٦٣هـ/٦٨٠-٦٨٣م):

تولى يزيد بن معاوية. وكانت أم يزيد تدعى ميسون بنت مالك بن يجدل بن أنيف بن ولج الكلبية.

وحدثت في عهد يزيد بن معاوية بعض الوقائع التي تركت آثارها السيئة فيما بعد على الأمويين. أولها انتهاك حرمة المدينة في موقعة الحرة وإباحتها لمدة ثلاثة أيام، ثم محاصرة عبد الله بن الزبير في مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق ومقتل الحسين بن علي في كربلاء وسنلقى مزيداً من الضوء على الحادثين الأخيرتين في تناول للحركات المعادية لبني أمية. (١)

ومن الرجال الذين اعتمد عليهم يزيد في المصار الإسلامية سلم بن زياد على خراسان، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان على المدينة، وعبد الله بن زياد على العراق، وعقبة بن نافع على إفريقية.

كما استعان بحسان بن يجدل الكلبى وروح بن زنباح الجذامى والنعمان بن بشير وعلى الشرطة عبد الله بن عامر الهمداني. توفي يزيد بن معاوية في سنة ٦٨٣/٥٦٤م بعد أن بايع لأبنة معاوية الثانى بالخلافة جميع الناس إلا ابن الزبير وأهل مكة.

(١) عبد الشافى محمد عبد اللطيف: دراسات فى تاريخ الدولة الأموية، القاهرة، ١٩٩٧م،

٣- معاوية بن يزيد (٦٦٣هـ/٦٨٠م):

اعتلى معاوية بن يزيد خلفاً لأبيه، وكان شاباً صالحاً، ولما استخلف كان مريضاً إلى أن مات ولم يخرج إلى الباب وكان زاهداً، واختلف المؤرخون في تحديد الفترة الزمنية التي قضاها معاوية الثاني في الخلافة فقول أربعين يوماً أو أربعة شهور، وقيل شهرين وقيل ثلاثة أشهر، كما اختلفوا في تقدير سنه ما بين ثمانية عشر عاماً وواحد وعشرين عاماً، وأثنى وعشرين عاماً. (١)

وعبر معاوية بن يزيد عن زهده في الخلافة حيث خطب في الناس "أيها الناس فإننا بلينا بكم وبليتم بنا فما نجهل كراحتكم لنا وطعنك علينا، ألا وإن جدى معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من مكة كان أولى به منه في القرابة برسول الله وأحق في الإسلام".

(١) عبد الشافي محمد عبد المطلب: دراسات في تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٧.٠

٤- مروان بن الحكم (٦٤-٦٥هـ/٦٨٣-٦٨٥م):

مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، يكنى أبا عبد الملك، وأمّه آمنه بنت علقمة بن صفوان بن أمية وأبوه الحكم طريد رسول الله ﷺ، وسببه أن الحكم كان يمر خلف رسول الله ويغمز بعينه.

أما عن السيرة الذاتية لمروان فلقد ولد في سنة ٦٢٣هـ/٦٢٣م، ونشأ بالطائف وسكن بالمدينة، واتخذه الخليفة عثمان كاتباً له، وبعد مقتل عثمان خرج مروان إلى البصرة مع طلحة والزبير وعائشة للمطالبة بدمه، وقاتل مروان في موقعة الجمل وانهزم أصحابه، وشهد صفين مع معاوية، ثم آمنه الخليفة على بن أبي طالب ﷺ، وعاد إلى المدينة في سنة ٦٤٢هـ/٦٦٢م، وأخرج منها أهل المدينة. (١)

وفي أواخر أيام معاوية بن يزيد اضطربت الأمور في الشام، وأوشك البيت الأموي على الانهيار، فقد كانت الشام تضم عصبتين العصابة اليمنية وتمثلها قبيلة كلب، وهي من القبائل التي هاجرت قبل الإسلام إلى بلاد الشام، واستقرت فيه وعرفوا أيضاً بقحطان على اسم قحطان أبو اليمن كلها، وإن غلب عليها اسم اليمن اليمانية.

أما العصابة المضرية وتمثلها قبائل قيس وهي التي وردت إلى الشام أثناء الفترة الإسلامية من بدو الحجاز.

وتمكن معاوية بن أبي سفيان من حفظ التوازن بين القبيلتين بفصل سياسته الحكيمة وفطنته واكتساب ودهما معاً، وفقد هذا التوازن بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان مما سيؤثر على سيد الأحداث ويعتبر سبباً جوهرياً من أسباب سقوط الدولة. على أية حال فقد كره القيسيون أن يخضعوا لنفوذ حسان بن مالك بن جندل وإلى فلسطين وإقليم الأردن في خلافة معاوية، ثم ظل يدبر الأمر باسم ابن اخته طول مدة خلافته فناصر الكلبيين العداء وانتفضوا على حكم بني أمية وقاموا

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٢٢٧.

يبايعون لابن الزبير، فقد ثار زفر بن الحارث يقنسرين وبايع لابن الزبير وأيده كلاً من النعمان بن بشير بحمص، ونافل بن قيس الذى استولى على فلسطين. وحدثت انتفاضة عارمة فى الولايات الإسلامية ضد الحكم الأموى وانضم أكثرها إلى دعوة عبد الله بن الزبير، ولم يميل إلى الأمويين غير إقليم واحد هو الأردن.

وعندما قدم مروان بن الحكم من المدينة ومن معه من بنى أمية إلى الشام وجد أن الأمور مضطربة فأراد أن يلحق بعبد الله بن الزبير لبيايعه ولكن عبید الله بن زياد والى البصرة كان بالشام آنذاك لمراقبة سير الأحداث حذر مروان من مغبة هذا التصرف قائلاً له "إنك شيخ بنى أمية فلا تعجل".

كما أخبر الحصين بن نمير قائد الجيش الأموى القادم من الحجاز مروان بن الحكم بما جرى بينه وبين ابن الزبير، وقال "أقيموا أمركم قبل أن يدخل عليكم شأنكم فتكون فتنة عمياً".

مؤتمر الجابية:

عزم الأمويون على تصفية الخلافات فيما بينهم فعدوا مؤتمراً بالجابية من أرض الجولان بين دمشق والأردن بايعوا فيها مروان بن الحكم بالخلافة على أن يتولى بعده خالد بن يزيد ثم عمرو بن سعيد بن الأشدق وأن تكون إمارة حمص من نصيب خالد بن يزيد وإمارة دمشق من نصيب عمرو بن سعيد. وبذلك انتقل الملك من الفرع السفينانى إلى الفرع المروانى.

ومن الجدير بالذكر أن مروان بن الحكم لم يلتزم بتنفيذ اتفاق الجابية ففي سنة ٦٥هـ أمر بالبيعة لأبنيه عبد الملك وعبد العزيز، ولم يعترض حسان بن ثابت بن وجدل خال خالد بن يزيد نكايه فى عمرو بن سعيد الذى أدعى أن البيعة ستكون من نصيبه بعد مروان. (١)

(١) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م،

موقعة مرج راهط:

إشتعل فتيل الحرب بين الضحاك بن قيس الفهري وبين الأمويين فى مرج راهط على مقربة من دمشق. وكان فى صف الضحاك بن قيس بعض القادة مثل النعمان بن بشير وإلى حمص، وزفر بن الحارث وإلى قنسرين. أما الأمويون فبیتزعمهم مروان بن الحكم وجعل على ميمنة جيشه عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد ووقف إلى جانبهم قبيلة كلب وغانان والسكاسك. ودار القتال لمدة عشرين ليلة وقتل الضحاك ولحقت الهزيمة باتباعه فى المحرم سنة ٦٥هـ ٦٨٤م. (١)

نتائج موقعة مرج راهط:

- ١- أشعلت هذه الموقعة نار العصبية من جديد بين العرب فى الشام وخراسان والمغرب والأندلس.
 - ٢- انتقل الملك من الفرع السفينانى إلى الفرع المروانى.
 - ٣- عادت الشام إلى حوزة بنى أمية. (٢)
- سياسة مروان إزاء الأمصار:**

بعد أن استتب الأمر إلى مروان بن الحكم فى بلاد الشام، أخذ يبسط نفوذه فى الأمصار الإسلامية التى تغلغل فيها نفوذ عبد الله بن الزبير فبدأ بمصر التى يليها عبد الرحمن ابن عتبة بن جحدم من قبل ابن الزبير حيث دخلها فى شعبان سنة ٦٤هـ/٦٨٣م.

ولما بويع مروان بالخلافة سار إلى مصر فى غرة جمادى أول سنة ٦٥هـ/٦٨٤م وحاول ابن جحدم منعه بحفر خندق حول الفسطاط. والتقى الطرفين فى مناوشات وأسفر اللقاء عن بعض القتلى من الجانبين، وعودة مصر للسيادة

(١) ابن الاثير: الكامل، ج ٣، ص ٣٢٨.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج ١، ص ٢٩٥.

الأموية، ونزل مروان بدار الفلفل المواجهة للمسجد الجامع، ثم أمر ببناء الدار البيضاء لتكون مقراً للحكم. (١)

ولم يلبث أن ترك مروان ابنه عبد العزيز على ولاية مصر. ثم أرسل مروان حملتين إحداهما إلى الحجاز حيث دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة ولكنها هُزمت، والأخرى إلى العراق حيث كان الشيعة قد نهضوا في الكوفة سنة ٦٥هـ/٦٨٤م وأظهر ندمهم على ما فرطوا في حق الحسين، وعرفوا باسم "التوابين" وقد عزموا على الأخذ بثأر الحسين وانتزاع الخلافة من بني أمية وإسنادها إلى أحد رجال البيت.

ولم يمض مروان بن الحكم في الخلافة سوى تسعة أشهر حيث لقي حتفه على يد زوجته أم خالد، لما أقدم عليه من تصغير شأن أبنها خالد بن يزيد عند أهل الشام لتخلو الساحة لبيعة ابنه عبد الملك وعبد العزيز، واشتكى خالد إلى والدته فعزمت على التخلص منه بوضع وسادة على وجهه ولم ترفعها حتى فارق الحياة، وقيل أنه مات مسموماً. (٢)

(١) الكندي: ولاية مصر، تحقيق حسين نصار، دار صادر، بيروت، ١٩٥٤م، ص ٦٤، ٦٧، ٦٩.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥٧.

٥- عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م):

عبد الملك بن مروان بن أبي العاص، هو المؤسس الثاني للدولة الأموية ولد سنة ٢٦هـ/٦٤٦-٦٤٧م، وهو أول من سمى بعبد الملك في الإسلام، وأول من نهى الرعية عن كثرة الحديث في حضرة الخلفاء.

كان عبد الملك أحد فقهاء المدينة الأربع وهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان يقول الذهبي " كان قبل الخلافة متعبداً ناسكاً عالماً فقيهاً أوسع العلم" وتولى ديوان المدينة لمعاوية بن أبي سفيان، ولم يزل به حتى وثب أهل المدينة على بني أمية وطردهم منها، ولم يلبث أن عاد إليها مع والده مع جيش يزيد حيث أمد قائد الجيش الأموي مسلم بن عقبة بمعلومات هامة ليسهل عليه اقتحام المدينة.

ولما عم السخط في الحجاز على الأمويين، لما حل بأهلها على أيديهم عاد مروان بن الحكم وأبنائه إلى الشام حيث تولى مقاليد الخلافة بعد وفاته وبويع لعبد الملك بعده. (١)

وتمكن عبد الملك بن مروان من أخماد الفتن والثورات التي كادت أن تسحب البساط من تحت أقدام الأمويين حيث عم الاضطراب في سائر البلاد ومن أخطرها.

١- ثورة عمرو بن سعيد الأشدق:

كان عمرو بن سعيد يرى أنه أحق بالخلافة من عبد الملك بعد أن فرط خالد بن يزيد في حقه بموجب اتفاق الجابية، وعندما استتب الأمر لمروان لم يلتزم بتنفيذه حيث خلع كلاً من خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد من ولاية العهد وأسندها لابنيه عبد الملك وعبد العزيز.

وانتهز عمرو بن سعيد الفرصة عندما خرج عبد الملك لحرب زفر بن الحارث بقرقيسيا فوثب على دمشق وطرد عاملها عبد الرحمن بن عثمان الثقفي،

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٤٥.

ودعا لنفسه بالخلافة، ولما علم عبد الملك بثورة عمرو بن سعيد عاد إلى دمشق واستعد لحرب عمرو ولكن ظهرت بادرة أمل في عقد إتفاق بين الطرفين فوافق عبد الملك على أن تكون ولاية العهد لعمرو بن سعيد بعد عبد الملك. وعلى الرغم من عقد الصلح بينهما إلا أن عبد الملك وجد أن التخلص من عمرو هو الطريق الوحيد ليأمن جانبه فدبر مؤامرة لقتله بقصره. (١)

ومن أعظم إنجازات عبد الملك إصلاح نظام العملة ومن المعروف أن العملة الرومية والفارسية كانت شائعة التداول قبل الإسلام، واكتفى الخلفاء الأوائل المسلمون بهذه العملة الأجنبية وفي بعض الحالات كانوا يكتبون فوق نقوشها بعض آيات قرآنية.

وكانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر فأحدث عبد الملك اجراء يقضى بأن تكتب في رؤس الطوامير عبارات من ذكر الله، فكره ملك الروم ذلك وأرسل على عبد الملك كتاباً بهذا الشأن، مما أغضب عبد الملك وشاور خالد بن يزيد بن معاوية فأشار عليه بعدم التعامل بالدنانير البيزنطية وضرب عملة إسلامية.

وكان أول سك للعملة العربية الخالصة سنة ٦٧٤هـ/٦٩٢-٦٩٣م وقيل سنة ٦٧٥هـ/٦٩٤م أو سنة ٧٦هـ/٦٩٥م.

ومن الرجال الذين اعتمد عليهم عبد الملك بن مروان يزيد بن كبسه السكسكى على الشرطة ثم عزله واستعمل عبد الله بن يزيد الحكمى، وعلى الحرس أبو عياش الكهانى ومن ولاته الحجاج بن يوسف على العراق وأخيه عبد العزيز على مصر والمغرب.

وتمكن عبد الملك من إعادة الهدوء والأستقرار إلى الدولة بعد أن قضى على ثورات الخوارج والشيعة فهدأ المشرق وبسط عبد الملك يده عليه. (٢)

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج ٢١، ص ١٠٦.

وتوفى عبد الملك بن مروان فى نصف شوال عن عمر يناهز السابعة والخمسين وقيل إحدى وستين وقيل أربع وستين سنة.

٢- ثورات ابن الأشعث:

كان عبد الرحمن بن محمد الأشعث عامل سجستان من قبل الحجاج بن يوسف الذى أرسله بجيش إلى رتبيل ملك كابل الذى تاخر فى دفع الأتاوة السنوية. ولم ينفذ ابن الأشعث الخطة الحربية المرسومة وأجلها للعام القادم، مما أثار سخطه على الحجاج، ولكن ابن الأشعث لم يستجب لتهديد الحجاج بل أعلن خلعه وأيده الجند وعاد إلى العراق ولما اقترب من الأهواز سير الحجاج إليه جيشاً فهزمه ابن الأشعث ثم أنهزم ابن الأشعث فى الجولة الثانية، وسببت ثورة ابن الأشعث اضطراباً عاماً للحجاج فى العراق وأرسل الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يطلب النجدة.

وكانت بين الحجاج وابن الأشعث وقائع كثيرة كانت آخرها وقعة مسكن هزمه الحجاج، فمضى ابن الأشعث صوب الشرق إلى سجستان وقبض عليه والقى بنفسه فوق سطح عال. (١)

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٧٧-٢٧٩.

٦- الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م):

بويح الوليد بالخلافة فى نصف شوال سنة ٨٦هـ/٧٠٥م، بعد وفاة أبيه ويكنى أبو العباس، أمه ولادة بنت العباس بن حر بن الحارث العبسية. (١)
 وكان مروان بن الحكم قد بايع لأبنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ولكن عبد العزيز مات قبل وفاة عبد الملك فعين عبد الملك ولديه الوليد ثم سليمان سنة ٨٥هـ/٧٠٤م، وكتب بذلك إلى الأمصار فبايع الناس ولما مات عبد الملك جدد الناس البيعة للوليد.

وتميز عهد الوليد بالهدوء والأستقرار بفضل تغلب والده عبد الملك على ثورة عبد الله بن الزبير وابن الأشعث، لذلك اتسعت أطراف الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً

فتم فتح المغرب والأندلس وبلاد ما وراء النهر وبلاد السند، وسنلقى مزيداً من التفاصيل عن تلك الفتوحات فى القسم الخاص بها.
 وقام الوليد بعدة إصلاحات داخلية فهو أول من عمل البيمارستانات للمرضى، وتعهد بكفالة الأيتام ورتب لهم المؤدبين والعميان من يقودهم، وأعطى كل مقعد خادماً، وكل ضرير قائداً. (٢)

وكان الوليد مهتماً بالعمارات والأبنية وإتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يعتقدون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات.
 ومن أروع إنجازات الوليد فى العمران المسجد الجامع الذى بدأ فى بنائه سنة ٨٧هـ بدمشق، كما أضاف بعض الزيادات فى مسجد الرسول ﷺ، من المنازل التى حوله وحجرات أزواج النبي ﷺ، وقام بتلك المهمة والى المدينة عمر بن عبد العزيز.

(١) مجهول: العيون والحدائق فى أخبار الحقائق، ج٣، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص ٢

(٢) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج٢، ص ٢٩٠.

وكان الوليد لحانا لا يحسن النحو، وعاتبه أبوه عبد الملك على ذلك، وقال له لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم فدخل الوليد بيتاً وأخذ جماعة من علماء النحو مدة يشتغل فيه، فخرج أجهل مما كان يوم دخوله.

وتوفى الوليد في جمادى الأولى سنة ٩٦هـ/٧١٥م بدمشق ودفن بباب القصر، وكانت مدة خلافته تسع سنين وأشهر.

٧- سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م):

تولى سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد في جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ/٧١٤م، وكان مولده بدمشق سنة ٥٤هـ / ٦٧٣ - ٦٧٤م). وعاش سليمان في البادية عند أخواله بنى عبس، وكان لتلك التربية أثر في ثقافته فتميز بالفصاحة والبلاغة. وكان سليمان من خيار بنى أمية، وأستبشر الناس بخلافته خيراً يقول ابن عبد ربه "وكانت ولايته يمن وبركة أفتتحها بخير وإختتمها بخير فأما افتتاحه فيها بخير فرد المظالم وأخرج المسجونين وبغزاة مسلمة بن عبد الملك الصائفة حتى بلغ القسطنطينية، أما إختتامها فاستخلافه عمر بن عبد العزيز".

ومن محاسن سليمان أيضاً إحياء الصلاة لمواقيتها بعد أن كان بنو أمية يؤخروها. (١)

وفي عهد سليمان ازدهرت صناعة الوشى فى اليمن والكوفة والأسكندرية، ولبس الناس الوشى والأردية والسراويل والعمائم وأمر أهل بيته وعماله وخدمه بارتداء الوشى. وأهتم سليمان بعمارة مدينة الرملة فبنى مسجدها ودار الأمانة. وكان تغيير ولاية العهد فى البيت الأموى من أصعب التحديات التى أدت إلى إنهاء ملكهم فها هو الوليد يلجأ إلى خلع سليمان ويباع لولده عبد العزيز وأرسل بهذا الشأن إلى عمال الأقاليم فلم يجبه إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم، ولكن القدر لم يهمل الوليد لتنفيذ خطته.

وقد كانت حادثة تغيير ولى عهد الوليد حادثة مؤسفة، صبغت بداية عهد سليمان بالانتقام من القادة البارعين الذين رفعوا لواء الإسلام، وقد كان الحجاج يحس بالفجوة والكراهية بينه وبين سليمان، وكان يتمنى أن يموت قبل الوليد، وقد حقق أمنيته أما آل الحجاج ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم فقد ذاقوا العذاب من سليمان. (٢)

ومن مآثر سليمان التى أختتم حياته بها والتى سبق أن ذكرناها إختياره عمر بن عبد العزيز لولاية العهد ثم أخيه يزيد بن عبد الملك بعده.

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٤، ص ١٣٨.

(٢) المقرئى: كتاب النزاع والتخاصم، ص ١٧٠.

٨- عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) :

عمر بن عبد العزيز بن مروان أبو حفص خامس الخلفاء الراشدين ولد بجلوان سنة ٦١هـ/٦٨٠م، وفي رواية أخرى في المدينة. وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ولي الخلافة في صفر سنة ٩٩هـ/٧١٧م. وأطلق عليه لقب أشج بنى أمية.

رحل عمر إلى المدينة في سن مبكر ليتلقى العلم عن شيوخها ليتأدب بأدابهم فقد كانت المدينة يومئذ موطن العلم والفقه والحديث فتأثر عمر بهذه البيئة الصالحة وروى الحديث عن كثير من التابعين.

وتولى عمر إمارة المدينة في خلافة الوليد سنة ٨٧هـ/٧٠٦م، فأحسن السيرة في الرعية. ولم يلبث أن عزله الوليد للخلاف الذي حدث بين عمر والحجاج بن يوسف بسبب وفود أهل الكوفة والبصرة إلى المدينة خوفاً من بطش الحجاج وظلمه.

ولما تولى عمر مقاليد الخلافة بموجب وصية سليمان تلقى البيعة من الناس، وخطب فيهم بقوله "أيها الناس إنما نحن من أصول قد مضت وبقيت فروعها فما بقاء فرع بعد أصله وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تتصل فيهم".^(١)

وكان عمر بن عبد العزيز أول من جلس للمظالم بنفسه من الخلفاء وبدأ ببنى أمية فرد الغصوب التي أخذوها إلى أصحابها وحذره بعض خاصته من هذا الأمر خشية أن تتألب عليه قلوبهم، فكان رده في غاية الجرأة في الحق "أبيوم يسوى يوم القيامة تخوفوني فكل خوف أتقيه قبل يوم القيامة لا وقتيه.

كما نهى عماله عن سب علي بن أبي طالب عليه السلام وتوعد المخالف بالعقاب الصارم. وأنشأ عمر بن عبد العزيز ديواناً للسجون وفصل بين حبس الرجال والنساء وبين أهل الجرائم، ومن حبس في دين، وقد أمر ألا يقيد أحد في محبسه.

(١) عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، ط١، القاهرة، ١٩٨٤،

وكانت سياسة عمر بن عبد العزيز المالية ناجحة إلى حد كبير فعزل الولاة الذين أساءوا السيرة في أقاليم الدولة المختلفة ومن هؤلاء يزيد بن المهلب الذي إستأثر بالأموال في خراسان وعين بدلاً منه الجراح بن عبد الله الحكمي وعين على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي وعلى المدينة أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم وعلى الأندلس السمح بن مالك الخولاني، وعلى إفريقية إسماعيل بن عبد الله.

ولما شكا إليه بعض الولاة كثرة الدخول في الإسلام ونقص إيرادات بيت المال، وأستأذنه في فرض الجزية على من اعتنق الإسلام، وبَّخهم بشدة بقوله المشهور أن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً.

وكان عمر زاهداً في أمور الدنيا كلها، فلم يتقاضى أجراً على عمله من بيت المال، وأمر زوجته فاطمة برد ما تملك من مال وحلى وجوهر إلى بيت مال المسلمين وحذرها من سوء العاقبة.

وأدت سياسة عمر الناجحة إلى إقبال الشعوب المفتوحة على الدخول في الإسلام ولقيت دعوة عمر إلى ملوك بلاد ما وراء النهر إلى الإسلام إستجابة سريعة، وأثمرت سياسة الود والعطف على البربر في المغرب من واليها إسماعيل بن عبد الله أقبالاً منقطع النظير على الدخول في الإسلام.

ولم يسلك عمر مع الخوارج سياسة العنف والشدّة كما فعل عمه عبد الملك من قبل أن أخلاقه الكريمة وحبّه للسلم جعلته يقارعهم بالحجة، وقد نجح في إقناع الرسل الذين أرسلهم إليه زعيم الخوارج.

وصفوة القول أن عمر بن عبد العزيز في خلال سنتين وبضعة شهور قام بعدة إصلاحات هائلة في الداخل، وصحح مسار الدولة الإسلامية وكان موضع الرضا والإحترام حتى من أشد الفرق عداً للأمويين كالخوارج والشيعية.

٩- يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ / ٧٢٠-٧٢٤م):

ولى يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم عقب وفاة عمر بن عبد العزيز فى شهر رجب سنة ١٠١هـ/٧٢٠م، بناء على وصية أخيه سليمان بن عبد الملك، ولما احتضر عمر قيل له "أكتب على يزيد فأوصيه بالأمة قال: بماذا أوصيه؟ أنه من بنى عبد الملك ثم كتب إليه، أما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حتى لا تقال العثرة على الرجعة، إنك تترك ما تترك لمن لا يحمذك وتصير إلى من لا يعذك". (١)

وكان يزيد شغوفاً باللهو والطرب، مغرم بجاريتين حبابه وسلامة، ولما توفت حبابه حزن يزيد وظهر عليه اليأس وأنشدها:

كفى حزناً بالهائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفراً
ويرى أحد الباحثين أن الخيال لعب دوراً كبيراً فى نسج هذه القصص كما لعب أعداء بنى أمية دوراً فى عصر التدوين فإذا بالهفوة تصبح جريمة وبالصغائر تصبح كبائر، وفى هذه القصة خير دليل على هذا التصرف.

ومن أهم أعمال يزيد أنه أمر عمر بن هبيرة والى العراق بمسح إقليم السواد سنة ١٠٥هـ/٧٢٤م، ومن المعروف أنه لم يمسح منذ خلافة عمر بن الخطاب وفرض ابن هبيرة رسوماً جديدة على النخل والشجر، وأعاد السحر والهدايا وما كان يحصل فى النيروز والمهرجان.

وفى عهد يزيد أعلن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الذى فر من سجن عمر بن عبد العزيز الثورة فى البصرة وأسر واليها ثم زحف إلى الكوفة وأشدت شوكرته بتأييد ازد له وأهله وبعض خاصته، وسير إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً بقيادة أخيه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد تمكن من قتله وتفريق شمل أتباعه. وعاد الخلاف بين اليمنية والمضرية من جديد، وأصبحت اليمنية من اشد أعداء الدولة وبعد أن كانت من أنصارها وصار العنصر المضرى حزب الأمويين؛

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٤١٠؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ١٦٦.

لأن يزيد كان متزوجاً بنت أخی الحجاج وأعلن إنضمامه صراحة للمضرية وأنقص يزيد عطاء اليمانية وجعله نصف عطاء المضرية، مما أدى إلى حدوث اضطراب للأوضاع فى الشام. كما عاد الخوارج إلى مهاجمة العراق فنجد شوذب الخارجى الذى ظهر فى عهد عمر بن عبد العزيز وهادنه يهاجم الكوفة ويهزم جيوشها عدة مرات، ولكن مسلمة حينما دخل الكوفة لحرب بن المهلب أرسل نحوه جيشاً ضخماً تمكن من قتله بعد معركة حامية الوطيس.

وفى عهد يزيد وصل دعاة بنى هاشم إلى خراسان مرتدين زى النجار، وشك فى أمرهم سعيد بن عبد العزيز واليها فأخبروه بأنهم خرجوا من أجل التجارة فغفى عنهم.

ومن الرجال الذين اعتمد عليهم يزيد ولى يزيد بن مسلم على المغرب، وعبد الرحمن بن الضحاك على المدينة، وعمر بن هبيرة على العراق، وكعب بن حامد العبسى على الشرطة. (١)

وجعل يزيد ولاية العهد من بعده لأخيه هشام ثم ابنه الوليد، وتوفى يزيد بن عبد الملك بالبلقاء فى شعبان سنة ١٠٥هـ/٧٢٤م.

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٣١١.

١٠- هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٣٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م):

تولى هشام بن عبد الملك بن مروان الخلافة فى آخر شعبان سنة ١٠٥هـ/٧٢٤م عقب وفاة يزيد حيث وفد عليه البريد بالرفافة ليخبره ثم رحل هشام إلى دمشق ليتلقى البيعة من الناس. (١)

ومن المعروف أن هشاماً ولد سنة ٧٢هـ، ويعد من ساسة بنى أمية البارزين، يقول المسعودى "أن السواس من بنى أمية ثلاث معاوية وعبد الملك وهشام، وفتحت به أبواب السياسة وحسن السيرة".

واهتم هشام بتحسين الثغور وحفر القنوات بطريق مكة وعمل الخبز، كما عزل الولاة الذين أسرفوا فى ظلم الرعية، ووضع عليهم العيون والجواسيس للوقوف على أعمالهم.

وقد نظم هشام الدواوين وضبط الحسابات بعناية فائقة، قال عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس-والفضل ما شهدت به الأعداء-جمعت دواوين بنى مروان فلم أر ديواناً أصبح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام. ويحدثنا السيوطى عنه "كان لا يدخل بيت ماله مالا حتى يشهد أربعون قسامة لقد أخذ من حقه، ولقد أعطى لكل ذى حق حقه".

وفى عهد هشام ارتفع شأن اليمينية على حساب المضرية نتيجة لما حدث فى عصر يزيد بن عبد الملك، فأحب هشام أن يوجد التوازن بين الفريقين فولى على العراق خالد بن عبد الله القسرى، وفى سنة ١٢٠هـ/٧٣٧-٧٣٨م تغيرت سياسة هشام بالنسبة للقبائل فتحول عن اليمينية إلى المضرية.

ومن الأحداث الهامة فى عهد هشام إستلاء الجنيد بن عبد الرحمن على بلاد السند وغزوة عنبسة بن سحيم الكلبى بلاد الفرنج، وتعين عبد الله بن الحجاب على بلاد المغرب وغزوة نصر بن سيار إلى بلاد ما وراء النهر سنة

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٣١٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ١٩٢.

١٢١هـ/٧٣٨م تغيرت سياسة هشام بالنسبة للقبايل فتحول عن اليمينية إلى المضرية.

ومن الأحداث الهامة في عهد هشام إستيلاء الجنيد بن عبد الرحمن على بلاد السند وغزوة عنبسة بن سحيم الكلبى بلاد الفرنج، وتعين عبد الله بن الحجاب على بلاد المغرب وغزوة نصر بن سيار إلى بلاد ما وراء النهر سنة ١٢١هـ/٧٣٨-٧٣٩م.

مما يؤخذ على هشام تغافله عن دعاة بنى العباس الذين نشطوا في عهده في الدعوة لآل البيت حتى وصلوا إلى خراسان، وجدوا في تشويه سمعة الدولة الأموية وإستفحل أمرهم، وقد ظهرت آثار ذلك قبيل وفاته. وتوفى هشام في شهر ربيع الأول سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م.

١١- الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني)

(١٢٥-١٢٦هـ/٧٤٣-٧٤٤م):

كانت بيعة الوليد في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م، حيث عقد أبيه ولاية العهد له بعد أخيه هشام بن عبد الملك، ولما ولي هشام أكرم الوليد حتى ظهر من الوليد حب الشراب والأنغماس في اللهو يقول المسعودي " وكان الوليد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنيين من البلدان....". (١) وظهر الوليد منه للناس تهاون بأمور الدين الأمر الذي جعل هشام يطمع في البيعة لأبنه مسلمة وخلع الوليد وأستخف به.

ثم رحل إلى الأردن حتى وفاة هشام فجاءه البريد وسلم عليه بالخلافة وقام الوليد بعزل عمال هشام إلا يوسف بن عمر الثقفي لأنه وجد في ديوان هشام كتباً من العمال بعزل الوليد إلا يوسف الذي ثار على هشام وأمر الوليد بحبس خالد بن عبيدا الله ليدفع ما عليه من بقايا خراج العراق وكان الوليد من عشاق رياضة سباق الخيل فأقام حلبه للسباق.

وتخلص الوليد من يحيى بن زيد بن علي الذي فر إلى خراسان فأمر نصر بن سيار بملاحقته وقتله. (٢)

وعادت الفتنة من جديد بين اليمانية والمضرية في عهد الوليد حيث إنحازت مصر إلى جانب الوليد واستعدت للحرب وأثخنت اليمانية القتل في مضر وهرب الوليد من ميدان القتال إلى قصره ليحتمى به وأخرجت اليمانية محمد بن خالد من السجن فأرسل إلى ابن عم الوليد وهو يزيد ابن الوليد بن عبد الملك وبإيعوه وأرسل إلى أشرف المضريين فبايعوه ومكث الوليد بن يزيد أياماً كثيرة مخلوعاً.

وأغضبت سياسة الوليد بن يزيد أكابر أهل الشام وأجمعوا على قتله مع غيره من رجالات دولته وهجموا عليه، فلما أحس بهم دخل داره وفتح المصحف

(١) ابن النير: الكامل، ج٤، ص٢٥٦.

(٢) نبيه عاقل: تاريخ العرب، ص٢٧٩.

وقال يوم كيوم عثمان ثم تقدم إليه يزيد بن الوليد وقتله. وكان مقتل الوليد في أواخر شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م.



١٣- يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(جمادى الآخرة- ذى القعدة سنة ١٢٦هـ):

تولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك فى أول رجب سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م، وأمه أبنة يزجرء بن كسرى، سبأها قةببة بن مسلم بخراسان وبعث بها إلى الحجاج بن يوسف الذى أرسلها إلى الوليد بن عبد الملك فةزوجها، ولم ءنجب منه سوى يزيد. وأطلق على يزيد لقب الناقص لأنه أنقص الزيادة التى زاها الوليد فى أعطيات الجند، وكان يزيد ءقياً ورعاً وأكءسب وء القبائل اليمنية فعزل ولاة القيسية وولى مكانهم اليمنية وشهدء الدولة إءطرابا فى مءءلف البلدان فخرج عليه العباس بن الوليد بءمص وبشر بن الوليد بءنسرين وعمر بن الوليد بالأردن ويزيد بن سليمان بءلءطين. (١)

وءوفى يزيد بن الوليد بءمشق يوم الأحد مسءهل ذى الحجة سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م فكانء ولاءه ءوالى ءمسة أشهر ويومين.

(١) على إبراهيم ءسن: ءاريخ الإسلامى العام، ص ٣٧٠.

١٣- إبراهيم بن الوليد (١٢٦هـ / ٧٤٣م):

كان إبراهيم بن الوليد مقيماً في دمشق ولما مات أخوه يزيد بن الوليد تولى مقاليد الأمور سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م، وكان ضعيفاً مغلوباً على أمره، فكان يسلم عليه تارة بالخلافة، وتارة بالأمانة وتارة لا يسلم عليه بوحدة منهما، فمكث سبعين يوماً فثار عليه مروان بن محمد وخلعه وبويع له بالخلافة يوم الإثنين للنصف من صفر سنة ١٢٧هـ، ولم يزل مع مروان حتى غرق بالزباب. (١)

(١) أبو الفدا: التبر المسبوك في تاريخ الملوك، ص ٤١.

١٤- مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤-٧٤٩م):

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء الدولة الأموية، بويع بالخلافة في صفر سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م، وكان يلقب بالحمار أو حمار الجزيرة لجرأته في الحروب ولقب أيضاً بالجعدي نسبة إلى مؤدية الجعدي بن درهم. وفي عهد مروان إشتدت الثورات التي قام بها اليمانية ضد الحكم الأموي في أنحاء الشام وفي العراق، وتمكن مروان بفضل مهارته الحربية ومساندة القيسية أن يخمد تلك الثورات الواحدة بعد الأخرى.

وظهر الخوارج في العراق فسار مروان لحرب زعيمهم الضحاك بن قيس الحروري حتى قتله بعد معارك عديدة. كما وفد خوارج اليمن إلى مكة والمدينة وعليهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي وبلخ بن عقبة ازدي فأرسل لهم مروان جيشاً فرق جمعهم. (١)

وإشتد نفوذ أبو مسلم الخراساني في الشرق وعلى الأخص في خراسان وأشتبك مع نصر بن سيار واليها من قبل مروان في حروب طاحنة ولما تأزم الموقف إستجد نصر بمروان بأرسال المدد ولما يأس نصر أرسل إلى والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يطلب النجدة ولم يجبه لأن العراق كانت كالبركان يغلى بالفتن والثورات.

ولذلك سقطت خراسان في يد والي أبي مسلم وفر نصر بن سيار ونزل ساوة بين بلاد همذان حتى توفي هناك. (٢)

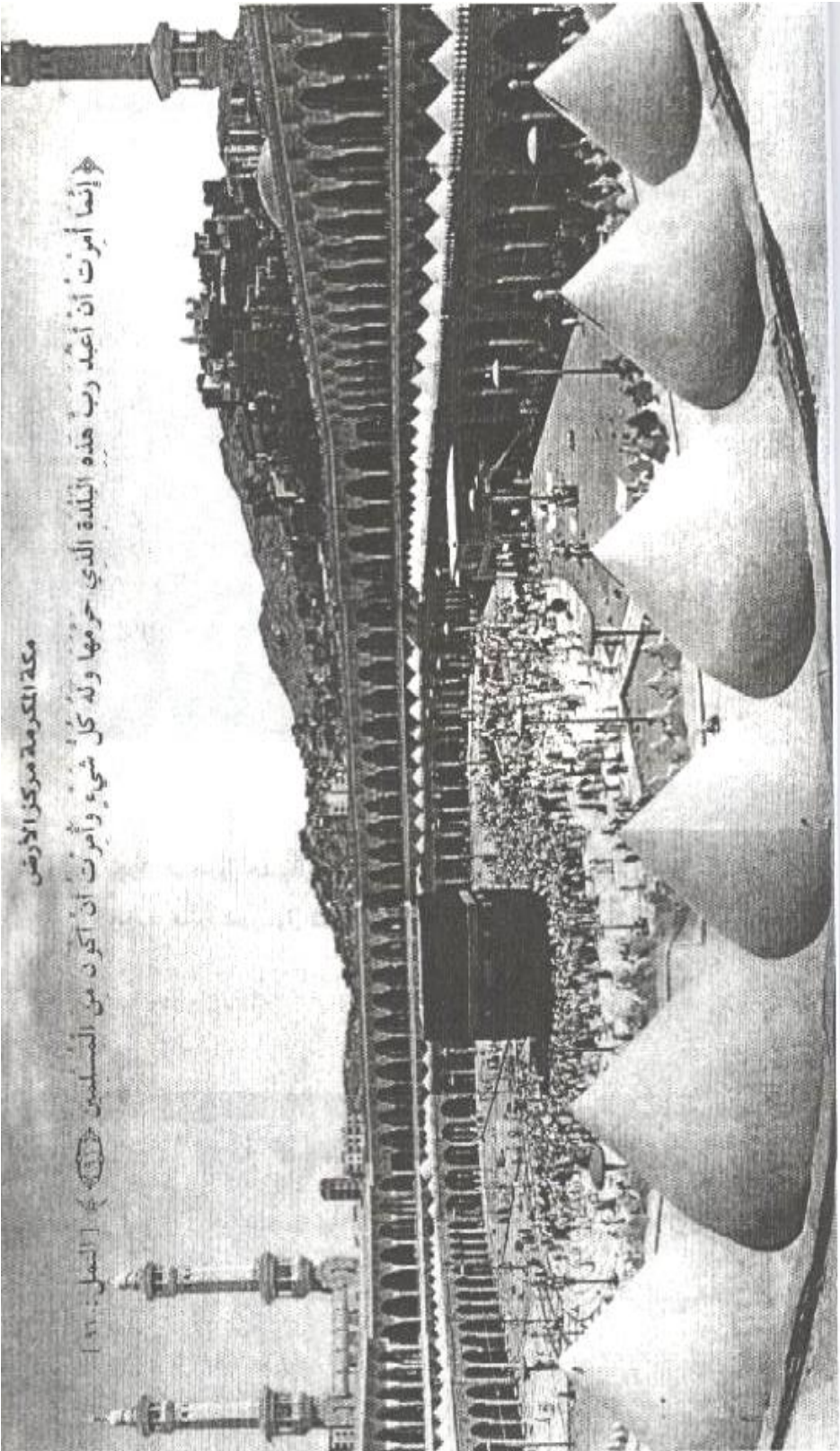
ودخل أبو العباس السفاح الكوفة سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م وبايعه الناس وأظهر دعوته وأرسل جيشاً لمحاصرة يزيد بن هبيرة بواسطة ثم نزل الأنبار وسماها الهاشمية.

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٩٧.

(٢) المسعودي: الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م، المجلد الثالث، ص ٢٥٧.

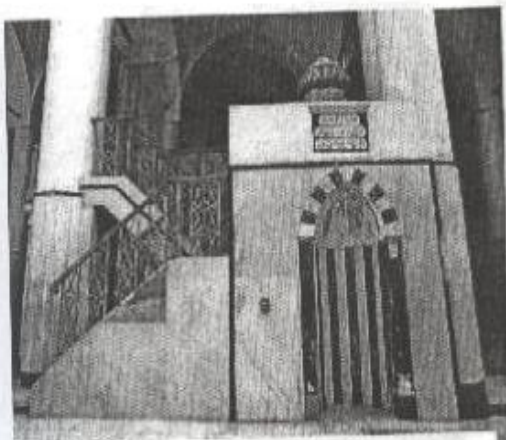
أما مروان بن محمد فزحف إلى الموصل ونزل الزاب فجهز السفاح إليه جيشاً لحربه وعليه عمية عبد الله بن علي وعبد الصمد بن علي، وكان جيش مروان نحو مائة وعشرين ألف فغرق منه نفر عظيم، وعاد مروان إلى دمشق وعبد الله يلاحقه ثم هرب إلى مصر، وأعلن أهل الموصل وحران بيعتهم إلى أبي العباس وسارع أهل منبج وقنسرين وحمص وبعلبك بأعلان البيعة للعباسيين.

وأقام عبد الله بدمشق وبعث أخاه صالح بن علي خلف مروان إلى مصر فجرى بينهم قتال حتى قتل مروان في أبو صير من أعمال الفيوم سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م فكانت ولاية مروان خمس سنين وشهراً.



مكة المكرمة مركز الأرض

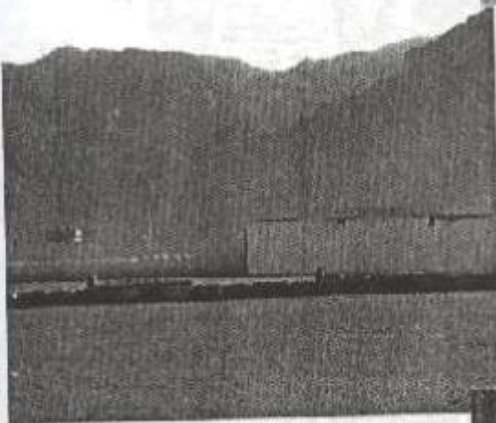
﴿ [العمل: ٥٧] ﴾ **إِنَّمَا أَمْرُنَ أَنْ أُعْبَدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**



مسجد قباء أول مسجد بنى في
الإسلام بالمدينة المنورة



أرض المعركة في غزوة أحد وفيها يظهر
قبر سيدنا حمزة عم رسول الله ﷺ



محراب رسول الله ﷺ بالروضة
الشريفة بمسجده في المدينة المنورة

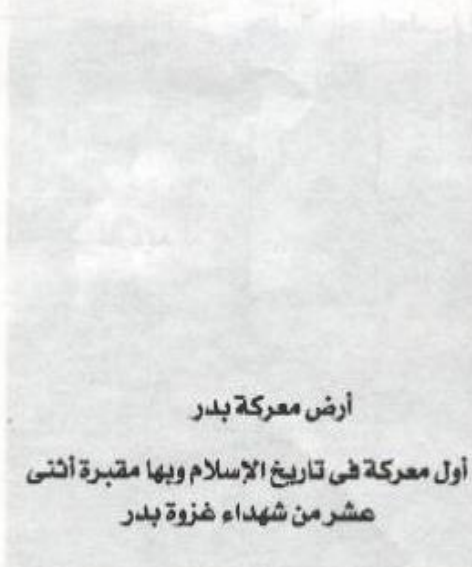




غار ثور



جبل ثور به الغار الذي احتفى به الرسول ﷺ من كفار قريش وهو في طريقه مهاجرا إلى المدينة المنورة



أرض معركة بدر

أول معركة في تاريخ الإسلام وبها مقبرة أثنى عشر من شهداء غزوة بدر

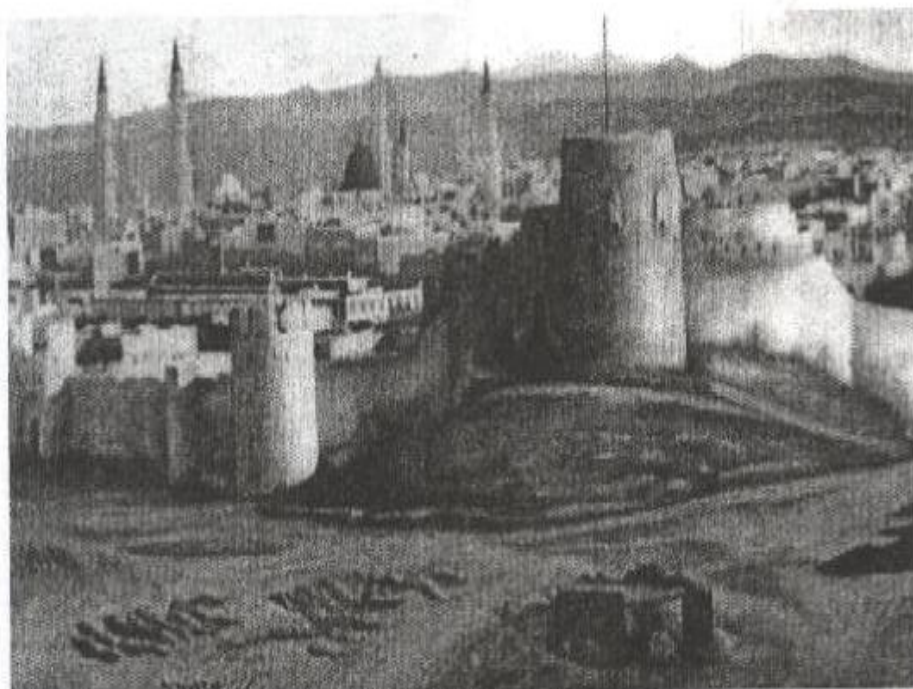




مسجد أبي قبيس على الجبل الذي
يحمل اسمه



جبل النور وبه غار حراء الذي أنزلت فيه
أول آية قرآنية على النبي ﷺ



صورة قديمة للمدينة المنورة

A decorative border with an archway at the top, featuring intricate geometric and floral patterns. The archway is formed by a series of overlapping lines, creating a sense of depth and shadow. The patterns are dense and repetitive, typical of Islamic art.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي):
 كتاب الحلة السيرة، تحقيق الدكتور حسين
 مؤنس ، ج١، القاهرة، ١٩٦٣.
- الإبشيهي (شهاب الدين أحمد) : المستظرف من كل فن
 مستظرف ج ١ ، القاهرة ١٣٥٢هـ
- الأنسليدي إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس،
 القاهرة ١٣٠١هـ
- ابن الأثير: (عز الدين) الكامل في التاريخ، القاهرة ،
 ١٣٤٨هـ
- الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك، بغداد ١٩٦٤م.
- الأصمغنهاني: (أبو الفرج) مقاتل الطالبين ، بيروت ١٩٦١.
- ابن أيوب: درر السجبان في غرر تواريخ الأزمان ،
 مخطوطة، رقم ٤٤٠٩ بدار الكتب المصري
- الباروني : (أبو الربيع): مختصر تاريخ الإباضية ، تونس

١٩٣٨.

الـبغدادى: (الخطيب): تاريخ بغداد، القاهرة، (١٤ جزءاً) ١٩٣١

الـبغدادى: (عبد القادر بن طاهر): الفرق بين الفرق،

تحقيق محبى الدين عبد الحميد ، القاهرة

الـبغدادى: (محمد بن الحسن): كتاب الطبىخ، تحقيق

الدكتور داود الحلبي ، الموصل ، ١٩٣٤

الـبكرى: (أبو عبيد الله): المغرب فى ذكر بلاد إفريقية

والمغرب، الجزائر، ١٩١١

الـبكرى: معجم ما استعجم (٤ أجزاء) القاهرة ١٩٤٥-

١٩٥١

الـبيرونى: أبو الريحان محمد: الآثار الباقية عن القرون

الخالية ، لبيزج ١٨٧٨م.

الـبيهقى: (محمد بن حسن): تاريخ البيهقى ، ترجمة

دكتور يحيى الخشاب وصادق نشأت ، القاهرة

١٩٥٦ ،

التلخيص: الفرج بعد الشدة ، ج ٢، القاهرة ١٩٥٥

الجـاحـظ: (أبو عمرو): كتاب التبصير بالتجارة، تحقيق
الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، بيروت
١٩٦٦م

..... : التاج فى أخلاق الملوك ، القاهرة ١٩١٤م.

..... : البيان والتبيين ، ج ٣، القاهرة، ١٩٣٣، ج ١،
طبعة بيروت ١٩٦٨.

..... : رسالة فى المشارب والمشروب ، بيروت
١٩٦٩م.

..... : المحاسن والاضداد بيروت ١٩٦٩م.

الجـزنائى (أبو الحسن على) : كتاب زهرة الأس فى بناء
مدينة فاس ، نشره الفريد بل ، الجزائر،
١٩٢٢.

الجـهـشـيارى: (أبو عبد الله محمد بن عبدوس): كتاب الوزراء
والكتاب، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا
وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة

١٩٣٨.

ابن الجوزى: (أبو الفرج عبد الرحمن): المنتظم فى تاريخ
الملوك والأمم، ج٥، طبعة حيدر آباد الدكن،
١٣٥٨هـ

ابن الجوزى: ذم الهوى، القاهرة ١٩٦٢.

ابن خردادبه: أبو القاسم عبد الله: المسالك والممالك، تحقيق
غويه، لينن ١٨٨٩.

ابن الخطيب: (لسان الدين) أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل
الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق الدكتور
أحمد مختار العبادى والأستاذ محمد إبراهيم
الكنائى، الدار البيضاء، ١٩٦٤.

ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد): المقدمة طبعة
بيروت ١٩٦١، وطبعة القاهرة ١٩٦٦هـ

ابن خلدون: كتاب العبر وديون المبتدأ والخبر، ج٤، طبعة
بيروت، ١٩٥٧.

السـلاوى : (أبو العباس أحمد): الاستقصا لأخبار دول
المغرب الأقصى ، ج ١، الدار البيضاء ،
١٩٥٤.

السـيوطى: جلال الدين عبد الرحمن) : تاريخ الخلفاء
بيروت

الشهابشـتى: كتاب الديارات ، تحقيق الأستاذ كوركيس عواد
بغداد ١٩٥١

الشهرسـتانى: أبو الفتح محمد : الملل والنحل ، القاهرة
١٩٤٨، وطبعة القاهرة ١٩٦١

الصـابى: أبو الحسن هلال): كتاب تحفة الأمراء فى
تاريخ الوزراء تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد
فراج ، القاهرة ١٩٥٨.

الصـابى: رسوم دار الخلافة ، تحقيق الأستاذ ميخائيل
عواد ، بغداد ١٩٦٤.

ابن طباطبـا محمد بن على : كتاب الفخرى فى الآداب
السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة ١٣١٧هـ

الطبري : محمد بن جرير تاريخ الرسائل والملوك ، ج ٨ ،
القاهرة ١٩٦٦ ، وطبعة دار القاموس الحديث
بيروت.

ابن طيفور : أبو طاهر أحمد : كتاب بغداد في تاريخ الخلافة
العباسية ، بغداد ، ١٩٦٨ .

ابن عبد ربه أبو عمر أحمد: العقد الفريد ، ج ٤ ، تحقيق
الأستاذ أحمد أمين ، القاهرة ١٩٤٤ ، وطبعة
القاهرة ١٩٤٩ م.

ابن البصري (أبو الفرج غريغوريوس): مختصر تاريخ الدول
تحقيق الأب أنطون صالحاني اليسوعي ،
بيروت ١٩٥٨ .

ابن عذاري: (أبو عبد الله محمد المراكشي : البيان المغربي
في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٢ ، بيروت ،
١٩٥٠ .

ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ١ ،
القاهرة ١٣٥٠ هـ

ابن الفقيه الهمداني: أبو بكر أحمد : مختصر كتاب البلدان ، تحقيق
دي غويه ، لندن ١٨٨٥م.

الفيروز آبادي : القاموس المحيط القاهرة ، ١٣٤٤هـ

ابن قتيبة : (أبو محمد عبد الله : الإمامة والسياسة ، ج ٢
القاهرة

ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، القاهرة ١٩٣٢

القزويني : زكريا بن محمد: أثار البلاد وأخبار العباد ،
دار صادر ، بيروت ١٩٦٠

ابن القفطي : جمال الدين أبو الحسن : تاريخ الحكماء ،
ليبزج ١٩٠٣م

القلقشندي : (أبو العباس أحمد : صبح الأعشى في صناعة
الإنشا ، ج ٥، القاهرة ، ١٩١٣.

ابن القوطية : محمد القرطبي : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق
دون خليان ريبيرا مدريد، ١٨٦٨.

ابن قيم الجوزية : شمس الدين أحمد: كتاب أخبار النساء ، بيروت
١٩٦٤

الكـــــــــــــــــــــــندي: أبو عمر محمد بن يوسف كتاب الولاة وكتاب
القضاة طبعة رفن جست بيروت ١٩١٣.

المـــــــــــــــــــــــاوردي: (أبو الحسن علي): الأحكام السلطانية ، مصر
١٢٨٩هـ

المســـــــــــــــــــــــعودي: أبو الحسن علي : مروج الذهب ومعادن
الجواهر ج ٢، القاهرة ١٣٤٦هـ و ج ٣، طبعة
بيروت دار الأندلس

المســـــــــــــــــــــــعودي: التنبيه والإشراف ، بغداد ١٩٣٨.

المقدسي البشاري: شمس الدين أبو عبيد الله محمد): أحسن
التقاسيم في معرفة الأقاليم ، لندن ، ١٩٠٦.

المقريـــــــــــــــــــــــزي: (تقى الدين أحمد): كتاب المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠
هـ

المقريـــــــــــــــــــــــزي : شذور العقود في ذكر النقود ، تحقيق
الطباطبائي، النجف ١٣٥٦هـ.

ابن مـــــــــــــــــــــــنظور : لسان العرب طبعة صادر ، بيروت ١٩٥٥-

١٩٥٦.

مجهول: أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، نشرة

لافونتي القنطرة ، مدريد ١٨٦٧.

مجهول: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، ج ١،

القاهرة ١٩٢٨م.

مجهول: أخبار الدولة العباسية ، تحقيق الدكتور عبد

العزیز الدورى ، بيروت ١٩٧١م.

النجفى: (على بن الحسين الهاشمى) : تاريخ الأنبار ،

بيروت ١٩٧٢.

النعمان: (القاضى أبو حنيفة بن محمد) قضيبية إقريطش

فى عهد المعز لدين الله ، تحقيق فرحات

الدشراوى. حوليات الجامعة التونسية، العدد

الثانى ١٩٦٥م.

النوبختى: (أبو محمد السحن): كتاب فرق الشيعة ،

استنبول ١٩٣١م.

النويرى السكندرى: (محمد بن قاسم) : الإمام بما جرت به الأحكام

المقضية في وقعة الاسكندرية، نسخة مصورة
من المخطوطة، نسخة الهند، المحفوظة بمكتبة
كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، برقم ٧٣٨م.

ياقوت الحموى : (شهاب الدين أبو عبيد الله) : معجم البلدان ، ٥
مجلدات ، طبعة بيروت ١٩٥٥.

البيهقي ————— وبي : (أحمد بن جعفر) : تاريخ البيهقي ، ٣ أجزاء
طبعة النجف ١٣٥٨هـ

ثانيا المراجع الحديثة

أرسلان الأستاذ شكيب: تاريخ غزوات العرب

أطهر(القاضي مباركهورى): العرب والهند فى عهد الرسالة، ترجمة
عبد العزيز عزت ، القاهرة ١٩٧٣.

أمين (الأستاذ أحمد) : ضحى الإسلام ، ج١، القاهرة ١٩٥٢

أمين (دكتور حسين): سامراء فى ظل الخلافة العباسية ، بغداد
١٩٦٨ براون إدوارد.

بروفنس —————ال: الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة
الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة

حمدي (الأستاذ أحمد مندوح): معدات التجميل بمتحف الفن الإسلامي
القاهرة ١٩٥٩.

حوراني (جورج فاضلو): العرب والملاحة في المحيط الهندي ،
ترجمة دكتور يعقوب بكر، القاهرة
١٩٥٨م

حي (بدر الدين الصيني): العلاقات بين العرب والصين، القاهرة
١٩٥٠

حيدر (صلاح): المجتمع العراقي في العصر العباسي
الأول، رسالة ماجستير بجامعة الاسكندرية.

خدوري (الأستاذ مجيد): الصلات الدبلوماسية بين هارون الرشيد
وشارلمان ، بغداد، ١٩٣٩م

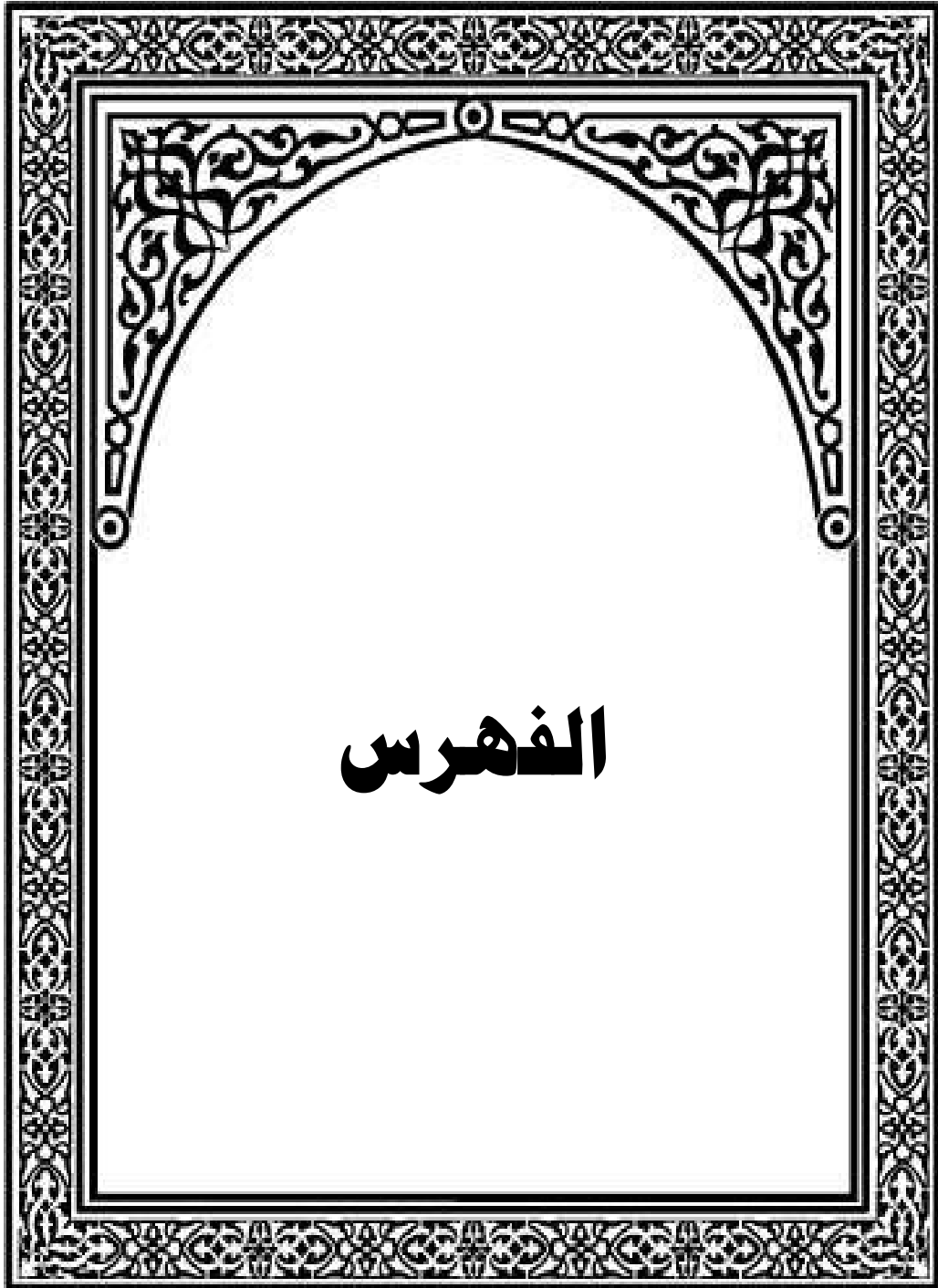
الخضري (الشيخ محمد): محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ،
القاهرة ١٩٥٩.

ديفيدز (كارلس): شارلمان، ترجمة الدكتور الباز العرينى ،

القاهرة ١٩٩٥

رستم (الأستاذ الأسد): لروم والعرب ، ج١، بيروت ١٩٥٦.

الريس (دكتور محمد ضياء الدين) : النظريات السياسية الإسلامية ،
القاهرة .



الفهرس

الصفحة	الموضوع
	الفصل الأول
	الحياة السياسية والدينية في جزيرة العرب قبل الإسلام
	١- مدن الحجاز.
	٢- الحياة الدينية عند العرب.
	٣- أيام العرب.
	الفصل الثاني
	البعثة النبوية وحياة الرسول ﷺ في مكة
	١- محمد ﷺ قبل البعثة.
	٢- البعثة النبوية.
	٣- قيام الدولة العربية الإسلامية في المدينة.
	الفصل الثالث
	الصراع بين مكة والمدينة
	غزوة بدر سنة ٢هـ.
	غزوة أحد سنة ٣هـ.
	غزوة الأحزاب (الخنديق) ٥هـ .
	صلح الحديبية سنة ٦هـ.
	غزوة مؤتة ٨هـ.
	فتح مكة ٨هـ.
	غزوة حنين والطائف ٨هـ.
	غزوة تبوك سنة ٩هـ
	عام الوفود ٩هـ
	حجة الوداع سنة ١٠هـ.

الصفحة	الموضوع
	الفصل الرابع
	عصر الخلفاء الراشدين (١١-٤٠هـ/٦٣٢-٦٦١م)
	الخليفة أبو بكر الصديق <small>رضي الله عنه</small> (١١-١٣هـ/٦٣٣-٦٣٤م)
	خلافة سيدنا عمر بن الخطاب <small>رضي الله عنه</small>
	(١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)
	الخليفة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م)
	خلافة سيدنا علي بن أبي طالب <small>رضي الله عنه</small> (٣٥-٤٠هـ / ٦٥٦-٦٦١م).
	الفصل الخامس
	عصر الخلفاء الأمويين (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٦٨٠م)
	١- معاوية بن أبي سفيان
	٢- يزيد بن معاوية
	٣- معاوية بن يزيد
	٤- مروان بن عبد الحكم
	٥- عبد الملك بن مروان
	٦- الوليد بن عبد الملك
	٧- سليمان بن عبد الملك
	٨- عمر بن عبد العزيز
	٩- يزيد بن عبد الملك
	١٠- هشام بن عبد الملك
	١١- الوليد بن يزيد
	١٢- يزيد بن الوليد
	١٣- إبراهيم بن الوليد
	١٤- مروان بن محمد
	قائمة المصادر والمراجع

الصفحة	الموضوع
	الفهرس